الدكتور عدنان حداد

الخطر اليهودي
على المسيحية والإسلام

قراءة توراتية في نفسية اليهود وتفكيرهم عبر العصور



بيروت لبنان

توزيع
دار النفائس

الخطر اليهودي

على المسيحية والإسلام

قراءة توراتية في نفسية اليهود وتفكيرهم عبر العصور

الدكتور عدنان حداد

الخطر اليهودي

على المسيحية والإسلام

قراءة توراتية في نفسية اليهود وتفكيرهم عبر العصور



دار البيروني
للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٧




توزيع
دار النفائس

بيروت ـ ص.ب. : ٥١٥٢/١٤ ـ هاتف: ٨١٠١٩٤/٠١ ـ فاكس: ٨٦١٣٦٧/٠١

كلمة الناشر

لم أكن أعرف الدكتور عدنان حداد من قبل، لكنني حين التقيته للمرة الأولى شعرت كأن مودة حميمة تربطني به منذ زمن بعيد. كان حب الثقافة الفكرية والعلمية قاسمنا المشترك، لكن لغة التعبير عند كلينا مختلفة. هو يكتب باللغة الفرنسية وأنا بالعربية. وعندما سلمني مخطوطة هذا الكتاب قال لي: هذه أولى محاولاتي في الكتابة بالعربية، ولا شك أنك ستجد فيها بعض الاضطراب والخلل، فعليك ضبطه. والكتاب يتحدث عن اليهودية وخطرها على المسيحية والإسلام، لكنني لم أضع له عنواناً بعد، فأرجو أن تكون هذه مهمتك. قلت: لا بد من قراءة الكتاب أولاً وبعد ذلك اقترح له عنواناً. عندما بدأت قراءة الصفحات الأولى وجدت الأفكار جيدة وكذلك عرضها، لكن بعض الجمل والتعابير بحاجة إلى صياغة جديدة. أخذت بقية الصفحات تشدني وتغريني واحدة بعد أخرى إلى أن أنجزتها بكاملها قراءة وصياغة، فقلت لصديقي: اقترح لكتابك القيّم العنوان التالي: «الخطر اليهودي على المسيحية والإسلام، قراءة توراتية في نفسية اليهود وتفكيرهم عبر العصور»، فأيده على الفور.

يبدا الكتاب بعرض مرحلة البداوة التي كان عليها اليهود أيام إبراهيم

وإسحاق ويعقوب في أرض كنعان، ثم انتقالهم إلى مرحلة نصف البداوة في مصر وخروجهم منها زمن موسى ويشوع بن نون، ثم مرحلة الحضارة في عهد القضاة والمرحلة الملكية مع شاوول وداوود وسليمان.

يستعرض بعد ذلك وضع اليهود مع بدء الدعوة المسيحية، فيشرح موقفهم من المسيح وما قبلوه من تعاليمه وما رفضوه منها. ثم يتكلم عن اليهودية والمسيحية عشية ظهور الإسلام: قومية اليهود المتزمتة، والتوراة وبناء الهيكل، ونشوء فكرة شعب الله المختار، كما يتكلم عن فِرق المسيحية قبل الإسلام في بيزنطيا وبلاد فارس وإسبانيا. ويستعرض بعد ذلك أديان العرب قبل الإسلام ثم ظهور الإسلام وموقف كل من اليهودية والمسيحية منه. ثم ينتقل إلى الكلام عن التحدي الإسرائيلي للمسيحية والإسلام، وما يجب أن يعرفه العرب، مسيحيين ومسلمين، عن خطر الصهيونية عليهم، بدءاً من محاكمة المسيح وصلبه حتى تهديد المسجد الأقصى في وقتنا الحاضر.

من حق كل إنسان عربي أن يطلع على حقيقة عدوه الإسرائيلي الذي زرعته السياسة الدولية في قلب الوطن العربي. إن مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين ليس وليد وعد بلفور عام ١٩١٧، بل هو من الأسس الرئيسية لتفكير اليهود منذ عصور غابرة. فاليهود شعب شديد الحرص على التمايز عن غيره من الشعوب وشديد التمسك بعنصريته وانكماشه على نفسه والنظر إلى الآخرين كأعداء يجب القضاء عليهم. ومن سخريات القدر أن يطبق اليهود نظرياتهم العنصرية وحقدهم التاريخي على العرب الذين احتضنوهم وأكرموهم، خصوصاً في الأندلس، حيث عاشوا عصرهم الذهبي تحت الحكم العربي الإسلامي.

إن هذا الكتاب استعراض لأفكار اليهود ودلالاتها من خلال قراءة معمقة للتوراة. فهو لذلك يفترض أن يساهم في تطوير وعي المجتمع العربي بالخطر الداهم الذي يحمله المشروع الصهيوني لإخضاع العرب وإذلالهم والسيطرة على أرضهم وثرواتهم، ويكشف عن الأفكار التي تتحكم بتصرفات

اليهود تجاه فلسطين والمنطقة العربية بأسرها، وكيف أن مشروع إسرائيل القائم على أساس ديني يسقط إذا لم ينفذ حكام إسرائيل المشروع التوراتي، وكيف أن إسرائيل أكبر من قضية فلسطين لأنها تشمل بمخططاتها وخطرها كل إنسان عربي ومستقبله، وتتحدى وجوده وحقه بالحياة في عالم أصبح العلم فيه والتكنولوجيا والاختراع عوامل رئيسية في تقرير مصائر الشعوب وقدراتها على الاستمرار والمقاومة ورد التحديات والحفاظ على مقومات حياتها.

ولا شك أن القرن القادم سيكون حاسماً في هذا الاتجاه، فإما أن يقضي العرب على هذه الجرثومة الدولية الخطيرة الآتية من أعماق التاريخ، وإما أن يقعوا صرعى لتأثيراتها القاتلة.

الدكتور محمد ضاهر

مقدمة

من الغباء الاعتقاد أن عامل الاقتصاد هو الرابط الذي يجمع بين اليهود. وعلى الرغم من أن معظمهم يتعاطى التجارة والربا إلا أنهم لا يتمتعون جميعاً بالقدر نفسه من الثروة والغنى.

ومن السذاجة القول إن العرق الواحد هو اللحمة التي تشدهم إلى بعضهم؛ فوجود الإشكينازيم (يهود أوروبا) والسفرديم (يهود الشرق) دليل على وجود عروق مختلفة. إن الدراسة، في هذا الخصوص، أكدّت أن اليهودي البولوني، من ناحية العرق والعنصر وفصيلة الدم وغيرها، أقرب إلى المسيحي البولوني منه إلى اليهودي المغربي مثلاً. إن الفارق بينهما قد يكون بقدر الفارق بين السلافية وبين السامية، وربما أكثر.

ومن السطحية الادعاء أن الاضطهاد الذي لحق باليهود في أوروبا كان سبب اندفاعهم إلى أرض فلسطين. فلو أن حرصهم على سلامتهم كان هاجسهم الوحيد، فلماذا لم يقبلوا بإنشاء وطن لهم في الربوع الأوغندية كما عرضت عليهم الحكومة البريطانية؟.

ومن البلاهة تصديق الادعاءات التي راجت في أواخر القرن الماضي

حول إيجاد حل لما عُرف في ذلك الوقت باسم «المسألة اليهودية». إن هذه المسألة لم تُحل أبداً، لأن اليهود ما زالوا على حالهم مشتتين في كافة أنحاء العالم ومعرضين للتنكيل كما كان الوضع سابقاً؛ لا بل نشأت عن ذلك التصرف الظالم، مسألة هي المسألة الفلسطينية.

إن العامل الرئيسي الحقيقي الذي يجمع بين اليهود ويشدهم إلى بعضهم البعض هو في الأساس عامل ديني تمتد جذوره إلى أحداث التاريخ الغابرة عبر إقامتهم في مصر وخروجهم منها ومن ثَمّ نفيهم إلى بابل وسبيهم في أورشليم، إلى تبعثرهم في العالم، مع التشديد على ذلك الشعور الراسخ بكونهم شعب الله المختار وعلى حقهم الإلهي بملكية الأرض الموعودة وبالعودة إليها للتحضير لمجيء المسيح الحقيقي الذي لن يتأخر عن الظهور متى التأم شملهم في ربوع أرضهم واستتب لهم الأمر فيها، ومتى تمكنوا من إعادة بناء الهيكل، هيكل سليمان.

فقيراً كان الإسرائيلي أم غنياً، متديناً أم ملحداً، شرقياً أم غربياً، أشكينازيماً أم سفرديماً، متعلماً أم جاهلاً، فإن القاسم المشترك بينهم جميعاً هو هذا الشعور الراسخ بانتمائهم إلى شعب علّم الإنسانية الحضارة، ونشر نور التوحيد عبر كل الأصقاع. وهم عندما يتباهون بتراثهم يقولون: ثلاثة غيروا مجرى التاريخ، موسى وعيسى وماركس. الثلاثة كانوا يهوداً.

قد يعترض معترض قائلاً إن من اليهود من تحرر من هذا العامل الديني واسترخى غير مكترث في مادية الإلحاد المطلق وكرس نفسه لشؤون الأرض دون أن يرفع رأسه مرة واحدة في اتجاه السماء.

ولكن قد يصادف المرء يهوداً يدّعون الإلحاد ويتشدّدون على تمسكهم بالمادية الماركسية، من أبرزهم الهنغاري هرتزل الذي كتب يقول: «إن هِشلَر يفسر حركتي على أنها مستمدة من التوراة، مع أنني وقبل كل شيء لا أؤمن إلا بما هو منطقي ومطابق للعقل». وايزمن الخارج من الجيش الروسي يدّعي أيضاً وبإلحاح أنه ينتمي إلى النظريات الأشد إلحاداً، المبنية على الأصول الأكثر علماً ومنطقاً، ومع ذلك، وبالرغم من كل ما صرّحا به من علمانية

وإلحاد وتجرد، فإن أعماقهما بقيت تنضح بالشعور اليهودي وقلبيهما يختلجان طرباً عند ذكر الملاحم التوراتية.

مهما كانت المواقف ومهما اختلفت الأقوال، فإن ثمة دوافع عديدة ووقائع كثيرة تحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود، على الرغم من وصولهم إلى مرحلة ـ اللادين ـ وتوغلهم في نظريات المادية الملحدة، فإنهم عند أول احتكاك صدامي، يكشفون بوضوح عن ذلك العمق اليهودي الذي ترسّخ في تفكيرهم وترسّب في أعماقهم ونما وترعرع في سلوكهم الاجتماعي. إنهم ملحدون حتى النخاع إذا تناول الحديث المسيح أو المسيحية أو الفاتيكان، وعلمانيون حتى أدق ذرة في عقولهم إذا تطرقت المناقشة إلى الإسلام أو مكّة أو النبي. أما إذا تعرّض البحث إلى إسرائيل أو إلى تاريخها أو إلى شعبها، فإن الأمر يختلف والمقاييس تنقلب رأساً على عقب. فهم في هذا الموضوع نشطون، عدوانيون، متحفزون، أقوياء الشكيمة مكابرون، مؤمنون، لا يختلف موقفهم عن موقف أي يهودي ألحّ على صلب المسيح أمام مماطلة بيلاطس، ولا عن موقف أي حاخام نكّل بالفلسطينيين واغتصب أرضهم ودك بيوتهم وبقر بطون نسائهم وأحرق زرعهم باسم يهوه.

هناك من يقول إن الصهيونية هي المسؤولة الوحيدة عما حدث، ومن التسرّع تجريم باقي اليهود، الذين لا ناقة لهم ولا جمل في ما حصل. فما هي الصهيونية إذن؟

إن الصهيونية حركة سياسية أحياناً، ووطنية أحياناً أخرى، لا تتورع عن الظهور بمظهر الاشتراكية الإنسانية أو الشيوعية العادلة أو الرأسمالية الموزونة أو الإمبريالية الهادفة، حسب الظروف وكما تقتضي المصالح، ولكن قواعدها الأساسية تجد جذورها العميقة في تعاليم الدين وأسفار التوراة. هدفها الرئيسي هو الحفاظ على وحدة الشعب اليهودي ضمن نطاق الناموس الموسوي والعهد الأزلي، وهاجسها الحؤول دون انصهار الشعب اليهودي وذوبانه في بوتقة سائر الأمم. الصهيونية وُجدت منذ أحسّ أول يهودي بالتناقض الذي يعيش في واقعه داخل حلقة مأسوية من المعاناة ومن

التمزق. فمن ناحية، هو يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه من شعب الله المختار وعليه أن يحافظ على نقاوة عرقه وصفاء دمه ونبل محتدة وكرامة أصوله، ومن ناحية أخرى يرى الأمم الأخرى تفوقه حضارة ورفاهية وبذخاً. فتراوده نفسه بالانصهار وتزين له محاسن الذوبان، لكنَّ تعصبه يمنعه، ويهوديته تقاومه. وعندما تتصدّع العصبية أمام إغراءات الالتحام، تهب الفئة الراديكالية من رجال الدين أو من المنتفعين به وتفك عقال ألسنة الصهيونية الماكرة وتذكي روح التعصب والمكابرة واضعة موضع التنفيذ خططها الرادعة. هذا ما حدث عندما أحس اليهود بضآلتهم أمام عظمة الحضارة المصرية. والسيناريو نفسه طبّق في بابل حيث تمدن اليهود وتعلموا فن الكتابة والتدوين؛ ردة الفعل نفسها نشأت عندما احتكوا بالفينيقية أو عاشوا مع اليونان أو الرومان. . . الخ.

مع مرور الزمن وتباين الظروف أخذت الصهيونية تستفيد من تجاربها السابقة، مرة لتُغيّر من مظهرها وأخرى لتزيد من زخمها. ومع أنها احتفظت بقواعدها الأساسية التي ذكرناها آنفاً، فإنها قد استفادت من تطلعات انتظار المسيح الموعود وأسبغت عليها بعداً جديداً يقوم على الاحتفاظ بالشعب في حالة استنفار دائمة والإطباق على زمام أموره بصرامة وعنف.

وبعد أن تهدم الهيكل للمرة الثانية في عام ٧٠ للميلاد، وبعد أن تفرق شمل الشعب المختار في أنحاء العالم، صار من المهم جداً التركيز على اجتهادات النبوءات المتعلقة بقدوم المسيح المنتظر وما سيحمله معه من عدل وأمان لن يستتبا إلا متى عاد بنو إسرائيل إلى أرض أجدادهم، الأرض التي وعدهم بها يهوه والتي خصّهم بها دون سائر الشعوب.

بفضل هذا الاعتقاد تحمّل اليهود ما لاقوه من صعاب في بابل، ومن أجله عادوا إلى أورشليم وأعادوا بناء الهيكل. وبفضله أيضاً صبروا على ما قاسوه بعد تشتتهم الذي امتد منذ عام ١٣٧ بعد الميلاد حتى أيامنا هذه حين بلغ الحنين بفئة من اليهود دعت نفسها ـ أصدقاء صهيون إلى تجسيد الأحلام ـ إلى زرع المستعمرات في فلسطين تحت رعاية البارون الصهيوني

أدموند روتشيلد. وليس من قبيل الصدفة أن تتزامن في توقيت مدروس عودة طلائع التجمعات الصهيونية مع تصعيد الحملات ضد اليهود في أوروبا ومع تنشيط المشاعر اللاسامية. إن تحقيق أحلام العودة ما كان ليتمّ من دون إغراق الأرض الموعودة بفيض من العائدين. ولكن، من سيغامر بالعودة سوى العدد الضئيل من الصهاينة الأقحاح؟ فكان من المفروض إذن القيام بعملٍ ما يحمل أكبر عدد ممكن على الإسراع بالعودة. لذلك حدثت مجازر الحرب العالمية الأولى فمهدت السبيل لصدور وعد بلفور ولقوافل الهجرات الأولى إلى أرض فلسطين. ثم كانت الحرب العالمية الثانية والمجازر النازية، تلتها مسألة خلق دولة إسرائيل. وما كان لهذه المؤامرة أن تتم لولا أن الصهاينة عقدوا العزم للعمل على صعيدين: الأول خارجي قام على الابتزاز والرشوة في سبيل تأمين، ليس سكوت دول الغرب وحسب، بل إشراكها في تنفيذ الخطة التي رسمتها الصهيونية المتعددة الوجوه. والصعيد الثاني داخلي أي يتعلق باليهود وحدهم. وهو في مجمله ديني، تبشيري يعلن اقتراب موعد مجيء المسيح المنتظر. هنا تكمن قوة الصهيونية: هدف واحد وأساليب متعددة. شيئاً فشيئاً أخذت فكرة إنشاء مركز يهودي في القدس تتأكد وتنمو وتتحول من مجرد فكرة إلى مشروع. ومن زرع مركز صغير فقط إلى وضع أسس وطن قومي أولاً ودويلة ثانياً ودولة أخيراً. وربما إمبراطورية فيما بعد. . . وهكذا تم خلق دولة إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني عن طريق خداع دول الغرب وعلى أشلاء آلاف الضحايا من اليهود الذين تسببت الصهيونية العالمية بقتلهم في روسيا وفي أوروبا تحت شعارٍ غير معلن: «لا مجال للاختيار بين اليهودي وبين اليهودية. إن اليهودي وجد ليضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على الدين. يكفي ثلاثون يهودياً فقط كي لا يندثر الدين».

أخذت فكرة إنشاء دولة يهودية تتبلور بفضل شخصية تيودور هرتزل ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ القوية خاصة بعد مؤتمر بال في عام ١٨٩٧ الذي جمع ممثلين عن جميع الجاليات اليهودية المنتشرة في العالم والذين اتفقوا فيه على فكرة استعمار فلسطين تحت شعار: «العودة إلى الأرض الموعودة».

هل كان من الضروري إنشاء هذا الوطن اليهودي على الأرض الفلسطينية؟ ألم يكن من الممكن إنشاؤه في مكان آخر، في أوغندا مثلاً كما اقترحت إنكلترا؟

يبدو أن هرتزل نفسه وكذلك زميله زنغويل، كصهيونيين عريقين، تظاهرا بقبول المشروع البريطاني مع اقتناعهما الراسخ بأن الشعب لن يقبل بهذا الحل المبتور. وبالفعل، ما أن انتشر الخبر حتى انصبّت عليه الانتقادات والتعليقات الجارحة والحرب الضارية، مما حمل المسؤولين على تغيير رأيهم لا سيما وأن الوقت كان مناسباً للصهيونية كي تستفيد من أذرعها الأخطبوطية كافةً كي تحصر خلق الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

١ ـ سياسياً: كانت الدول العربية خارجةً للتوّ من عهود الانتداب والاستعمار تمنّي النفس بمستقبل زاهر. فانتهزت الصهيونية الفرصة لتصور القومية العربية كخطر كبير يهدد مصالح الغرب في كل أنحاء الشرق، مؤكدة على أن الإسلام، الخطر الحقيقي، لم يغب عن ساحة الأحداث إلا منذ مطلع هذا القرن. فمنذ الفتوحات في القرن السابع وحتى منتصف القرون الوسطى، والإسلام العربي يجثم في إسبانيا على أبواب أوروبا الوسطى. ومنذ القرن الرابع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، والإسلام العثماني ينتشر في البلقان وحول فيينا ويربض متربصاً على أبواب أوروبا الوسطى نفسها. وأصبح من الضروري سد طرقات النمو أمامه والحؤول دونه ودون الاستقرار والتطور.

٢ ـ اقتصادياً، بدأ البترول يتدفق في المنطقة، وأدى اكتشاف آبار جديدة إلى الجزم بوجود كميات هائلة. فسارعت الصهيونية إلى تقديم نفسها كقوة حامية لمصالح الغرب في هذه المنطقة الغنية أمام يقظة العرب واندفاع الإسلام.

٣ ـ استراتيجياً، لعبت الصهيونية دورين مختلفين: فمن ناحية صوّرت للاتحاد السوفياتي سابقاً إمكانية قيام دولة عبرية اشتراكية في فلسطين

بإدارة اليهود الروس وتكون كابحاً لجماح المد الإمبريالي من خلال العرب المحافظين. ومن ناحية أخرى أدخلت في روع الغرب أن قيام دولة ديمقراطية، غربية القوانين، أوروبية المجتمع في قلب شرق متخلف يكون الضمانة الأكيدة لاحتواء كل نهضة إسلامية وفشل كل حركة وطنية متطرفة.

هذا خارجياً. أما داخلياً، فإن خلق دولة إسرائيل فوق الأرض الموعودة آجج الشوق إلى التقيد بالمتثولوجيا التوراتية وحث الهمم على بذل الغالي والنفيس في سبيل تأكيد نبوءات أوشكت على التلاشي. وكان التأثير عميقاً في تلك النفوس التي كانت تراودها أحلام احتضنتها في وجدانها منذ زمن طويل، وتناقلت الأمل في تحقيقها أجيال عديدة. وفضلاً عن ذلك، فإن الحركة الصهيونية أدخلت في روع التجمعات اليهودية أن الإقامة في بلاد الغرب أصبحت غير مأمونة بعد تلك الموجات الدامية من اللاسامية التي اجتاحت أوروبا بقوة هائلة أضحى معها التفكير في وطن أصيل ضرورة لا تقبل المناقشة ولا المماطلة ولم يعش الحل البريطاني بإنشاء دولة عبرية في أوغندا أكثر من أيام، إذ قضى عليه وعد بلفور نهائياً عندما وافق على إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، تحت ضغط الصهيوني العريق وايزمن. ومهما تعددت المظاهر التي تختفي الصهيونية وراءها، فإن أصلها وهدفها وقوتها دينية خالصة. هذه الحقيقة لا تقبل الجدل، جذورها تمتد إلى أسفار العهد القديم، كتاب اليهود المقدس الذي فيه يستمد اليهودي كل طاقاته على التحمل وكل آماله على تحقيق كل ما يداعب خياله. إن حياة اليهودي اليومية هي مزيج مما يفرضه الحاضر من سلوك آني، ومما يتمسك به من إرث تقليدي ديني يعود إلى أربعين قرناً خلت. فالحداثة تتشابك وتتداخل وتتلاحم مع التقاليد لتجعل من اليهودي إنساناً يتقاسم ظاهرياً متطلبات الحياة العصرية مع غيره من البشر فيما يضمر في نفسه مجموعةً من المناقب توارثتها الأجيال عبر القرون وحرصت على أن تحافظ عليها سليمة وكاملة.

ومن ناحية أخرى فإن اليهود يدعون أن ما من شعب عانى عدم إنسانية

الإنسان كما عانى الشعب اليهودي الذي ذاق الأمرين أينما حل وحيثما رحل. إن هذه المقولة وإن كانت صحيحة ظاهرياً، فإن دراسة أسبابها العميقة تلقي الضوء على طبيعة اليهودي الحقيقية، وتكشف عن أحد أسبابها الأساسية. إن بعض الآداب اليهودية تعكس لنا بوضوح نوايا وأفكار هذا الشعب كما يظهره لنا المقطع التالي من كتاب إزيدور إبشتاين أحد أشهر كتابهم المعاصرين: «كما يمشي على الأرض، مشى العالم بكامله على الشعب اليهودي، لكن الله وضع في الأرض القدرة على إنتاج كافة أنواع النباتات والأثمار الكفيلة بتغذية مختلف أجناس مخلوقاته. فباطن الأرض يحوي شتى أنواع الكنوز، كالذهب والفضة والألماس وغيرها من المعادن الثمينة والنادرة. وكما في الأرض، كذلك في الشعب اليهودي الذي يتمتع بأفضل أنواع الرجال التي عرفها البشر. إن الرجل العادي في الأمة اليهودية يتمتع بباقة من الفضائل تميزه عن باقي الرجال في سائر الأمم. وكما يقول عقلاؤنا، يضيف إيزيدور: «إن غير الجديرين بينكم يتحلون بعدد من الفضائل تتساوى وعدد الحب الموجود في الرمانة».

أي أن اليهودي يؤمن إيماناً راسخاً بتفوقه العرقي والثقافي والديني والتاريخي على أجناس البشر كافة. وإذا كان قد نجح في إخفاء هذا الأمر، إلا أنه لم يتخلص منه كشعور كان يظهر واضحاً في بعض انفعالاته، مما تسبب بنقمة الآخرين عليه. وكان يحرص دائماً على التمسك بأمل العودة إلى أرض فلسطين وكأن إقامته خارج هذه الأرض إقامة موقتة مهما طال عليها الزمن. إلا أن واقعها الاستغلالي لفت نظر الشعوب المضيفة إلى خطرها المادي والاقتصادي والطبقي وحتى التحرري أحياناً فكان لها مع الطوائف اليهودية جولات تصفية حسابات، وردات فعل تحررية، لم تكن طبعاً لصالح الشعب المختار. ولم يكن اليهودي يترك فرصة سانحة تمر دون أن يؤكد على أمله بالعودة. ففي حفلات عقد القران مثلاً، وبينما المدعوون في نشوة استرسالهم في متعة مشاركتهم الفرح، وفيما هم في غمرة تذوقهم ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب، وفيما أهل العروسين غارقون في بهجة السعادة والسرور، ينتشل العريس مدعويه من هذا الجو السعيد، فيأخذ كأساً ويحطمه

ليذكر الجميع بتهديم الهيكل الذي تعهد الشعب اليهودي بإعادة تشييده بعد تحرير أورشليم. عندئذ يتحلق الحضور وسط الردهة وهم ينشدون:

كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟
إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني.
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك وإن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي،
تذكر يا رب لبني أدوم يوم أورشليم القائلين هدا هدا حتى إلى أساسها
يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا،
طوبى لمن يُمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة.

[المزامير ١٣٧/ ٤ ـ ٩]

مما لا شك فيه أن كتاب العهد القديم بما فيه من عهود ومواثيق ونبوءات ووصايا ومزامير وأناشيد قد لعب دوراً كبيراً في رسم شخصية الفرد اليهودي. إن فيه من الآداب والأقاصيص والأمثال والحكم ما جعل الشعب اليهودي يتعلق به تعلقاً شديداً ويتقيد بنصوصه أحياناً تقيداً يكاد أن يكون حرفياً. من الضروري إذاً الاطلاع على هذا الكتاب لمعرفة أبعاد السلوك اليهودي ودراسة اتجاهات تصرفاته.

لن نتوقف في دراستنا العهد القديم إلا عند الأمور المهمة التي تلقي ضوءاً على ما يجري اليوم على الساحة العربية والتي تكشف عن نوايا الشعب العبري وأهدافه.

عدنان حداد

القسم الأول

الفصل
الأول

العهد القديم
كتاب اليهود المقدس

مرحلة البداوة

١ ـ إبراهيم

منذ فجر التاريخ وجميع الشعوب المهتمة بالتبادل التجاري ترتاد بحرّية تامة الشواطيء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. فكانت التجارة بين الدلتا المصرية وسوريا نشطة ومزدهرة. ووسّع التجار نطاق نشاطهم في آسيا الصغرى حتى تخوم شبه الجزيرة العربية أملاً بجني الربح الوفير. وكان من الصعب التخيل في ذلك الوقت أن تخرج من أعماق الصحراء العربية قبيلة منعزلة ومنكمشة على نفسها، لتقود قطعانها باتجاه الشمال غير عابئة بما يجري حولها.

رجال ونساء وأطفال وشيوخ يتقدمون ببطء على خطى قطعانهم. وقد ساروا بادىء الأمر في طريق موازية لنهر الفرات، ومن ثمّ صعدوا شمالاً. من أور الكلدانية خرج رجل مهيب في مقتبل العمر يقود القافلة مصطحباً معه

عائلته ووالده وشقيقه وابن عمه، قاصداً أرض كنعان التي لم يرها قط. طلب الرب من هذا الرجل أن يهجر بلاده ويقصد أرضاً بعيدة وغنية سوف يدلّه عليها ويخصبها لقاء رسالة إنسانية سوف يعهد بها إليه لينشرها بين الناس وقد حدث ذلك منذ أربعة آلاف سنة تقريباً وكان اسم الرجل أبرام.

كانت القافلة تتقدم ببطء وطمأنينة على خطى القطيع الذي يرعى الأعشاب التي يصادفها في طريقه. فقد اجتازت مئات الكيلومترات دون أن يعترضها معترض أو يوقف مسيرتها حادث. وعندما أشرفت على مدينة «حاران» في شمال وادي الفرات توقفت للراحة، إذ كان المكان مناسباً والأرض خصبة. وكان من حقها التوقف للرّاحة بعد تلك المسيرة الطويلة من الرحيل المتواصل وبعد أن نال التعب والإرهاق من جميع أفرادها. فنصبت الخيام وأقامت في هذا المكان لتسترد أنفاسها وتستجم.

نترك القافلة تستريح وتدبر شؤونها في أرض «حاران» الخصبة، لنلقي نظرة على الحالة السياسية والحضارية التي كانت تعيش فيها تلك المناطق في عام ١٨٧٥ تقريباً قبل الميلاد.

ظلت منطقة أور، الواقعة في جنوب وادي الفرات، حوالي ماية عام تحت السيطرة السومرية قبل أن يجتاحها العموريون الذين أسسوا بابل واشتهر منهم حمورابي (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق.م) صاحب الشريعة المشهور ومؤسس الامبراطورية البابلية التي تمتعت بحياة اجتماعية راقية وبنشاط ثقافي مزدهر.

كان هناك على هضبة الأناضول في الشمال الغربي من «شاران» امبراطورية في مرحلة التكوين لعبت دوراً مهماً فيما بعد تحت إسم الامبراطورية الحثيّة.

وازدهر في الجنوب الشرقي من «شاران» حكم الفراعنة في عصره الوسيط. وكانت أهرامات دلتا النيل منتصبة في مكانها منذ نحو ألف عام. وكان الفراعنة في أوج سلطانهم وقوتهم العسكرية التي تشجعهم على بسط نفوذهم على الأصقاع النائية من بلاد كنعان وسوريا وشمالي الفرات.

وكانت أرض كنعان تمتد على شواطىء المتوسط من «شاران» إلى مصر، تلك البلاد الغنية والمزدهرة ذات المناخ المعتدل. اجتاحت تلك الشواطىء موجات عديدة من الغزاة ونشرت في ربوعها حضارات متباينة تميزت بالعنف والبذخ. فالإله «بعل» لا يبارك الرعية إلا مقابل قرابين، هي في أكثر الأحيان من البشر. وكان الاعتقاد السائد يفرض أن تكون غلة الحصاد الأولى، وكذلك الابن البكر، من حصة الإله الذي يؤمّن مقابل ذلك الرضى والبركة. وكانت زوجته «عشتروت» آلهة الخصب ترعى كل أعياد الحصاد، وتنفح فيها كل ما يرافقها من فساد وفسق وفجور، ويعطي تمثالها الذي يظهرها عارية فكرة عن الدور الجنسي والإباحية المطلقة التي كانت تثيرها في نفوس البشر.

لنعد الآن إلى القافلة. فبعد أن استراحت قليلاً تحركت من جديد تجاه بلاد كنعان، ولكن بدون «تارح» والد أبرام الذي توفي هناك. وكانت أمامها مسافة شاسعة ورحلة طويلة قبل أن تصل إلى نهاية سفرها. سارت بمحاذاة نهر الفرات في اتجاه الأراضي المصرية، ومرت بما يعرف الآن بحلب ودمشق قبل أن تشرف على أرض كنعان التي دخلتها عن طريق بحيرة طبريا ووادي الأردن وتتوقف عند «شكيم»[1]. وبعد أن ارتاحت هذه القافلة واستعادت نشاطها توجهت نحو «بيت أيل»، لكنَّ المجاعة المنتشرة في تلك المنطقة حملتها على التوجه جنوباً نحو مصر حيث أقامت لفترة ثم غادرتها عائدة إلى «بيت أيل».

كان أبرام في السادسة والثمانين من عمره ولما يرزق بغلام بعد. وكان ما يزال ينتظر تحقيق الوعد الإلهي بأن تحمل سارة وتضع له غلاماً. أما سارة فقد اعتقدت أنها تعمل بصدق وأمانة في سبيل تحقيق هذا الوعد عندما طلبت من زوجها مضاجعة خادمتها المصرية هاجر التي ربما تحمل منه بالغلام الموعود. وهذا ما حصل فعلاً، إذ حملت هاجر ووضعت له الإبن البكر

---

(١) المعروفة حالياً بإسم بالاطة الواقعة على بعد ٤٥ كلم شمالي القدس.

إسماعيل. ولكن هل هذا هو فعلاً الإبن الموعود؟ كلا!!. فكلام الله واضح لا لبس فيه إذ يؤكد أن سارة وليس امرأة أخرى، سوف تضع الوريث الشرعي لأبرام. وهذا ما حدث بعد أربعة عشر عاماً من مولد إسماعيل، عندما حملت سارة ووضعت «إسحق» الابن الشرعي والوريث الموعود، وإسحق هذا هو الفتى الذي اصطحبه إبراهيم إلى الجبل حسب العهد القديم ليقدمه ضحية للإله كما طُلب إليه في الحلم، لا إسماعيل كما يعتقد المسلمون.

فقد صعد ابراهيم على جبل «المورية» ليقدم ابنه اسحق ضحية لله كما طلب إليه لكن الملاك أتاه حاملاً الفدية التي بها نجا اسحق. وبعد ذلك أقام إبراهيم في مدينة الخليل حيث توفيت زوجته سارة فدفنها في مغارة «المكفيلة» وشُيد هناك مقام يزوره اليوم اليهود والمسيحيون والمسلمون بعد أن أدخل عليه كل منهم بعض التعديلات عبر الأزمنة الغابرة.

بعد موت سارة تزوج أبرام من قطورة التي ولدت له: زمران، يقشان، مدان، مديان، يشباق وشوحا. وقد عاش أبرام مئة وخمسة وسبعين عاماً ودُفن عند موته مع زوجته سارة في مغارة المكفيلة.

منذ مطلع هذه الحقبة الإبراهيمية دأب اليهود عبر تدوين مراحل العهد القديم يركزون على خصوصيتهم المنبثقة من أفضليتهم على باقي الشعوب ويحرصون على ترديد حقهم بالاستيطان في أرض كنعان حسب الوعد الإلهي المبرم بين إبراهيم والرب. وقبل الخوض في غمار هذين الفصلين الأساسيين يجدر بنا التوقف قليلاً أمام شخصية إبراهيم نفسه، والتعرف عليها من خلال العهد القديم لاستكشاف جذور بعض الصفات التي رافقت اليهود في معظم مراحل تاريخهم والتصقت بسلوك كل فرد منهم أينما وجد. من أهم هذه الصفات:

١ ـ الشك والتقلب

على الرغم من كل ما خص به الله إبراهيم من نعم ورعاية، فقد بقي على شكه بصحة ما كان الله يعده به. قال الرب لإبراهيم بعد أن بارك سارة:

«أعطيك أيضاً منها إبناً»

فلم يصدّق إبراهيم هذا الكلام:

«فسقط على وجهه وضحك. وقال في قلبه: هل يلد ابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة».

[تكوين ١٧/١٦ ـ ١٧]

الشك نفسه خالج سارة عندما قال الرب:

«ويكون لسارة إمرأتك إبن»

فسمعته سارة وكانت واقفة في باب الخيمة:

«فضحكت سارة في باطنها قائلة أَبَعْدَ فنائي يكون لي تنعّم وسيدي قد شاخ»

[تكوين ١٨/٩ ـ ١٢]

وقد لازم هذا الشك الممزوج بالتهكم اليهود في معظم مراحل تعاطيهم مع الرب من خلال الأنبياء. ولعب هذا الشك نفسه دوراً أساسياً في تطور تاريخهم وتوالي أحداثه ما بين شك يتحول إلى كفر يستدعي غضب الرب وعقابه وبين إيمان يعيدهم إلى حظيرة هذا الرب ورضوانه. ومن خلال هذه الدائرة المتجددة دوماً تمحورت كل حياة اليهود وارتسمت معظم مراحل تاريخهم القديم والحديث، وهذا ما سوف يتبين لنا في الفصول القادمة.

٢ ـ الاحتيال والرشوة

عندما يُقيم اليهود عند الشعوب الأخرى يُخفون الكثير من حقيقتهم ويُمعنون غشاً وفساداً. فإبراهيم يكذب في مناسبتين: في الأولى عندما يدعي أن سارة هي أخته وليست زوجته. يتبين ذلك في المقطع التالي من قوله لسارة:

«إني قد علمت أنك امرأةٌ حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك».

[تكوين ١٢/ ١٣]

«فحدث لما دخل أبرام (إبراهيم) إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت لي هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هي إذاً امرأتك. خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجلاً فشيعوه وأمرأته وكل ما كان له»

[تكوين ١٢/ ١٢ ـ ٢٠]

أما المناسبة الثانية فكانت مع أبيمالك على الوجه التالي:

«انتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرّب في جرار. وقال إبراهيم عن سارة إمرأته هي أختي. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل. ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال يا سيد أأمة بارة تقتل. ألم يقل هولي أنها أختي وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي وبسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا. فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطيء إلي لذلك لم أدعك تمسها، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك».

وهذا ما فعله أبيمالك عندما استدعى إبراهيم وقال له معاتباً:

«ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت معك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة».

فأجاب إبراهيم:

«إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة، فيقتلوني لأجل امرأتي».

وفي هذه المرة أيضاً أنعم أبيمالك على إبراهيم:

«فأخذ غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم».

[تكوين ٢٠/٢ ـ ١٤]

وما من أحد يجهل الدور «المهزوز» الذي تلعبه المرأة اليهودية سواء في تذليل بعض الصعاب أو في الحصول على شيء ما.

ثم إنّ ردة الفعل عند فرعون وأبيمالك عندما اكتشفا أن سارة كانت متزوجة، تدل على المستوى الأخلاقي عند كلا الرجلين في استنكافهما عن مضاجعة امرأة متزوجة ولومهما إبراهيم الذي استدرجهما لاقتراف الخطيئة. ومع أن سارة كانت بالفعل أخت إبراهيم حسبما يذكر العهد القديم:

«وبالحقيقة أيضاً هي أختي إبنة أبي غير أنها ليست إبنة أمي فصارت لي زوجة».

[تكوين ٢٠/١٢ ـ ١٣]

فلم يكن ادعاء إبراهيم للكشف عن الحقيقة بل للتمويه.

أما الفكرة الواضحة والرئيسية التي يخرج بها قارىء هذا المقطع من العهد القديم فهي ذات شقين:

١ ـ الأول يتعلق بالعهود التي قطعها الرب على نفسه بإعطاء أرض كنعان لإبراهيم ونسله.

٢ ـ والثاني يحدد هذا النسل الذي يحق له التمتع بالإرث حسب الوعد الإلهي.

أ ـ أرض كنعان.

رأينا سابقاً كيف قاد إبراهيم القافلة باتجاه الشمال. وكان هذا الرحيل بناء على طلب من الرب عندما قال لإبراهيم:

«إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم إسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك العنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض».

[تكوين ١/١٢ ـ ٣]

لم يكن إبراهيم قد رأى هذه الأرض بعد، ولكن بناء على وعد من الرب سار بغية الوصول إليها. وعندما أصبح على مشارفها، كرر الرب وعده وقال لإبراهيم:

«لنسلك أعطي هذه الأرض».

[تكوين ١٢/ ٧]

ما زال الوعد غامضاً، وكذلك تعبير: «هذه الأرض»، الذي لا يتقيد بحدود ولا يرسم مساحة واضحة. ولكن الأمور تنجلي نوعاً ما عندما يعود إبراهيم من مصر ويقرر الانفصال عن أخيه لوط. وحينما كان في بيت إيل ظهر له الرب وقال له:

«إرفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد».

[تكوين ١٣/ ١٤]

ثم يصبح الوعد أكثر وضوحاً والأرض معروفة المعالم والحدود، فبعد الوعد الذي قطعه في شكيم، أكد الله وعده في الخليل وكان واضحاً إذ:

«في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

[تكوين ١٥/ ١٨]

بعض المتضلعين في التفسير أفادوا أن (نهر مصر) في هذا السياق لا يرمز إلى نهر النيل، بل إلى نهر صغير يدعى «وادي غزة» وهو يمر في جنوب بيرسبع ويصب في البحر المتوسط جنوبي غزة.

والجدير بالذكر أن معظم اليهود يتقيدون بهذا النص ويؤمنون بحرفيته. ففي ربيع سنة ١٩٧٠ استقال عدد من أعضاء مجلس الوزراء الإسرائيلي وحجتهم في ذلك أن على إسرائيل أن تتقيد حرفياً بما جاء في العهد القديم وأن ترفض المساومة بشأن الانسحاب من أجزاء من «أرض إسرائيل المحررة» في أعقاب حرب الأيام الستة. إذ لا يعقل الانسحاب من هذه الأرض بعد أن تكرم الرب وأعادها إلى شعبه المختار. هذه هي في رأيهم

الأرض الموعودة، ومن الخيانة والكفر التخلي عن شبر واحد منها. فاليهود، حمائم كانوا أم صقوراً يستوحون خطوط سياستهم الأساسية من كتابهم المقدس ويتقيدون بروحه ونصه الحرفي، والويل لمن يفكر بالخروج عن هذا النص قيد أنملة. وفي هذا المجال ـ مجال أرض بني إسرائيل ـ النص واضح لا يقبل الاجتهادات في التفسير أو التأويل. فالضفة الغربية وغزه كما يعتقد اليهود جزء من أرض إسرائيل، ولن يتجرأ أي يهودي على التفريط بها مهما كانت أهمية المحادثات ومهما بلغت قوة الضغوط. وسيكون من الصعب إنشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع في أعقاب محادثات سلمية مع إسرائيل. فهذا لن يحدث أبداً في رأي الإسرائيليين. وجل ما ستقبله إسرائيل بمنح أهالي الضفة والقطاع حكماً ذاتياً أي أنها لن تقبل بإقامة أغراب على أرض بني إسرائيل. فالأرض لهم وحدهم لا يشاركهم فيها أحد، وكتابهم المقدس واضح جداً في هذا الخصوص عندما يقول:

«وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبوياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم».

[تكوين ١٧/ ٦ ـ ٨]

إذن الأرض، الأرض الموعودة، أرض بني إسرائيل واضحة المعالم معروفة الحدود لا مجال لإيجاد ذريعة تبرر التقسيم أو تسمح بإقامة دولتين على أرض فلسطين، اللهم إلا إذا اعتبرنا اليهود والعرب هم من نسل إبراهيم، فيحق للشعبين الحفيدين اقتسام الميراث وإنشاء دولتين منفصلتين ومستقلتين. لا مناص إذن من مراجعة العهد القديم للكشف عما يقوله في أمر تحديد النسل، نسل إبراهيم، الذي يحق له الإقامة على الأرض الموعودة.

ب ـ نسل إبراهيم

إن إسم إبراهيم الحقيقي، حسب العهد القديم، هو أبرام، والده تارح الذي:

«عاش سبعين سنة وأولد أبرام وناحور وهاران».

[تكوين ١١/٢٦]

ولكن شاء الرب أن يغير له اسمه ويطلق عليه إسم إبراهيم، فقال له:

«أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى إسمك بعد أبرام بل يكون إسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم».

[تكوين ١٧/ ٤ ـ ٥]

أما معنى الإسم الجديد فهو: «والد جمهور من الأمم»، أي الرجل الذي ترك نسلاً عديداً وأحفاداً كثيرين. من المهم إذاً معرفة القوانين التي بموجبها توزع الثروة، أي فرز الورثة الحقيقيين وتحديد نصيبهم من هذه الثروة. ولكن هل هناك ورثة فعلاً؟ فبالرغم من الوعد الإلهي لإبراهيم بأن يجعل منه أمة عظيمة، فإن السنوات أخذت تمر دون أن يرزق إبراهيم بمولود يؤمن بقاء النسل وتكاثره. وعندما بدأ اليأس يدب في نفسه وعاتب الرب قائلاً:

«ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقي».

[تكوين ١٥/١]

لكن الله أجابه مؤكداً وعده:

«لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك يرثك».

[تكوين ١٥/٤]

مرت السنوات ولم يتحقق الوعد الإلهي، فتدخلت سارة هذه المرة وقالت لزوجها:

«هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنينا...»

[تكوين ١٦/ ٢ ـ ٣]

وهكذا حملت هاجر واستبشر الجميع بقدوم الوريث. أما سارة فقد تصرفت كما تنص القوانين السومرية في ذلك الوقت والتي تقضي بحفظ

حقوق الزوجة الشرعية في حال عمدت الجارية إلى التسلط على مركزها والسعي للتربع في مكانها. لذلك فإن إبراهيم لم يتدخل في شؤون زوجته سارة تاركاً لها حرية التصرف في الأمور المتعلقة بالجارية هاجر. وبعد أن تفاقمت الغيرة في نفس سارة أخذت تُسيء معاملة جاريتها التي لم تجد أمامها مناصاً من الهروب واللجوء إلى الصحراء. لكن الله أشفق على هاجر وأرسل لها ملاكاً يشد من أزرها ويحثها على العودة إلى بيت إبراهيم:

«وقال لها ملاك الرب هنا أنت حبلى فتلدين إبناً وتدعين إسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.»

[تكوين ١٦/ ١٠]

عادت هاجر إلى بيت إبراهيم ووضعت مولودها الذي دعته إسماعيل. وهذا الإسم مؤلف من: اسمع وإيل. ومعناه «سمع الله» أي سمع شكوى هاجر. وسنرى فيما بعد كيف «سمع الله» أيضاً بكاء اسماعيل.

كان إبراهيم في السادسة والثمانين من عمره عندما ابتهج قلبه برؤية طفله البكر إسماعيل الذي خرج من أحشائه ليكون وريثه كما ورد في الوعد الإلهي. ويبدو أن إبراهيم قد نسي أو تناسى الوعد المتعلق بزوجته سارة وبالمولود الذي سترزقه به. فقد مرت الأيام حاملة معها السعادة بعد أن تعلقت القبيلة بكاملها بهذا الطفل الذي يجسد وعد الله ويحمل معه، في الوقت نفسه، آمال المستقبل وتباشيره السعيدة بأن يكون الوريث الوحيد وقائد القبيلة القادم. وقد أدرك الطفل خلال مراحل نموه السريع أهمية الدور الذي ينتظره وما يفرضه عليه من الواجبات ويوفره من الامتيازات.

ولكن ما أن أشرف الشاب الصغير على عامه الرابع عشر حتى حملت سارة ورزقت بإسحق، وريث إبراهيم الشرعي. وكم كانت الصدمة شديدة على نفس إسماعيل الفتى اليانع عندما رأى كل أحلامه تنهار بين ليلة وضحاها وتتبخر معها كل آماله. فهو الإبن البكر، ومن حقه أن يكون الوريث الأول لوالده، لكن أخاه الصغير إسحق استولى على كل شيء. ففي عيد الاحتفال بفطام إسحاق ورد في [تكوين ٢١/٨ ـ ١٣] أن إسماعيل هزَأ من أخيه، فغضبت سارة وطلبت من زوجها طرد هاجر وابنها. تردد إبراهيم

في تنفيذ رغبة زوجته الأميرة (سارة بالعبرية يعني: الأميرة) لأنه كان يحب هذا الفتى الذي اعتبره وريثه الوحيد لمدة طويلة فاحتار في أمره، وطلب من الله أن ينقذه من حيرته فقال له الله:

«لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقوله لك سارة إسمع لقولها. لأنه بإسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك.»

[تكوين ٢١/ ١٣]

أما في ما يتعلق بإسماعيل، فإن اليهود يعتقدون أن النبوءة قد تحققت بعد ذلك عندما توحد أحفاد إسماعيل في الدعوة الإسلامية. ويتلذذون بالتذكير أن الملاك كان قد حدد طباع إسماعيل في نبوءةٍ سابقة قال فيها:

«إنه (أي إسماعيل) يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن.»

[تكوين ١٦/ ١٢]

وهذا «الإنسان الوحشي» المتجسد في إسماعيل وفي نسله موجود، كما يدّعي اليهود، في نفس كل عربي سواء كان زعيماً معتدلاً أم رئيساً راديكالياً، فلسطينياً فدائياً أم عربياً مستكيناً، أما سائر الطباع المنوّه عنها في هذه الصورة من العهد القديم، فإنها تحصيل حاصل يسعى اليهود على الدوام إلى بقائه بين مختلف محاور الأنظمة العربية، من خلال بذر الشقاق وزرع الشر وترويج الفتن. إن النسخ الفرنسية من العهد القديم لا سيما الصادرة عن (TOB)، تذكر آية قلما نجدها في النسخ العربية وهي تقول:

«أبناء إسماعيل (الإثنا عشر) سكنوا من مَويلة إلى شور إلى أمام مصر حينما تجيء أشور، كلٌ قبالة أشقائه وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض عليهم.»

[تكوين ٢٥/ ١٨]

وما حلّ بإسماعيل من خيبة مريرة عندما وجد نفسه يفقد فجأة كل شيء لصالح أخيه إسحق، حلّ بالعرب أيضاً في فلسطين حين فقدوا كل

شيء أمام رغبة أحفاد إسحق بتحقيق الوعد الإلهي بالاستيلاء على الأرض الموعودة بكاملها.

فمن ناحيته، استجاب إبراهيم لرغبة زوجته الشرعية سارة وطرد الجارية وابنها:

«فبكّر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي إحملي الغلام وشدي يدك به. لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرّية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.»

[تكوين ٢١/١٤ ـ ٢١]

وهكذا ينتهي دور إسماعيل على مسرح أحداث العهد القديم. فكما سمع الله شكوى هاجر من قبل سمع أيضاً هذه المرة «صوت الغلام» فأرسل الملاك لنجدة الذي إسمه «سمع الله» كما قلنا. لكن الله لم يباركه ولم يخصه بأي وعد.

ومن ناحية ثانية فإن كتاب اليهود المقدس واضح تمام الوضوح في ما يتعلق بنسل إبراهيم وبوريث إبراهيم. فإذا كان نسل إبراهيم يشمل إسماعيل وإسحق وأولاده من قطورة التي تزوجها بعد وفاة سارة، إلا أن الوراثة محصورة بشخص واحد هو إسحق.

ومع أن إبراهيم، كوالد، لا يفرق بين ابن وآخر، ومع أنه يضمر لابنه البكر شيئاً من المودة والمعزّة لأنه كان في وقت من الأوقات أمله الوحيد، فقد سعى للدفاع عنه، لكن لم يفلح. وقد كان هذا الشعور بالمحبة تجاه

إسماعيل أقوى وأشد قبل أن تضع سارة ابنها إسحق، فها هو يقول للرب:

«ليت إسماعيل يعيش أمامك».

[تكوين ١٧/ ٨

أي أن إبراهيم يتمنى لو أن ابنه إسماعيل يرث النبوة عن والده أيد
ويبقى «يعيش أمام الرب» أي على اتصال به.

إلا أن الجواب الإلهي أتى واضحاً ومبرماً:

«بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق. وأقيم عهـ
معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك ف
ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجـ
أمة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده سارة في ·
الوقت من السنة الآتية.»

[تكوين ١٧/ ١٩ ـ ١

وهكذا أصبح إسحق الوريث الشرعي الوحيد لا للوعد الإلهي المتع
بالأرض فحسب بل للنبوة أيضاً. وهذا ما يفسر تتابع الأنبياء من سلالة إسـ
ابتداء بيعقوب وحتى المكابيين، فيما لم يظهر نبي واحد من سلالة إسماء
قبل النبي محمد الذي لم يعترف به اليهود لأن الله لم يضع النبوة في نـ
إسماعيل. وهذا ما سنشرحه في الفصول القادمة.

ومنذ ذلك الحين نشأت في نفس اليهود مشاعر استعلاء وكبر
مستمدة من إيمانهم بأنهم من نسل إبراهيم الشرعي، وبأنهم ورثته الأصلي
والوحيدون. وجواباً على هذا التفاخر قال لهم يسوع:

«لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.»

[يوحنا ٨/ ٩

أما يوحنا المعمدان فقد قال لهم أيضاً:

«ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أ
لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم.»

[متّى ٣/

أما القديس بولس فإنه يقول:

«ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. بل بإسحق يدعى لك نسل. أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً.»

[رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٩/٧]

وكان القديس بولس قد حدد ذلك في آية سابقة.

«فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم، بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد.»

[رسالة بولس إلى أهل رومية ٤/١٣].

وهكذا، فإن هذا الادعاء بالتفرد بوراثة إبراهيم كحفيد شرعي أحدث منذ البداية شرخاً عميقاً، لا بين إسحاق وإسماعيل فحسب، بل أيضاً بين أحفادهما. ومع أن الدين المسيحي احتّج كثيراً على هذه الشرعية، ومع أن الإسلام قد نفاها، فإن اليهود يتمسكون بها متحدّين بذلك الإسلام والمسيحية. فقد دأبوا منذ البداية على الإمعان في تحقير باقي الشعوب والمبالغة في رفع شأن عرقهم وصفاء دم شعبهم. فإذا كان العرب هم أبناء الجارية، فإن العمونيين والمُؤابيين، وهم من الشعوب التي لعبت دوراً في العهد القديم هم أولاد زنا. والرواية التي يأتي على ذكرها العهد القديم، لا تخلو من الأهمية. فبعد أن أمطرت السماء ناراً وكبريتاً على سدوم وعمورة وأفنت سكانها، نجا لوط وابنتاه وسكنوا في المغارة:

«وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمّ نَسْقِ أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا

لوط من أبيهما. فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم.

[تكوين ١٩/ ٣٠ ـ ٣٧]

والذي نستخلصه من هذه الفترة الإبراهيمية أن الإله الذي كان يؤمن به إبراهيم كانت له خصائص تميزه عن باقي الآلهة المعروفة في ذلك الزمن:

١ ـ لقد كان الله يتجلى لإبراهيم خلافاً لبقية الآلهة في ذلك الحين التي كانت تفرض الذبائح والقرابين.

٢ ـ كان الإلّه إلهاً واحداً، فيما كان في بابل وحدها ما يربو على خمسة آلاف إله. وهذه الفكرة التوحيدية ساهمت في عزل إبراهيم عن باقي الشعوب.

٣ ـ وكان هذا الإله خالقاً، فهو الذي خلق الإنسان، بينما كانت الشعوب تنحت آلهتها على شكل ما تضمره من وحشية وبدائية.

هذا من الناحية العامة. أما اليهود فقد تمسكوا بأمرين:

١ ـ الاستعداد للاستيلاء على أرض كنعان حسب الوعد الإلهي. وضمن الحدود المنصوص عليها.

٢ ـ حصر هذا الإرث بنسل إسحق فقط دون سائر أبناء إبراهيم. ولن يتحقق ذلك إذا ما صاهر أبناء إبراهيم الشعوب الغريبة، فمن المفروض حصر هذا الإرث في عرق واحد يحافظ على نقاوة دمه بالزواج من ضمن هذه السلالة، لذلك قال إبراهيم لكبير عبيده:

«استحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لإبني إسحق».

[تكوين ٢٤/ ٢ ـ ٤]

وهكذا يشدد اليهود في كتابهم المقدس على إسحق وحده دون باقي أبناء إبراهيم. ونقرأ في أكثر من مكان إن إسحق ورث كل أملاك والده؛ والعبد الذي ذهب إلى ناحور أخي إبراهيم يطلب زوجة لإسحاق قال:

«وولدت سارة امرأة سيدي ابناً لسيدي بعدما شاخت فقد أعطاه كل ماله».

[تكوين ٢٤/٢٦]

ويقول في مكان آخر:

«وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له. أما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق إبنه شرقاً إلى أرض المشرق وهو بعد حي».

[تكوين ٢٥/ ٥ ـ ٦]

٢ ـ إسحق

تزوج إسحق وهو في الأربعين من عمره من ابنة عمه رفقة بنت ناحور التي كانت عاقراً في البداية إذ مضت عشرون سنة وإسحق يصلي ويدعو الله أن يرزقه ولداً وفي هذا يقول العهد القديم:

«وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته»

[تكوين ٢٥/ ٢١، ٢٢]

* غش الشعب المضيف

مرة أخرى يتصرف إسحق كما تصرف والده إبراهيم ويدعي أن رفقه هي شقيقته لا زوجته خوفاً على نفسه. فعندما أقام إسحق في جرار:

«سأله أهل المكان عن امرأته. فقال هي أختي. لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقه لأنها كانت حسنة المنظر».

[تكوين ٢٦/ ٧ ـ ٧]

وحدث أن اكتشف أبيمالك أمره عندما فاجأه يداعبها:

«فدعا أبيمالك إسحق وقال إنما هي امرأتك فكيف قلت هي أختي، فقال له إسحق لأني قلتُ لعلّي أموت بسببها. فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا. لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً».

[تكوين ٢٦/٩ ـ ١٠].

وفضلاً عن هذه الصفة التي التصقت باليهود بإمعانهم في غش الآخرين بمختلف الأساليب، فقد ظهرت في عهد إسحق صفة أخرى رافقت أيضاً اليهود في مراحل إقامتهم كافةً عند الشعوب الأخرى، وهي الازدهار في سنوات الغربة باستغلال الضيافة، والادعاء أن الحسد يحمل الشعب المضيف على اضطهاد اليهود. فعندما أقام إسحق في أرض أبيمالك وزرع الأرض:

«ان أصاب في تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب. فتعاظم الرجل وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيماً جداً. فكان له مواش من الغنم ومواش من البقر وعبيد كثيرون. فحسده الفلسطينيون. وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام إبراهيم أبيه طمسها الفلسطينيون وملأوها تراباً. وقال أبيمالك لإسحق اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً. فمضى إسحق من هناك ونزل في وادي جرار وأقام هناك.

[تكوين ٢٦/١٢ ـ ١٧]

* الخداع والمكر

فبعد أن حملت رفقه كان في بطنها توأمان.

«وقال لها الرب في بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب، وكبير يسْتَعْبَد لصغير».

[تكوين ٢٥/٢٣]

وعندما وضعت، خرج الأول أحمر وجسده مكسو بالشعر فدعوه عيسو. وبعد ذلك خرج الثاني ويده قابضة بعقب أخيه فدعي يعقوب. وعندما كبر الغلامان اشتهر البكر بالصيد فيما عرف الثاني بالكمال. وحدث

أن أحب إسحق ابنه عيسو بينما فضلت رفقه ابنها يعقوب. ولما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر استدعى ابنه البكر عيسو وطلب إليه أن يخرج إلى البريّة ويصطاد ثم يحضر الطعام لوالده الذي وعده بأن يباركه ويجعله وريثاً له.

سمعت رفقة ما دار من حديث بين زوجها وابنها البكر. فما أن رأت عيسو يتوارى عن الأنظار في غياهب البرية طلباً للصيد حتى أخبرت ابنها يعقوب بما حدث، وعن عزم والده مباركة عيسو أمام الرب، فقالت له:

«إذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزى. فأصنعهما أطعمة لأبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له أمه لعنتك علي يا بني. إسمع لقولي فقط واذهب خذ لي. فذهب وأخذ وأحضر لأمه فصنعت أطعمة كما كان أبوه يحب. وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر. وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدي المعزى. وأعطت الأطعمة والخبز التي وُضعت في يد يعقوب ابنها.»

[تكوين ٢٧/٩ ـ ١٦]

دخل يعقوب على أبيه الذي شحّ نظره وادعى أنه البكر عيسو وأنه قد عاد لتوه من الصيد، ودعا والده للجلوس كي يتناول من الطعام الذي حضّره له. ودار بينهما النقاش التالي:

«فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني. فقال إذ الرب إلهك قد يسّر لي. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسّك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا. فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسّه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه. فباركه. وقال هل أنت هو ابن عيسو. فقال أنا هو. فقال قدم لي لآكل من صيد إبني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل. وأحضر له خمراً فشرب. فقال له إسحق أبوه تقدّم وقبلني يا ابني. فتقدم وقبله فشمّ رائحة ثيابه

وباركه، وقال انظر: رائحة إبني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمّك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين.»

[تكوين ٢٧/ ٢١ ـ ٢٩]

وهكذا بارك إسحق ابنه يعقوب معتقداً أنه عيسو وانطلت عليه الحيلة التي حبكتها زوجته رفقة ونفّذها ابنه يعقوب. ولكن ما أن مضت برهة من الوقت حتى كان عيسو قد عاد من الصيد. فحضّر الطعام كما طلب منه والده ثم دخل عليه قائلاً:

«ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك».

لم يصدق إسحق ما سمعته أذناه، فسأل:

«من أنت؟.»

وأتاه صوت ابنه يقول:

«أنا ابنك البكر عيسو.»

ارتعد إسحق من هول المفاجأة وأحس بأنه كان ضحية خديعة ماكرة، فتساءل خائفاً:

«فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي فأكلت من الأكل قبل أن تجيء وباركته. نعم ويكون مباركاً».

هزت هذه الكلمات عيسو هزاً بعد أن رأى كل أتعابه تذهب سدىً وتنهار كل أحلامه، فصرخ صرخة مدوية وقال لأبيه:

«باركني أنا أيضاً يا أبي.»

ولكن هل كان من الممكن مباركة الشقيقين؟ لا. فمن ناحية، لا يعقل إسناد إدارة شؤون القبيلة إلى شخصين في الوقت نفسه، ومن ناحية أخرى فقد اعترف إسحق أنه «ما بقيت لديه بركة» أخرى، يمنحها لعيسو الذي:

«رفع صوته وبكى.»

بعد أن أعلن له والده قائلاً:

«إني قد جعلت يعقوب سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدتُه بحنطة وخمر.»

كان لا بد أن يحقد عيسو على شقيقه يعقوب وأن يضمر له الشر. وهذا ما دفع والدته رفقة إلى حمل ابنها يعقوب على الهرب واللجوء إلى حاران حيث يقيم خاله لابان. أما إسحق، فبالرغم مما حدث له مع ابنه يعقوب فقد استدعاه وكأن شيئاً لم يكن وباركه وأوصاه قائلاً له:

«لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم إذهب إلى فدان آرام، إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك.»

[تكوين ٢٨/ ١ ـ ٣]

وبعد أن باركه وتنبأ له بالذرية الكثيرة لم يغفل عن الإتيان على ذكر الأرض الموعودة مردداً على مسامعه أن الله:

«يعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك. لترث أرض غربتك التي أعطاها الله لإبراهيم.»

[تكوين ٢٨/ ٤ ـ ٥]

وهنا ينتهي دور اسحق بعد أن يكون قد:

١ ـ حصر نسل إبراهيم بابنه يعقوب.

٢ ـ رسّخ في نفس وريثه الإيمان بالوعد الإلهي المتعلق بالأرض الموعودة.

أما عيسو، ومع أنه التزم بوصية والده التي تحذره من الزواج «من بنات كنعان الشريرات» فإنه انتقم لنفسه بطريقة سلبية بأن:

«ذهب إلى إسماعيل وأخذ محله بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت بنايوت زوجة له على نسائه».

[تكوين ٢٨/ ٩]

٣ ـ يعقوب

توجه يعقوب كما أشارت عليه والدته إلى ديار خاله في حاران هرباً من نقمة شقيقه عيسو. وبينما هو في الطريق وقلبه مثقل بالهموم والندم على ما اقترفه بحق شقيقه، استولى عليه النعاس، فاغمض عينيه واسترسل في نوم عميق رأى خلاله:

«سلماً منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردّك إلى هذه الأرض لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به.»

[تكوين ٢٨/ ١٢ ـ ١٥]

وكرر الرب بكل وضوح أمام يعقوب الوعد الذي قطعه على نفسه أمام إبراهيم وإسحق بأن يبارك النسل ويجعله كثيراً لا يُحصى كتراب الأرض وبأن يعطيه الأرض الموعودة. وهكذا انضم يعقوب إلى الفئة المحظوظة من نسل إبراهيم التي تمتعت بمباركة الله وحظيت دون غيرها بالوعد الإلهي المتعلق بالحصول على أرض كنعان. ويعقوب هو من المراجع الأساسية التي يعتمد عليها اليهود لتحديد نسل إبراهيم المعترف به، ولحصر الإرث بمن يحق لهم الاشتراك في اقتسامه.

وبعد هذا الحلم ارتفعت معنويات يعقوب وقويت ثقته بنفسه، فتابع سفره جاداً في الرحيل إلى حيث يقيم خاله لابان. وكان للابان ابنتان: ليئة وراحيل. فوقع اختيار يعقوب على الصغرى راحيل لأنها كانت الأجمل والأرشق، فقال لخاله:

«أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك. فقال لابان أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندي. فخدم يعقوب براحيل سبع سنين. وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها.»

[تكوين ٢٩/ ١٨ ـ ٢٠]

وبعد أن سدد يعقوب المهر بخدمة خاله مدة سبع سنوات أراد أن يتزوج. فصنع له خاله وليمة دعا إليها جميع أهل المكان. وفي المساء وتحت جنح الظلام أدخل لابان ابنته ليئة بدل راحيل إلى خيمة يعقوب. وفي الصباح، وبعد فوات الأوان، أدرك يعقوب أنه لم يتزوج بمن كان يحبها فقال لخاله:

«ما هذا الذي صنعت بي. أليس براحيل خدمت عندك فلماذا خدعتني.»

فقال لابان:

«لا يفعل هكذا في مكاننا أن نعطي الصغيرة قبل البكرة.»
[تكوين ٢٩/٢٦ ـ ٢٨]

ولكن لابان لم يقف حائلاً بين يعقوب وراحيل التي يحبها، فعرض عليه أن يعمل في خدمته سبع سنوات أخر كي يفوز براحيل. فوافق يعقوب وخدم خاله سبع سنوات ثم تزوج بمن أحبها قلبه. ولكن الذي حدث أن ليئة أنجبت، بينما ظلت راحيل عاقراً. ورزق يعقوب من ليئة بأولاده: رأو بين وشمعون ولاوي ويهوذا.

فغارت راحيل من شقيقتها ودفعت إلى زوجها يعقوب بجاريتها بلهة لعلها تُرزق منه ببنين. وحدث أن أعطت الجارية بلهة ولدين الأول دان والثاني نفتالي.

ولكن عندما أحست ليئة أنها توقفت عن الولادة وأن شقيقتها راحيل قد رزقت بنياً عن طريق جاريتها، دبت الغيرة في نفسها ودفعت بجاريتها زلفة إلى زوجها يعقوب فحملت مرتين. وولدت المرة الأولى جاد، وفي الثانية أشير. وشاء الله أن تحمل ليئة من جديد فولدت ابنها الخامس من يعقوب ودعته يساكر، ثم حبلت أيضاً ووضعت زبولون ابنها السادس. وأخيراً وضعت ابنة دعتها دينة وهي آخر أولادها.

وهكذا يكون نسل يعقوب مؤلف حتى الآن من عشرة أولاد رزق بهم على الشكل التالي:

ستة من زوجته الشرعية ليئة: رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر وزبولون.

ولدان من بلهة جارية راحيل: دان ونفتالي

ولدان من زلفة جارية ليئة: جاد وأشير.

وأخيراً ذكر الله راحيل ففتح رحمها ورزقت بغلامين:

ولدا راحيل: يوسف وبنيامين.

طالت إقامة يعقوب في ديار خاله لابان حتى ناهزت عشرين عاماً ساءت خلالها ظروف الحياة وتوترت العلاقة بين يعقوب ولابان بسبب الأجر الذي طالب به يعقوب بعد سنوات عديدة من العمل المتواصل في خدمة خاله. فانتهز فرصة غياب خاله فأخذ نساءه وأولاده وماشيته ورحل هارباً إلى أرض كنعان.

وحين اقترب من المكان الذي يقيم فيه شقيقه عيسو، أراد أن يخفف من حدة نقمته عليه، فأرسل إليه ببعض الرسل حاملين الهدايا عربون الأخوة والقرابة. وكان جواب شقيقه أن النقمة ما زالت على ما كانت عليه منذ سنوات عدّة، حادة وعميقة. فقضى يعقوب ليلته في ذلك المكان في وحدة تامة. وفيما هو يصلي شعر بيد غريبة وقوية توضع عليه. فظن في بادىء الأمر أن عدواً ما يريد الفتك به، فبذل جهده ليتخلص من تلك القبضة القوية. وجرى بين الاثنين عراك عنيف دام الليل بكامله. وبعد أن ضرب الغريب يعقوب في فخذه، علم هذا الأخير أن غريمه هو ملاك الرب، فبكى وطلب الرحمة. فقال الله الملاك:

«ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فأجابه الملاك: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت.»
[تكوين ٣٢/٢٨]

وهكذا أصبحت كلمة إسرائيل (أي الرب الذي جاهد) إسم رجل، ومن ثَم اسم عائلة، ثم اسم شعب وأخيراً اسم دولة. وكل ما حدث بعد

ذلك كان يجري بدءاً من يعقوب ومن أبنائه الإثني عشر الذين ألفوا ما عرف بأسباط إسرائيل الاثني عشر.

إن المباركة التي أنعم بها الرب على يعقوب ترمز فقط إلى القوة الجسدية، بل إلى القيمة الروحية أيضاً. نعم لقد ركع في اليوم التالي أمام شقيقه عيسو سبع مرات طلباً للصفح والمغفرة، لكنه بقي منتصباً روحياً، إذ بجسده ركع فقط فيما بقيت روحه شامخة. ذُلّ مادياً وانتصر فكرياً. وهذه الحادثة تركت أثراً عميقاً في نفوس الإسرائيليين وطبعت تصرفاتهم الاجتماعية بسلوك خاص بهم يقوم على الرضوخ الجسدي مع الاحتفاظ بالشموخ المعنوي. وهذا السلوك حدد معالم شخصيتهم القائمة على الازدواجية في جميع المراحل التي قضوها في العيش مع بقية الشعوب: الظاهر سخيف والباطن أصيل. لا مانع مثلاً من قبول الذل والتعايش مع الخضوع والتظاهر بالخنوع ضريبة للكفاح وللجهد وللتضحية في سبيل الاحتفاظ بالروح خافقة في انتصارها المعنوي.

وفي الحقيقة فإن كل الحوادث التي يذكرها العهد القديم، وهي كثيرة جداً، من الممكن دراستها وتحليلها للكشف عن الأثر الذي تركته في طباع اليهودي. وبما أنه من غير الممكن التوقف عندها جميعاً فإننا لن نذكر إلا المهم منها، فمن المفيد الاطلاع مثلاً على ما حدث مع دينة ابنة يعقوب الوحيدة من زوجته الشرعية ليئة. ففي إحدى مراحل سفره الطويل، حط يعقوب رحاله مرة أمام مدينة شكيم (تقع آثارها بالقرب من مدينة نابلس) التي كان يسكنها بنو حمور أبي شكيم.

وعندما خرجت دينة لتزور ضواحي المكان الذي نصبوا خيامهم فيه وقع نظر شكيم ابن حمور رئيس الأرض عليها فراقت له وتعلقت نفسه بها. وبعد أن اضطجع معها ازداد حبه لها وغرامه بها، فكلّم والده أن يأخذها زوجة له. إلا أن يعقوب وأولاده استشاطوا غضباً عندما علموا أن شكيم دنّس شقيقتهم. فقصدهم حمور وطلب يد الفتاة دينة زوجة لابنه شكيم قائلاً:

«شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم. أعطوه إياها زوجة،

وصاهرونا. تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا. وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها. ثم قال شكيم لابيها ولإخوتها دعوني أجد نعمة في أعينكم فالذي تقولون لي أعطيه. كثّروا علي جداً مهراً وعَطِيّته. فأعطي كما تقولون لي. وأعطوني الفتاة زوجة.»

[تكوين ٣٤/ ٨ ـ ١٢]

كلام لا غبار عليه، وعرض مغر قد لا يفوّته أي شعب من الشعوب إلا الشعب اليهودي الذي يأبى مصاهرة الغرباء منذ ذلك الحين ويحرص على الاحتفاظ بدم شعب الله المختار نقياً من كل اختلاط. وكان من المفروض أن يكون الرد إيجابياً، وهذا مستحيل، أو سلبياً واضحاً ومحدداً. ولكن وكما رأينا سابقاً فإن الازدواجية في شخصية اليهودي تلجأ إلى المراوغة والزوغان خوفاً من الحنق الذي قد تثيره الصراحة الوضوح، ثم إن المماطلة والمماحكة تعطيان وقتاً كافياً للتفكير وتدبير الحيلة بمكر ودعاء قائمين على الغدر والعدوان.

وكان ردهم الإيجابي مشروطاً بختن العريس وكذلك ختن كل ذكر في سبيل تسهيل المصاهرة والتعايش بين الشعبين وبهذا الشرط فقط، قالوا:

«يحق لنا أن نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضي»

[تكوين ٣٤/ ١٦/ ١٧]

وافق حمور وكذلك شكيم على هذا الشرط. فوقفا في باب المدينة وصارا يعلنان قائلين:

«هؤلاء القوم مسالمون لنا فليسكنوا في الأرض ويتجروا فيها. وهو ذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا. غير أنه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعباً واحداً بختننا كل ذكر كما هم مختونون».

[تكوين ٣٤/ ٢١ ـ ٢٤]

واستحسن الشعب هذا الرأي واختتن كل ذكر في المدينة. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ هل تزوج شكيم من دينة؟ هل تعايش الشعبان وانصهرا في

شعب واحد؟ لوحدث هذا فعلاً لكانت معظم مشاكل بني إسرائيل وجدت حلاً وجنّبت الإنسانية العديد من المآسي. ويروي كتاب اليهود المقدس تتمة هذه الحادثة فيقول:

«فحدث في اليوم الثالث (للختان) إذ كانوا متوجعين أن ابني يعقوب شمعون ولادي أخوي دينة أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم بقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت».

[تكوين ٣٤/ ٢٥ ـ ٢٩]

وفي اليوم التالي رحل يعقوب وأبناؤه إلى مكان آخر على شارف أرض كنعان وأقاموا فيه خوفاً من انتقام المدن الأخرى فظهر الرب ليعقوب من جديد على مسامعه الوعد بالقول:

«أمةٌ وجماعةُ أممٍ تكون منك. وملوك سيخرجون من صلبك. والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض».

[تكوين ٣٥/ ١١ ـ ١٢]

ومن صلب يعقوب خرج فيما بعد ملوك كداوود وسليمان، أما في الحال فقد خرج من صلبه مباشرة يوسف الذي تبوأ في مصر مركزاً مرموقاً يكاد يتساوى سلطة ونفوذاً مع ما يتمتع به الملوك. وقصة يوسف مشهورة ومعروفة وتتلخص بالحسد الذي نشأ في نفوس أشقائه لأن والدهم كان يفضله عليهم فحقدوا عليه وكادوا له، فألقوه في البئر وادعوا أن الوحوش الضارية قد افترسته. أما الذي حدث فعلاً، فهو أن قافلة مرّت من هناك فرآه رجالها في البئر فانتشلوه ثم باعوه في مصر. وهناك اشتهر بذكائه. وبما أنه كان ذا جمال أخاذ فقد أحبته زوجة سيده وراودته عن نفسها فلما رفض الاضطجاع معها كادت له وادعت أنه حاول اغتصابها فسجن. وفي السجن اشتهر ببراعته في تفسير الأحلام فاستدعاه فرعون مرة طالباً إليه الكشف عن

مضمون حلم أزعجه. وشاء الله أن يتحقق ما قاله يوسف فرضي عليه فرعون وعهد إليه بمركز مرموق في حكم الدولة وتصريف شؤونها. ثم وقعت المجاعة فاضطر أشقاؤه للذهاب إلى مصر للحصول على القمح. وفي هذه المناسبة تعرف يوسف على أشقائه ثم طلب إليهم أن يحضروا أباهم. فاحتار يعقوب الذي كان اسمه قد أصبح إسرائيل، لكن الله كلمه في الحلم وقال له:

«لا تخف من النزول إلى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك.
أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضاً.»

[تكوين ٤٦/ ٣ ـ ٤]

ويرحل يعقوب وأبناؤه الأثنا عشر إلى مصر. وهم الذين سيؤلفون أسباط بني إسرائيل المشهورة. أما طباع وصفات كل واحد منهم، فقد حددها يعقوب قبل وفاته وذكرت في الإصحاح التاسع والأربعين على الشكل التالي:

رأوبين يفور كالماء الغالي. **شمعون ولاوي** لا يتفقان إلا على الظلم، سخطهما قاس وغضبهما شديد. **يهوذا** يده تُذل أعداءه ويسجد له إخوته وهو رابض كالأسد. **زبولون** يسكن عند ساحل البحر. **يساكر حمار جسيم** رابض بين الحظائر، يحني كتفه للأثقال ويصبح عبداً للجزية. **دان** يكون حية على الطريق وعنفواناً على السبيل. يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء. **جاد** ما أن يحاصره جيش الأعداء حتى ينقض هو ليحاصر مؤخرة جيش العدو. **أشير** خبزهالسمين يلذ للملوك. **نفتالي أيلة** (إنثى الأيل) سائبة تعطي نسلاً جميلاً. **بنيامين** ذئب يفترس في الصباح ويتقاسم الغنائم في المساء. **يوسف** غصن شجرة مثمرة على عين.

أهمية هذا التصنيف تكمن في اقتناع اليهود الحاليين بمعرفتهم لأصولهم، أي إذا كان واحدهم متحدراً من يهوذا أو من دان أو من غيرهما. وهكذا يجد مبرراً لتصرفاته التي ورثها عن أجداده. ومن ناحية أخرى فإن هذه الصفات تجمع كل ما يمكن أن يتخيله المرء من أطباع تؤثر في تكوينه وترسم خطوط حياته. ثم إننا نرجو القارىء أن يعود إلى هذا التصنيف عندما يستولي بنو إسرائيل على أرض كنعان ويقسمونها على أسباطهم الاثني عشر ليرى كيف يعمد اليهود إلى تصنيف بعضهم البعض حسب هذه المفاهيم.

وقبل أن يسلم يعقوب الروح أوصى أولاده قائلاً لهم:

«ادفنوني عند آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي. في المغارة التي في حقل المكفيلة التي أمام حمرا في أرض كنعان التي اشتراها إبراهيم مع الحقل من عفرون الحثي. هناك دفنوا إبراهيم وسارة امرأته. هناك دفنوا إسحق ورفقه امرأته وهناك دفنت ليئة. شراء الحقل والمغارة التي فيه كان من بني حث».

[تكوين ٤٩/ ٢٩ ـ ٣٢]

لا تكمن أهمية هذه الوصية في قيمتها التاريخية بل في أمرين اثنين من المهم التوقف عندهما:

١ ـ أهمية هذه المقبرة عند اليهود التي تعرف الآن بالحرم الإبراهيمي، أنها تجمع إلى جانب ما ذكرناه آنفاً، ضريح يعقوب نفسه الذي نُقل جثمانه إليها وسط موكب مهيب شارك فيه جميع عبيد فرعون وشيوخ بيته، وجميع شيوخ أرض مصر. وكل بيت يوسف وإخوته وبيت أبيه. ودامت المناحة سبعة أيام قبل أن يدفنوه في المغارة. إن ما يتوق إليه اليهود هو أن يجدوا هذا الحرم مخصصاً لهم وحدهم من دون المسلمين الذين يشاركونهم فيه الآن. وما تلك الاستفزازات التي تحدث من وقت لآخر في باحة الحرم الإبراهيمي إلا بداية لعملية تهويد المكان تماماً بعد طرد المسلمين نهائياً وإذا لم يحدث هذا الأمر حتى الآن فلا يعني ذلك أنه لن يحدث أبداً إذا بقي الوقت يلعب لصالح الإسرائيليين كما هو الحال منذ إنشاء دولتهم. فقد رأيناهم يحققون أهدافهم رويداً رويداً بمثابرة وعزم. وهذا ما سوف يحدث للحرم الإبراهيمي إذا بقيت الأمور تتطور باتجاه بروز اليهود كقوة ضاربة في المنطقة فيما يتلاشى أثر العرب بسبب المنازعات الشخصية والأنانيات الفردية التي تعصف بهم.

٢ ـ أما الأمر الثاني فإنه يعطينا فكرة عن الأسلوب اليهودي المتبع في الوصول إلى الهدف منذ إبراهيم حتى هرتزل وشارون، خصوصاً في ما يتعلق باستملاك الأراضي والتسلط عليها. في أيام يوسف ويعقوب لم تكن أرض كنعان إلا وعداً يداعب أحلام بدو رحل. لقد كرره الرب

وأكده عدّة مراتٍ مع كل نبي أتى بعد إبراهيم وحتى يعقوب، وتبدو الأحداث الآن متجهة إلى قرب تحقيقه. وبما أن الشعب اليهودي فطر على عدم الثقة بالوعود حتى ولو كانت صادرة عن الرب، فقد كان لا بد من العمل على صعيدين متوازيين: ترسيخ الوعد بالتذكير والترديد، ومن ثم ربطه بإنجاز مادي، أي ربط القول بالفعل. لذلك سعى إبراهيم إلى تحقيق الإنجاز المادي ولو كان متواضعاً بالحصول على مقبرة صغيرة في أرض كنعان تكون حافزاً لليهود فيما بعد على العمل بدأب ونشاط وعزم للحصول على الأرض بكاملها. ولكن كيف تمكن إبراهيم من وضع يده على هذه المقبرة:

بعد أن ماتت سارة في قرية أربع التي هي الخليل، وبعد أن ندبها إبراهيم وبكى عليها، قام من أمام ميته وكلّم بني حِث (هم فرقة من بني كنعان ولا علاقة لهم بالحثيين) قائلاً:

«أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي».

[تكوين ٢٣/ ٤]

فأكرم بنو حِث إبراهيم ولكنهم عرضوا عليه كل قبورهم دون أن يخصصوه بواحد منها قائلين:

«في أفضل قبورنا أدفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك».

[تكوين ٢٣/ ٦]

ولكن هذا الجواب غير الواضح وغير الدقيق لم يرق لإبراهيم، فهو يريد أن يتملك أرضاً ـ «أعطوني ملك قبر»، قال لهم في أول مناقشته معهم ـ لا أن يدفن ميته فحسب، لذلك استطرد قائلاً:

«إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له التي في طرف حقله بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر».

[تكوين ٢٣/ ٧ ـ ١٠]

لقد حدد إبراهيم هدفه بكل وضوح. فهو يريد من عفرون بن صوحر أن يبيعه مغارة المكفيلة بثمن كامل ليمتلك قبراً وسط قبور بني حث. وكان عفرون بن صوحر حاضراً، فأجاب بأدب دون أن يلتزم ببيع المغارة لإبراهيم:

«لا يا سيدي اسمعني. الحقل وهبتك إياه. والمغارة التي فيه لك وهبتها لدى عيون بني شعبي وهبتك إياه أدفن ميتك».

[تكوين ٢٣/ ١١]

هل رضي إبراهيم بهذا العرض؟ طبعاً لا، لأن الهبة بما تحمله في طياتها من غموض وبما قد تثيره من مشاكل مع الورثة فيما بعد لا تتطابق مع ما يطمح إليه من الحصول على ملك شرعي مستوفٍ لكل ما يلزم من شروط البيع والشراء. فما كان منه إلا أن ألحَّ في رغبته بالشراء، فقال:

«ليتك تسمعني. أعطيك ثمن الحقل. خذ مني (هذا الثمن) فأدفن ميتي هناك».

[تكوين ٢٣/ ١٢]

إلحاح إبراهيم وضع عفرون في مركز حرج. فهذا الأخير لا يريد أن يبيع المغارة، فما كان عليه إلا أن يغالي بالثمن كي يحمل إبراهيم على التخلي عن مأربه، فقال له بتورية لا تخلو من اللياقة:

«يا سيدي إسمعني. أرضي بأربع مئة شاقل فضة ما هي بين وبينك فادفن ميتك».

[تكوين ٢٣/ ١٥]

وهذا ما كان يريده إبراهيم: أن يحدد عفرون الثمن أمام وجهاء بني حث، وفي باب المدينة حيث تجري عادة شؤون البيع والشراء أمام جمع غفير من الأهالي والمارة. فأسرع إبراهيم:

«ووزن لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حت.»

وخوفاً من الوقوع في الالتباس فإن كتاب اليهود المقدس يشدد على أن الثمن كان أربع مئة شاقل من الفضة الخالصة والمتداولة بين التجار. وفي ذلك يقول:

«أربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار.»

وزيـادة فـي الحـرص والاحتيـاط فـإن الكتـاب المقـدس ينهـي ذلـك الإصحاح بهذا الصك التجاري الواضح والدقيق فيقول:

«فوجب حقل عفرون الذي في المكفيلة التي أمام جمرا. الحقل والمغارة التي فيه وجميع الشجر الذي في الحقل الذي في جميع حدوده حواليه لإبراهيم ملكاً لدى عيون بني حث بين جميع الداخلين باب مدينته. وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في مغارة حقل المكفيلة أمام حمرا التي هي حبرون في أرض كنعان. فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم ملك قبر من عند بني حث».

[تكوين ٢٣/١٧ ـ ٢٠]

وفي هذا الصدد يتباهى اليهود بأنهم دفعوا ثمناً باهظاً في سبيل تملك أول قطعة أرض حصلوا عليها في الأرض الموعودة، وهي الحرم الإبراهيمي الحالي الذي يقاسمهم المسلمون ملكيته. وهذه السياسة أضحت سلوكاً طبيعياً عند اليهود: فمن خلال تملكهم لقطعة أرض صغيرة يسعون للاستيلاء على الأرض بكاملها. وهذا ما حصل بالفعل في بداية هذا القرن وأسفر فيما بعد عن استيلائهم على كل فلسطين شعارهم في ذلك: «اشترِ أولاً ثم استولِ، فالثمن الباهظ الذي تدفعه في سبيل الحصول على قطعة أرض صغيرة، ما هو في الحقيقة إلا ثمن الأرض بكاملها».

وكما رأينا سابقاً فإن مغارة المكفيلة أضحت مقبرة لسارة ثم لإبراهيم وإسحق ويعقوب، وملكاً لبني إسرائيل في أرض كنعان وستكون المدخل المباشر للحصول على الأرض كلها.

برحيل بني إسرائيل عن أرض كنعان وبإقامتهم في مصر تحت رعاية شقيقهم يوسف تنتهي مرحلة البداوة الحقيقية التي عاشوها في عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وفي هذه المرحلة تمت الإنجازات التالية:

١ ـ الاعتقاد الراسخ، بفعل الترديد بحقهم المشروع بالاستيلاء على أرض كنعان بموجب وعد إلهي رسم حدود الأرض بدقة وفرز الورثة الشرعيين بوضوح.

٢ ـ ظل الوعد غامضاً يتأرجح ما بين نسل إبراهيم ونسل إسحق حتى أخذ

شكله النهائي والمبرم بحصر الإرث بأبناء يعقوب الاثني عشر فقط لا غير.

٣ ـ البدء باستعمال كلمة إسرائيل وبني إسرائيل عند التداول بشأن الأرض الموعودة أو التحدث عن الورثة.

٤ ـ الإيمان العميق بكونهم يشكلون قوماً يختلف عن باقي الأقوام؛ قوم سوف تنشأ عنه أمة عظيمة تحكم الأرض وتستعبد سائر الشعوب، لذلك يتوجب عليه عدم الاختلاط بالغرباء أو مصاهرتهم أو تقليدهم، والحفاظ على عرقه نقياً طاهراً وعلى تقاليده سليمة وأصيلة.

٥ ـ إن يهوه هو لهم وحدهم، وهم شعبه المختار.

٦ ـ انتهاء حياة البداوة وابتداء حياة نصف البداوة.

هذه الإنجازات تداخلت في سلوك بني إسرائيل وانصهرت في طباعهم حتى أضحت مع الوقت شعوراً غريزياً يلازم اليهودي أنى وُجد، وفي أي عصر عاش ومهما كان مستواه الثقافي والتزامه الفكري ومخزونه المالي وتحصيله العلمي.

بعض الباحثين يبرر تصرفات بني إسرائيل، العنيفة منها كالتي حدثت في مدينة شكيم بشأن الفتاة دينة أو العائلية منها ذات النظرة الضيقة، بحصر الإرث ليس بالإبن البكر كما هي التقاليد بل بابن الزوجة الشرعية مهما كان ترتيبه، لكونهم بَدْواً رُحَّلاً تغلب عليهم النزعة الاستقلالية وتتحكم في تصرفاتهم ردة الفعل الناشئة عن الحرص والحذر والحيطة. ثم يعزو كل ذلك إلى ما يتحكم في طباع البدو من ميلٍ طبيعي إلى الغزو والسلب والنهب. ونحن لا نستبعد صحة هذا التفسير، ولكن ما يلفت النظر هو أن النزعة الاستقلالية هذه وردة الفعل تلك القائمة على الحرص والحيطة لم تختفيا من طباع اليهود حين انتقلوا من حياة البداوة إلى حياة الحضارة، بل تحجرتا في طباعهم ورافقتاهم في سلوكهم عبر القرون، لتصبحا فيما بعد بما عرف «بالخصوصية اليهودية» والعنصرية الصهيونية.

وفضلاً عن ذلك فإن المتتبع الدقيق لتفاصيل حياتهم اليومية والدارس المتعمق لتأرجح سلوكهم النفسي يدرك أن تصرفاتهم لم تكن مستمدة من حياة البداوة فحسب بل مستوحاة من أسلوب خاص في التعامل هدفه التركيز على خصوصيته والسعي في سبيل الحفاظ على هذه الخصوصية وربطها لا بالعبادات والتقاليد وحسب بل وخصوصاً بالدم؛ أي التركيز على الخصوصية العرقية. وهذه أولى النزعات العنصرية التي عرفها التاريخ في أيامه الغابرة. لقد رأينا كيف أبعد إسماعيل ابن الجارية عن دفء الحياة العائلية وألقي به في الصحراء مع والدته بقساوة وفظاظة لا يبررها إلا كون أمه غريبة من أصل مصري. هذا التصرف لا يستمد عنجهيته من فارق اجتماعي أو طبقي بل يرتكز في كل ما فيه من ظلم وتسلط على شعور بالتفوق العرقي وينشأ عن حرص بالحفاظ على نقاوة العنصر ووحدة الدم. فقد حدث فيما بعد أن تزوج يعقوب من زوجتين شرعيتين ليئة وراحيل، واضطجع مع جاريتين هما زلفة وبلهة، رزق من الأولى بجاد وأشير ومن الثانية بدان ونفتالي، ومع هذا فإن كون هؤلاء الأولاد الأربعة من والدتين جاريتين لم يحل بينهما وبين البقاء ضمن الأسرة والسفر معها إلى مصر والإقامة معها هناك ومن ثم اشتراك نسلهم باقتسام أرض كنعان بعد الاستيلاء عليها، ذلك لأن والدتيهم كانتا من القبيلة ولم تكونا غريبتين شأن هاجر والدة إسماعيل، ذلك أنه ومنذ ذلك الحين يعتمد اليهود على أصل الأم أكثر من أصل الأب عند الشروع في تحديد عنصر الولد، وهذا ما يفسر استبعاد عيسو شقيق يعقوب التوأم عن كل حق في الميراث لأنه تزوج من نساء كنعانيات ثم بفتاة من نسل إسماعيل لقد أهمل الكتاب المقدس ذكر تفاصيل حياته وسكت سكوتاً تاماً عن مصير نسله.

وبانتهاء سفر التكوين تنتهي مرحلة البداوة في حياة بني إسرائيل إذ أن إقامتهم في مصر أضفت عليهم شيئاً من حياة الحضر بالرغم من أنهم كانوا يتبعون فعلياً نمطاً من الحياة هو في الحقيقة ما بين البداوة والحضارة، أي أنهم أصبحوا أنصاف بدو. لقد استفادوا كثيراً من إقامتهم في مصر وأمضوا الفترة الكافية التي تؤهلهم للحياة ضمن إطار دولة. وكان عليهم الخروج من طور القبيلة إلى متطلبات الأمة. وهذا ما حدث بصعوبة فائقة فيما بعد.

الفصل الثاني

مرحلة نصف البداوة

١- اليهود في مصر

عندما استقرت عائلة يوسف في مصر، كان الحكم في أيدي الملوك الرعاة (الهكسوس) الذين غزوا البلاد وانتصروا بفضل مهارتهم في الحرب وأسلحتهم الجديدة وخيولهم وعرباتهم. هؤلاء الغزاة الآتون من الشمال كانوا نصف ساميين وكانوا مكروهين من المصريين، ولكي يحققوا التوازن بين العرقين لم يمنعوا القبائل الأسيوية، ومنها اليهودية من الدخول إلى الأرض المصرية. حكم الملوك الرعاة مصر طيلة قرنين، من سنة. ١٧٩ حتى ١٥٨٠ ق. م. إذ تمكن المصريون بعد ذلك من طردهم وإعادة تنظيم دولتهم الجديدة جاعلين من طيبة (Thèbes) عاصمة لها. (على بعد ٧١٤ كلم جنوبي القاهرة).

وحين دخل اليهود إلى مصر في سنة ١٦٥٠ ق. م. كان المجتمع الصري منقسماً إلى طبقات متباينة: حكام طغاة، وشعب كادح وطبقة رجال الدين الذين يسمحون بعبادة آلهة معددة. وقد أدى الاهتمام بطقوس الموتى

إلى ازدهار فن التحنيط وتقدمه تقدماً باهراً واحتلاله مركزاً مرموقاً في تفكير الناس.

ها هي تواريخ بعض الأحداث المهمة في ذلك الزمن:

١٦٥٠ وصول يعقوب وعائلته إلى مصر.

١٥٢٥ يولد موسى تحت حكم تحوتمس الثاني. وكانت بداية أول موجة كراهية ضد اليهود. رعت حتشسبوت موسى وعاملته كابن لها بالتبني وساعدتها شخصيتها القوية على الخروج عن القانون وعدم التقيد بأوامر فرعون.

١٤٥٠ خروج اليهود من وادي النيل في عهد الفرعون أمانوفيس الثاني ومكوثهم في صحراء سيناء.

١٤٠٦ ولاية أمانوفيس الثالث، الذي بدأ مع اليهود في عهده بالتطلع إلى أرض كنعان.

١٣٠٧ أمانوفيس الرابع ـ أخناتون الذي غزا اليهود في عهده أرض كنعان. ويدعي اليهود أن هذا الفرعون كان موحداً، يعتقد ويؤمن باله واحد وذلك تحت تأثير موسى. لذلك لم يلب نداء الكنعانيين لمساعدتهم على طرد الإسرائيليين.

فإذا كان الإسرائيليون قد دخلوا مصر في عام ١٦٥٠ وخرجوا منها في عهد أمانوفيس أي في حوالى عام ١٤٥٠، يكونون قد مكثوا فيها حوالى القرنين قضوا منها حوالى سبعين عاماً تحت حكم الملوك الرعاة ومئة وثلاثين عاماً تحت حكم السلطة الفرعونية. ومما لا شك فيه أن اليهود لاقوا من قبل الملوك الرعاة معاملة حسنة جعلتهم يتمتعون ببعض الامتيازات المالية والاجتماعية، وذلك لسببين: الأول عرقي، لأن الملوك الرعاة كانوا أنصاف ساميين، والثاني سياسي دفع الملوك الغزاة إلى تشجيع دخول الآسيويين إلى أرض مصر ليساعدوهم على الوقوف في وجه الشعب المصري ورد حملات الفراعنة الذين كانوا يعملون على استعادة نفوذهم وبسط سلطانهم. فكان من الطبيعي أن يقف اليهود في صف الملوك الرعاة ضد المصريين، وكان من

المنطقي أيضاً حين نجح المصريون في طرد الهكسوس وتربعوا على سدة الحكم، أن يفقد اليهود امتيازاتهم بعد أن أصبحوا تحت سلطة أعدائهم الذين صبروا عليهم مدة مئة وثلاثين عاماً، قبل أن يطردوهم من أرض مصر.

ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لطردهم وكم كان عددهم بعد حوالي قرنين من دخولهم أرض مصر مع يعقوب وعائلته بحيث لم يكونوا يتعدون سبعين شخصاً؟ إن العهد القديم يقول إنهم تناسلوا بكثرة خلال تلك الفترة ولكن لا يذكر عددهم:

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت منهم الأرض».

[خروج ١/ ٧]

كان هاجس اليهود الأساسي التناسل فيما بينهم لإكثار شعبهم مع التشديد على نظافتهم العرقية لاعتقادهم العميق أنهم شعب يختلف عن بقية الشعوب، وأن أي اندماج مع الشعوب الأخرى ومجتمعاتها يعتبر خروجاً على عقيدتهم وإضعافاً لها. وهذا الشعور ما زال يلازمهم حتى الآن بقوة. صحيح أن بعض اليهود تمصر واختلط بالمصريين وصار يعيش مثلهم، ولكن أكثريتهم المطلقة حافظت على عقيدتها ولغتها وتقاليد أجدادها، وعنها انبثق التيار الصهيوني المعادي للشعوب المضيفة، وضدها نشأت ردة الفعل المسماة باللاسامية.

إن العهد القديم، وهو المصدر الوحيد تقريباً الذي يلقي الأضواء على تلك الحقبة ويزودنا بمعلومات عنها، يقول إن مرحلة الملاحقة والتعذيب بدأت عندما نشأت الغيرة في نفوس المصريين ضدّ اليهود:

«هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلمّ نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

[خروج ١/ ٩ ـ ١٠]

لم تكن الغيرة وحدها التي حفزت المصريين على الوقوف ضد اليهود، بل أيضاً الحذر والخوف من أن ينقلب اليهود عليهم وأن يقفوا في صف أعدائهم، وهذا ما ذكرناه آنفاً من احتمال وقوف اليهود مع الملوك الرعاة ضد المصريين. عندئذٍ بدأ الاضطهاد والتنكيل:

«فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف. ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل».

[خروج ١/ ١٤]

وهذا الاضطهاد يكمن وراءه عامل اقتصادي كما تدل عليه مقاطع الآية المذكورة، كالعمل «في الطين واللبن» أو «العمل في الحقل».

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة القتل الجماعي. وهذا ما فعله فرعون، كما يقول العهد القديم، عندما طلب إلى القابلتين القانونيتين قتل أطفال العبرانيين:

«وكلّم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين إسم إحداهما شفرة وإسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي. إذا كان ابناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا».

[خروج ١/ ١٥ ـ ١٦]

منذ ذلك الحين تحددت المراحل التي يتدرج فيها سلوك الإسرائيليين وهو في ضيافة الشعوب الأخرى، ورُسمت الحلقات التي انبشق عنها ما عرف فيما بعد تحت إسم «الجيتو» اليهودي وهي تتلخص بما يلي:

١ ـ حذر أو خوف من خيانة تستولي على مشاعر الشعب المضيف، فيتربص.

٢ ـ اضطهاد وقائي يخفي في طياته دوافع اقتصادية، أحياناً متردية.

٣ ـ تنكيل وقتل جماعي.

هذه هي فعلاً مراحل تكوين سياسة الجيتو التي استعيدت بالشكل نفسه تقريباً عند جميع الشعوب التي تعايشت مع اليهود قبل المسيح وبعده. وبما أن التقنية بقيت كما هي، فهذا يعني أنها نابعة من مصدر واحد هو المصدر اليهودي، لا من مصادر عدة مختلفة.

حين دخلت إقامة اليهود في مصر مراحل الجيتو الحقيقي أخذوا يفكرون بالرحيل. عندئذ بدأت قصة موسى ونجاته من جور فرعون ومن الغرق في النيل حيث دفعته المياه إلى قصر زوجة فرعون فاعتنت به ورعته. في نشأته بين أفراد العائلة الحاكمة ألمّ موسى بكل أسرار وخفايا السلطة والنفوذ وبكل ما يجري في كواليس الحياة السياسية والدينية والعسكرية. ومع أنه فتح عينيه بين الملوك وترعرع في القصور، فإن قلبه بقي متعلقاً بتقاليد قومه وطقوس إخوته.

كان موسى قد أشرف على الأربعين من عمره حين وقع نظره في أحد الأيام، على رجل مصري يضرب إسرائيلياً. فما كان منه إلا أن انقضّ على الضارب وقتله معتقداً أن ما من مخرج لقومه من هذه العبودية إلا بالإرهاب. ولكن عندما انتشر الخبر وذاع اضطر موسى إلى الهرب والخروج من مصر ليعيش عند رجل يدعى مدين، وهناك تزوج من سيفورة، إبنة رجل غني يملك مواشي عديدة، وبقي عنده زهاء أربعين عاماً تعلم فيها التقشف وحياة العزلة والتأمل في واقع البؤس الذي يعيشه قومه في مصر.

ويصور لنا العهد القديم حالة الظلم والاستبداد التي كان يعيشها بنو إسرائيل تحت حكم الفراعنة إلى أن انتعشت آمالهم بالخروج من هذه الحالة:

«حدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب».

[خروج ٢/٢٣ ـ ٢٥]

فتجلّى الله على موسى وقال له:

«أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إني علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأُصعدهم

من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. والآن هوذا صراخ بني إسرائيل قد أتى لي ورأيت أيضاً الضيقة التي يضايقهم بها المصريون. فالآن هلمّ فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر».

[خروج ٦/٣ ـ ١٠]

٢ ـ الخروج من مصر

لم تكن المهمة الملقاة على عاتق موسى سهلة لسببين: الأول أن نصف اليهود الموجودين في مصر لا يريدون مغادرتها، والثاني صعوبة إقناع فرعون بإخلاء سبيل بني إسرائيل وتركهم يخرجون من مصر. فرعون عارض هذه الرغبة ومنعهم من مغادرة مصر، فكانت اللعنات العشر التي نزلت به وحملته أخيراً على الرضوخ. فخرج بنو إسرائيل من مصر ولكن بعد أن احتالوا على الشعب المصري الكادح وسلبوه أمواله»

«طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين».

[خروج ١٢/ ٣٥]

وحدث بعد ذلك أن طارد فرعون بني إسرائيل ولحق بهم، ولكن حين نجح بنو إسرائيل في اجتياز البحر الأحمر بأعجوبة كبيرة، فإن المياه انطبقت على فرعون وجنوده وأغرقتهم. بعض المؤرخين يحدد عدد اليهود الذين خرجوا من مصر بثلاثة أو أربعة آلاف شخص، فيما يذكر العهد القديم أن عددهم قد بلغ:

«نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد».

[خروج ١٢/ ٣٧]

أي أكثر من مليون شخص. هذه الجموع الغفيرة خرجت من مصر بعد أن أقامت فيها:

«أربع مئة وثلاثين سنة».

[خروج ١٢/ ٤٠]

حسب العهد القديم أو مئتات كما يقول بعض المؤرخين.

مضت على القوم ثلاثة شهور بعد خروجهم من مصر وهم مقيمون على سفح جبل في سيناء في المكان الذي اختاره الله ليتجلى به على شعبه ويتحاور فيه مع أبنائه ليجعل منهم شعب أنبياء، ينشر الإيمان والوحدانية عند شعوب الأرض كافةً، وليخصهم بحبه مقابل شرط أوضحه لهم بقوله:

«إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض: وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة.»

[خروج ١٩/٥ ـ ٦]

ولكن، هل كان هذا الشعب يقدّر العهود ويحترم المواثيق؟ لقد كان ينقض العهد ولا يتمسك بالأحكام ويخرج على طاعة الرب. وهذا ما حصل فعلاً حين نزل موسى عن الجبل، فوجد شعبه يعبد العجل، فاغتاظ وكسر الصحائف. لكن العهد القديم لا يشير إلى غضب الرب من هذا السلوك:

«الرب أب إله رحيم ورؤوف وبطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيئة.»

[خروج ٣٤/٦ ـ ٧]

وكثيراً ما كان الرب يتدخل في تفاصيل حياتهم اليومية ويعيد ويكرر على مسامعهم محذراً:

«أنا الرب إلهكم. مثل عمل أرض مصر التي سكنتم فيها لا تفعلوا ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آتٍ بكم إليها لا تعملوا وحسب فرائضهم لا تسلكوا. أحكامي تعملون وفرائضي تحفظون لتسلكوا فيها، أنا الرب إلهكم. فتحفظون فرائضي وأحكامي التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها. أنا الرب.»

[لاويين ١٨/٣ ـ ٥]

وحين يجدهم دائماً إلى الضلال ميالين وعلى الفساد عاكفين، كان يهدد ويتوعد منذراً:

«إذ رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذا بكم وأسلط عليكم رعباً وسلاً وحمّى. . .
واذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة. . .
وإني أيضاً سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم، أذكر ميثاقي مع يعقوب وأذكر أيضاً ميثاقي مع إسحق وميثاقي مع إبراهيم وأذكر الأرض. . .»

[لاويين ٢٦/٣ ـ ٤٥]

أربعون عاماً قضاها بنو إسرائيل في الصحراء يتأرجحون فيها بين الاستسلام للرب حيناً والاعتراض على مشيئته حيناً آخر. فكثيراً ما كانوا يثورون على موسى وهارون ويتندمون على الأيام التي قضوها في مصر:

«ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع».

[خروج ١٦/٢]

لكن الأربعين عاماً التي قضاها العبرانيون في الصحراء، نشأت عنها أشياء كثيرة وتحققت خلالها إنجازات عديدة أهمها:

١ ـ كانت هذه المرحلة ضرورية جداً كي تؤهل أنصاف البدو الخارجين من مصر للدخول في نمط جديد من الحياة قائم على أسس حضارية ثابتة. فمن حياة البدو الرحل مع إبراهيم تعلم العبرانيون في مصر مبادىء حياة الحضر والإقامة الدائمة.

٢ ـ إن حياة الحضر ليست سهلة، فهي تتطلب قوانين وشرائع لتنظم المعاملات بين الأفراد وتلقي ضوءاً على تطلعات المستقبل وتحدد أيضاً التعامل مع الغريب. . . الخ.

٣ ـ كما رأينا في الفصول السابقة أخذ مبدأ تحديد نسل إبراهيم يتضح، وقد تكرس في الصحراء عندما:

«بكّر موسى في الصباح وبنى مذبحاً في أسفل الجبل واثني عشر عموداً لأسباط إسرائيل الأثني عشر».

[خروج ٢٤/ ٤]

أي أُبعد إسماعيل وأحفاده نهائياً، وانحصر كل شيء بهؤلاء الأسباط الاثني عشر من أحفاد إسحق. ومن ناحية أخرى فإن الوعد الإلهي بإعطاء أرض كنعان لبني إسرائيل ما زال قائماً، يؤكده الرب ويذكره دائماً. ومما لا شك فيه أن وجود الشعب على قاب قوسين أو أدنى من أرضه الموعودة لم يكن كافياً لإقامة حكم ثابت، فهو بحاجة إلى قوانين خاصة به وأنظمة تتطابق وتطلعاته. لذلك كانت شريعة موسى.

٤ ـ منذ ذلك الحين تفاقم جنوح بني إسرائيل نحو الخصوصية والتفرد عن باقي الأمم، وتشكل الخط المأسوي الذي جرّ اليهود أنفسهم إليه عبر تاريخهم الطويل. فكل الأنبياء الذين ظهروا فيما بعد كانوا يأخذون عليهم نزوعهم إلى عبادة آلهة الشعوب الأخرى كبعل مثلاً وغيره، وكانوا يذكرونهم دائماً أن ما يلاقونه من عذاب في الأرض ناتج عن نقضهم العهد الإلهي الأبدي والسرمدي، كما يعتقدون.

«هو الرب إلهنا في كل الأرض أحكامه، ذكر إلى الدهر عهده كلاماً أوصى به إلى ألف دور الذي عاهد به إبراهيم. وقسمه لإسحق فثبته ليعقوب فريضة ولإسرائيل عهداً أبدياً. قائلاً لك أعطي أرض كنعان حبل ميراثكم:

[مزامير ١٠٥/ ٤ ـ ١٠]

وخلاصة القول أنه خلال الأعوام الأربعين التي قضاها العبرانيون في سيناء انقرض جيل وحل محله جيل جديد ترعرع ونشأ على:

١ ـ الإيمان بخصوصية تميزه عن باقي الشعوب.

٢ ـ التمسك بشريعة هي له وحده دون باقي الأمم.

٣ ـ الاعتقاد الراسخ بحقه الشرعي بالاستيلاء عنوة على الأرض الموعودة.

وبقدر ما يكون المبدآن الأولان راسخين وعميقين يكون تحقيق الثالث سهلاً وميسوراً. ومع ذلك فإن الأمر يتطلب استعداداً وتمريناً، لأن الاستيلاء

على أرض كنعان ليس أمراً سهلاً، والشعب الكنعاني لم يكن شعباً ضعيفاً أو متخاذلاً. وفي الطريق إلى الأرض الموعودة وقبل وقوع الحرب الفاصلة، صار العبرانيون يتمرسون على القتال باجتياح الممالك التي يصادفونها، في طليعتها مملكة سيحون كما يشير إلى ذلك العهد القديم:

«فخرج سيحون للقائنا هو وجميع قومه للحرب إلى ياهص. فدفعه الرب إلهنا أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحَرَّمنا من كل مدينته الرجال والنساء والأطفال. لم نبق شارداً لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التي أخذناها».

[تثنية ٢/ ٣٢]

جاء بعد ذلك دور مملكة باشان:

«ودفع الرب إلهنا إلى إيدينا ملك باشان وجميع قومه فضربناه حتى لم يبق له شارد. وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت. لم تكن قرية لم نأخذها منهم؛ ستون مدينة كل كورة أرجوب مملكة عوج في باشان. كل هذه كانت مدناً محصنة بأسوار شامخة وأبواب ومزالج سوى قرى الصحراء الكثيرة جداً. فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حبشون محرمين كل مدينته الرجال والنساء والأطفال. لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا».

[تثنية ٣/ ٣ ـ ٦]

رفعت هذه الانتصارات من معنويات الخارجين من الصحراء، لا سيما وأن التطمينات قد انهالت عليهم من الرب قائلة:

«عيناك قد أبصرتا كل ما فعل الرب إلهكم بهذين الملكين. هكذا يفعل الرب بجميع الممالك التي أنت عابر إليها. لا تخافوا منهم لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم».

[تثنية ٣/ ٢١]

لكن الرب الذي هو «نار آكلة وإله غيور» [تثنيه ٤/ ٢٤]، لم يتوان عن تذكيرهم بأن الممالك التي كانوا يجتاحونها في طريقهم ما هي إلا انتصارات عابرة، لأن المهم هو:

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدنٍ عظيمة جداً لم تبنها وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم زيتون لم تغرسها وأكلت وشبعت فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية».

[تثنيه ٦/ ١٠ ـ ١١]

والأهم هو:

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين وشعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرّمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لإبنك. لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحمر غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً».

[تثنية ٧/ ١ ـ ٤]

ذلك لأن الشعب الإسرائيلي هو شعب له خصوصياته، ولا مانع من تذكيره بها دائماً لتستقر في وجدانه وتنقش نقشاً عميقاً في نفسه:

«إنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب، التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم. . .»

[تثنية ٧/ ٦]

منذ ذلك الحين حدد بنو إسرائيل لأنفسهم سلوكاً في الحياة جعل منهم شعباً يعيش ضمن حلقة جهنمية. فمن ناحية هم على احتكاك دائم ببقية الشعوب، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون الامتزاج بهم لأن الله لهم بالمرصاد، إذ من المفروض أن يحافظوا على كيانهم كأمة مقدسة في مملكة كهنوتية، هي الشاهد على وجود الله، وصلة الوصل بينه وبين الأمم

الأخرى، لا لتجعل منهم يهوداً، فاليهودية حكر على أحفاد إسحق فقط، ولكن لتجعل منهم أتباعاً للشعب المختار.

وعلى الرغم من كل هذه التطمينات التي أغرقها يهوه عليهم، وفضلاً عن كل تلك الانتصارات التي هيأها الإله لهم، فإنهم ما زالوا في شك من أمر انتصارهم النهائي على الشعوب التي تقيم في الأرض الموعودة. إن قلب بني إسرائيل ما زال يتهيب ويجزع:

«إن قلت في قلبك هؤلاء الشعوب أكثر مني كيف أقدر أن أطردهم، فلا تخف منهم. أذكر ما فعله الرب إلهك بفرعون وبجميع المصريين. التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك والآيات والعجائب واليد الشديدة والذراع الرفيعة التي بها أخرجك الرب إلهك. هكذا يفعل الرب إلهك بجميع الشعوب التي أنت خائف من وجهها».

[تثنية ٧/ ١٧]

أمران مهمان كان لا بد من تهيئتهما تهيئة تامة وناجحة: الاستعداد المادي أولاً والاستعداد النفسي ثانياً. فإذا كان الأول قد تحقق في المعارك التي جرت ضد الممالك التي صادفوها في طريقهم، فإن الأمر الثاني هو الأهم والأصعب تحقيقاً. فبالرغم من كل الوعود الإلهية فإن بني إسرائيل ما زالوا يشكون. لكن يهوه يتدخل من جديد ليشد من أزرهم.

«تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك ومدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء. قوماً عظاماً وطوالاً بني عناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف في وجه بني عناق. فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب».

[تثنية ٩/ ١ ـ ٣]

لماذا يناصر يهوه شعبه كل هذه المناصرة الصادقة والأمينة؟ هل لأن هذا الشعب احترم المواثيق والتزم بالأحكام؟ يجيب العهد القديم بوضوح.

«ليس لأجل برّك وعدالة قلبك لتدخل لتمتلك أرضهم... إعلم

أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة».

[تثنية ٩/ ٦]

ولكن لماذا إذاً؟

«بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك».
[تثنية ٩/ ٥]

يا رب!!! هل العرب فعلاً آثمون؟

كان لا بد من تلك الموآزرة النفسية كي يحافظ الشعب على متانة جأشه ويملك نواحي أمره في معارك حاسمة تنبأ بها يهوه فقال لشعبه:

«إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب قوم أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر. وعندما تقربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب. ويقول لهم أسمع يا إسرائيل. أنتم قربتم اليوم من الحرب على أعدائكم. لا تضعف قلوبكم. لا تخافوا ولا ترتعدوا ولا ترهبوا وجوههم. لأن الرب إلهكم سائر معكم يحارب عنكم أعداءكم ليخلصكم».

[تثنية ٢٠/١ ـ ٤]

ثم تأتي التوصيات في معاملة الأعداء والتي حافظ عليها بنو إسرائيل أكثر من أي بند آخر من بنود الشريعة، إقرأ عزيزي القارىء وتذكر ما حدث في فلسطين وفي لبنان:

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب

إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموك أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم».

[تثنية ٢٠/ ١٠ ـ ١٨]

وقبل أن يجتاز الإسرائيليون نهر الأردن ويصبحوا على مشارف أرض كنعان، مات موسى بعد أن كان قد نجح في صهر الشعب اليهودي وشحذ مشاعره العدوانية وبلور طاقاته القتالية وصاغ له شريعة تحافظ على وحدته وتشد من أزره وتربطه ربطاً وثيقاً بماضيه وبتاريخه. فكان على يشوع بن نون أن يقود شعب المحاربين ويعبر به نهر الأردن.

* يشوع بن نون

خلف يشوع بن نون موسى محرر بني إسرائيل من العبودية. وكان عليه قيادة بني إسرائيل إلى الأرض الموعودة. أرض يجهل تضاريسها ولا يعرف شيئاً البتة عن سهولها أو أنهارها. أرض يحلم بها الشعب اليهودي ويتوق توقاً عظيماً للسيطرة عليها.

يشوع كان يتحلى بمزايا عديدة جعلت منه قائداً ناجحاً: فقد كان شجاعاً، مثابراً، صالحاً، خلوقاً وتقياً. صدى الوعد الإلهي ما زال يتردد في قلبه. فبعد أن مات موسى خاطبه الرب وقال له:

«قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك كما كنت مع موسى أكون معك. لا أهملك ولا أتركك. تشدد وتشجع».

[يشوع ١/١ ـ ٥]

ولكي يقنع يشوع نفسه بحقيقة هذا الوعد كان يرفع ناظريه ليرى السحابة في السماء، تلك السحابة التي ترمز إلى العناية الإلهية، فكان يستمد منها الشجاعة والثقة. ومع ذلك فإن الوضع السياسي والعسكري في المنطقة لم يكن مريحاً. فعند إشراقة كل صباح كان يشوع يجيل نظره في الأفق ويتوقف به عند الأرض الموعودة؛ عندئذ تتضح الرؤية أمامه: الأرض مأهولة بالسكان. الكنعانيون يملأونها ويحرثونها. وفضلاً عن ذلك فهي نقطة التقاء قارات ثلاث وممر لكل الغزاة والفاتحين. إن يهوه أراد إسكان شعبه المختار في تلك المنطقة ليكون شاهداً على وجوده عند جميع الأمم. وكان يتساءل: هل أتى وقت العمل ودقت ساعة تحقيق الوعد الإلهي؟. الوضع العام لم يكن مشجعاً. ففي جنوب أرض كنعان كان هناك المصريون يقاومون بشراسة عدوان شعوب كانت تهاجمهم من البحر فضلاً عن مضايقات الحثيين من الشمال. وبعد صراع دام أكثر من ستين سنة توصل الحثيون والمصريون إلى الاتفاق على معاهدة سلام.

في شمال الفرات كان الميثانيون (Mittanien) يسعون للسيطرة على طريق مصر، ومع أن تحوتمس الثالث انتصر عليهم في معركة مجدّو (Meguiddo) في عام (١٤٨٣) قبل الميلاد فإن قادة الميثانيين نظموا سبع حملات متتالية قبل أن ينجحوا في فرض معاهدة سلام على المصريين.

والأشوريون في الشرق يسعون للوصول إلى البحر المتوسط، لكن الحثيين حلفاء المصريين منعوهم من ذلك.

وفي الغرب، شعوب آتية من البحر تنظر بنهم إلى منطقة الشرق الأوسط وهي تمني النفس بأن تتمكن من تأمين موطىء قدم لها في تلك الديار. وقد نجحت فيما بعد في هزيمة المصريين والحثيين وفي بث الفوضى في كنعان وفي سوريا.

في هذا الجو المشحون بالحروب وبعدم الاستقرار أيقن شعب بني إسرائيل أن ساعة التقدم قد دقت، فالرب يرغب في أن يرى شعبه المختار يهب لتنفيذ رغبته ويستولي على الأرض التي وعده بها. يهوه هو ملك

الكون، وهو لن يتخلى عن شعبه بل سيساعده ويحارب إلى جانبه. وزيادة بالاحتراس فإن يشوع فتح أمام أحفاد إسحق باب التجسس للاعتماد عليه قبل القيام بأي عمل حربي:

«فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلاً إذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك. فقيل لملك أريحا هو ذا قد دخل إلى هنا الليلة رجلان من بني إسرائيل لكي يتجسسا الأرض. فأرسل ملك أريحا إلى راحاب يقول أخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك ودخلا بيتك لأنهما قد أتيا لكي يتجسسا الأرض كلها. فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما وقالت نعم جاء إليَّ رجلان ولم أعلم من أين هما. وكان نحو انغلاق الباب في الظلام أنه خرج الرجلان. لست أعلم أين ذهب الرجلان. اسعوا سريعاً وراءهما حتى تدركوهما. وأما هي فاطلعتهما على السطح ووارتهما بين عيدان كتان لها منضدة على السطح. فسعى القوم وراءهما في طريق الأردن إلى المخاوض وحالما خرج الذين سعوا وراءهما أغلقوا الباب... الخ».

[يشوع ٢/ ١ ـ ٨]

وعندما حصلا على ما كانا يبغيان:

«رجع الرجلان ونزلا عن الجبل وعبرا وأتيا إلى يشوع بن نون وقصا عليه كل ما أصابهما».

[يشوع ٢/ ٢٢]

الخطة أضحت كاملة. فتحت شعار «تحرير الأرض الموعودة»، وبفضل إيمانهم أن يهوه هو الذي يدير هذه الحرب ويشارك فيها إلى جانب بني إسرائيل، بدأت تلك المغامرة العدوانية الجريئة:

«ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الأردن والكهنة حاملو تابوت العهد أمام الشعب. فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه

المنحدرة من فوق وقامت ندّا واحداً بعيداً جداً عن أدام المدينة التي إلى جانب صرتان والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا. فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة في وسط الأردن راسخين وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن».

[يشوع ٣/ ١٤ ـ ١٧]

وقبل أن يجري حصار أريحا كان من المفروض أن تُصّفى بعض الحسابات بين يهوه وشعبه. نعم لقد هب الرب لمساعدة بني إسرائيل لا سيما عندما أظهر القادة إيمانهم به واستسلامهم لإرادته، ولكن الشعب كان، وهو تائه في الصحراء، قد تناسى الختان أو أهمله مما حمل يشوع على تذكيره به وحثه على إجرائه:

«في ذلك الوقت قال الرب ليشوع إصنع لنفسك سكاكين من صوّان وعد فأختن بني إسرائيل ثانية. . .»

[يشوع ٥/ ٢]

وبعد الاحتفال بعيد الفصح، حصل يشوع على تأكيد إلهي بالنصر، شرط أن يستسلم للإرادة الإلهية. ثم تلقى الأمر من السماء بأن يقوم الشعب كل يوم بالدوران حول المدينة وهو ينفخ بالأبواق، وفي اليوم السابع يقوم بسبع دورات حول المدينة. وكان لا بد من هذا الحصار لأن مدينته أريحا:

«كانت مغلقة بسبب بني إسرائيل. لا أحد يخرج ولا أحد يدخل. فقال الرب ليشوع: أنظر، قد دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس. تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب. حول المدينة مرة واحدة. وهكذا تفعلون ستة أيام. وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت. وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق أن جميع الشعب يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة في مكانه ويصعد الشعب كل رجل مع وجهه».

[يشوع ٦/١ ـ ٥]

وعندما طبق الشعب الخطة الحربية كما رسمها يهوه، سقطت أريحا:

«وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة.
وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف».

[يشوع ٦/ ٢١]

كان لهذا النصر الفجائي غير المتوقع أثر عميق من التعاسة في نفوس الكنعانيين، بينما كان أثره سعيداً في قلوب بني إسرائيل الذين، في غمرة نشوة الانتصار، نسوا المنتصر الحقيقي في هذه الحرب، أي الرب. فبعض الجنود لم يحترم الطقوس واحتفظ لنفسه بجزء من الغنيمة بدل تقديمها بكاملها للرب. والبعض الآخر توهم أنه قادر على خوض غمار الحرب من دون الاعتماد على الإله. فكانت الهزيمة أمام مدينة عاي.

عندئذ تدخل الرب قائلاً:

«قد أخطأ بنو إسرائيل بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به بل أخذوا من الحرام بل سرقوا بل أنكروا بل وضعوا في أمتعتهم...»

[يشوع ٧/ ١٠ ـ ١١]

من خلال هذا القدر اليسير من الآداب التوراتية يمكننا أن نستخلص الثوابت الأساسية التي حافظ الشعب اليهودي على استمراريتها منذ فجر التاريخ وحتى أيامنا هذه، وهي:

١ ـ الاعتماد على التجسس في تحركاته العسكرية كافةً وعلى النساء في معظم نشاطاته الدبلوماسية الدقيقة.

٢ ـ انتصاراته الحربية تعني أيضاً إفناء أعدائه عن بكرة أبيهم شيوخاً وأطفالاً ونساءً، وذبح مواشيهم وحرق مدنهم. هذه الغايات ظلت على ما هي وإن كانت وسائلها أخذت مظاهر جديدة، مثل بناء المعسكرات والسجون ونسف البيوت وحرق الأشجار... الخ.

٣ ـ ربط النجاح والانتصار بصدق النوايا باتجاه الرب وبقوة الإيمان به، وبكامل الطاعة له. هدفهم من وراء ذلك ليس الحفاظ على الأمة كقوة

متماسكة وموحّدة فحسب بل تكريس أنفسهم شعباً مختاراً يختلف عن بقية الشعوب لكونه أبرم عهداً مع الله.

على هذا المنوال تتابعت معارك الاستيلاء على أرض كنعان ممتدة على ثلاثة محاور باتجاه الشمال والوسط والجنوب.

وفي الحقيقة فإن هذه المعارك امتدت على مدى زمن طويل إذ أن بني إسرائيل لم يستولوا على كل أرض كنعان لأن الشواطىء بقيت تحت سيطرة الفلسطينيين وكذلك السهل الممتد من البحر الأبيض إلى أورشليم. فالعهد القديم يقول إن الإسرائيليين احتموا بالجبال حيث يتعذر وصول المركبات الكنعانية إليها.

بعد حين قسم يشوع الأرض التي استولى عليها بين أسباط بني إسرائيل على أمل أن يُكمل كل سبط تحرير بقية الأجزاء الواقعة تحت سيطرة شعب غريب. وقد وعد يهوه بأن يزيد من مساحة تلك الأرض في حال تمسك الإسرائيليون بإيمانهم واحترموا عهدهم مع الرب. اللاويون فقط لم يفوزوا بأرض خاصة بهم، لذلك احتفظوا لأنفسهم بمواقع متفرقة في جميع أنحاء البلاد. وقبل أن يموت، جمع يشوع قومه وحذرهم من عاقبة انسياقهم وراء الكنعانيين، وتقليد طقوسهم أو الانغماس في مباذلهم الاجتماعية. واتت وصيته واضحة ما زال صداها يتردد في جنبات كل إسرائيلي حتى يومنا هذا. وهذا ما قاله يشوع لقومه قبل الفراق الأخير:

«إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب أولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم (. . .) حينما تتعدون عهد الرب إلهكم الذي أمركم به وتسيرون وتعبدون إلهة أخرى وتسجدون لها يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعاً عن الأرض الصالحة التي أعطاكم»

[يشوع ٢٣/ ١٢ ـ ١٦]

في نهاية هذا الشوط من تاريخهم كان اليهود قد انتقلوا من حياة البداوة والترحال إلى حياة المدنية والإقامة الدائمة في المدن، لكنهم لم يكونوا قد بلغوا تلك المرحلة المتقدمة من الحضارة ومن المدنية، بل أن روح العشائرية كانت ما تزال واضحة في تصرفاتهم. وقد بدت ساطعة في تقسيم الأرض على الأسباط والعشائر التي كان يتألف منها القوم العبري. لقد استفادوا كثيراً من حضارة الكنعانيين التقنية والاجتماعية والأخلاقية وأخذوا منها الكثير من الطقوس ومن النظم. وكان لا بد لهم، قبل أن يتوصلوا إلى وضع الأسس المتينة لدولة مزدهرة، أن يمروا بفترة اختبار وتحضير واستعداد. وقد عرفت هذه الحقبة باسم عهد القضاة.

الفصل
الثالث

مرحلة الحضارة

١ ـ عهد القضاة

ابتدأت هذه الحقبة مع عتنائيل (١٣٥٦ ـ ١٣١٦) وانتهت مع صموئيل (١٠٧٩ ـ ١٠٥٠). حقبة دامت ثلاثة قرون تولى قيادة بني إسرائيل خلالها رجال اختارهم يهوه ليكونوا في الوقت نفسه أنبياء وقضاة ومنقذين للشعب المختار من الأخطار الخارجية، لا سيما من الحروب. إن الأخبار الواردة في العهد القديم تعزو تلك الحروب إلى أطماع الشعوب المجاورة أو إلى غزوات الممالك الكبيرة الآسيوية والإفريقية.

ومع الوقت أخذت إسرائيل تقوى شيئاً فشيئاً حتى أن الكنعانيين أصبحوا تابعين لها. وبما أنهم كانوا يدفعون الجزية فإن إسرائيل لم تتخل عنهم نهائياً:

«وكان لما تشدّد إسرائيل أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية ولم يطردهم طرداً».

[قضاة ١/٢٨]

الذي حدث فيما بعد أن بني إسرائيل أقاموا رابطة مع الكنعانيين، فخبا نور الإيمان في قلوبهم وتقلصت حماستهم الدينية، فتقاعسوا عن الالتزام بشروط العهد الذي على أساسه منحهم تلك الأرض وساعدهم في الاستيلاء عليها.

في الأدب التوراتي، لا يتخلى يهوه عن شعبه حتى في أشد حالات العصيان وأسوأ نزعات الكفر والضلال، لأن فئة مؤمنة، صادقة وورعة، تبقى على اتصال دائم بالرب وعلى وفاء تام للعهد. فمن وقت إلى آخر يرسل الرب إلى بني إسرائيل رجالاً أتقياء شجعاناً وأوفياء يخرجون الشعب من طريق الضلال الذي انحدر إليه بسبب انغماسه في تقليد خرافات الشعوب المجاورة واتباع بعض طقوسهم الوثنية:

«وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت. فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب وكما أقسم الرب لهم. فضاق بهم الأمر جداً. وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم».

[قضاة ٢/ ١١ ـ ١٦]

وكان كلما مات مخلص أو مصلح من القضاة، يشرد الشعب من جديد ويعود إلى سابق عهده في الانحراف والميل نحو الضلال ونسيان يهوه نسياناً تاماً. منذ ذلك العهد الغابر تكرست الدائرة الجهنمية التي صار الشعب اليهودي أسيراً لكرِّها وفرِّها، يدور في داخلها من دون أن يستطيع الخروج منها. مراحل أربع تتقاسم تلك الدائرة:

١ ـ عهد وميثاق.
٢ ـ كفر وضلال.
٣ ـ عقاب وتوبة.
٤ ـ غفران وخلاص.

إن حالات الضعف التي كانت تسيطر على إسرائيل كانت تنشأ حسب العهد القديم عن التنافس بين القبائل اليهودية نفسها اوعن اضمحلال الوحدة القومية الناشىء عن إدخال عبادة البعل أو عن التفكك الأخلاقي والجشع المادي.

إن تغيير نمط الحياة من البداوة البدائية إلى التوطن الحضاري لم يكن أمراً سهل المنال. فقد انقلبت مقاييس التعامل، وأصيبت معايير الدفاع بالخلل. وحدث مرة أن تدهور الوضع في إسرائيل ومضت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ مدة عشرين سنة:

«وناح كل بيت إسرائيل وراء الرب. وكلّم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلاً إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين».

[صموئيل الأول ٧/ ٣ ـ ٤]

فتاب الشعب واستغفر وتمكن من إنزال هزيمة فادحة بالفلسطينيين لأن الرب عاد ليحارب إلى جانب شعبه المختار.

وحين شاخ صموئيل ولي أولاده قضاةً على بني إسرائيل، لكنهم فسقوا وحكموا بالظلم والجور. فاجتمع شيوخ بني إسرائيل وشكوا أمرهم إلى صموئيل قائلين:

«هو ذا أنت قد شخت وإبناك لم يسيرا في طريقك. فالآن إجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب».

[صموئيل الأول ٨/ ٥ ـ ٦]

سبق وذكرنا أن بني إسرائيل ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا شعباً مختلفاً عن باقي الشعوب، شعباً ذا رسالة دينية بحق تحتم عليه أن يكون محكوماً من الرب، الرب وحده فقط، فلا حكومات، ولا ملوك، ولا قصور، ولا تيجان. فالمطلب إذن الذي تقدم به شيوخ بني إسرائيل إلى صموئيل «بأن يجعل لهم ملكاً يقضي لهم كسائر الشعوب» لهو انعطاف جديد في تاريخ هذا الشعب. لقد رضي سابقاً أن تكون حياته مختلفة عن حياة سائر الشعوب،

لكن منذ ذلك التاريخ وهو يضمر تلك الازدواجية التي انعكست في المآسي العديدة التي حلت به، إذ أنه كان يتوق دائماً إلى تقليد الآخرين. وبسبب هذه الازدواجية تضاءلت أبعاد رسالته الدينية وتقلصت أهمية عهده مع الرب. وحين تعجب صموئيل من مطلب الشيوخ، تكلم مع الرب الذي هدّأ من روعه وقال له بمرارة:

«لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى هكذا هم عاملون بك أيضاً. فالآن إسمع لصوتهم ولكن أشهدت عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم».

[صموئيل الأول ٨/ ٧ ـ ٩]

أطاع صموئيل كلام الرب وبيّن للشعب ماذا سيفرض عليه الملك إذا أراد أن يولي عليه ملكاً كما طلب الشيوخ. فالملك يفرض قوانين عسكرية ومدنية ومادية تُحوّل الشعب إلى شبه مجموعة من الرقيق. وتنبأ صموئيل بأن الشعب سوف يضيق يوماً ذرعاً بالملك، وحذره قائلاً:

«فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم، فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم».

[صموئيل الأول ٨/ ١٨]

لكن الشعب، كعادته حين يكابر، لم يمتثل لنصائح صموئيل وتحذيراته، فتابع قائلاً:

«لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب. ويقضي لنا ملكاً ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا».

[صموئيل الأول ٨/ ١٩]

فمنذ سيناء وعهد موسى، والشعب الإسرائيلي غارق حتى أذنيه في نقض العهد الذي قطعه على نفسه أمام الرب بأن يكون شعبه الخاص المختلف عن سائر الشعوب والأقوام. ها هو الآن يشرع، على غرار الأمم المجاورة في انشاء مملكة خاصة به يحكمه فيها ملك إنسان، لا يهوه نفسه.

٢ ـ الملكية

شاول

«شاول شاب حسن ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب».

[صموئيل الأول ٩/٢]

شاول من قبيلة بنيامين. ولايته امتدت من عام /١٠٥٠/ حتى /١٠١١/ ق.م. حكمه الشعبي المدعوم من الأغلبية العظمى ساعده على إتباع سياسة خارجية حازمة أقحمته في العديد من الحملات الحربية على الأمم المجاورة خرج منتصراً من معظمها. أما على الصعيد الديني فقد أعاد إلى شريعة موسى مركزها المرموق وحرص على تطبيق تعاليمها بدقة وحزم.

ولكن حين اندلعت الحرب بين ملك عماليق وشاول سنحت الفرصة عندئذٍ لصموئيل ـ الذي كان قد تنازل عن سلطته السياسية وليس عن مكانته الدينية ـ كي يجبر شاول على التنازل عن الملك ويخلعه عن عرشه بسبب تقاعسه، إذ:

«كان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمتُ على أني قد جعلتُ شاول ملكاً لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله».

[صموئيل الأول ١٥/١٠]

ولكن شاول دافع عن نفسه قائلاً:

«إني قد سمعت لصوت الرب وذهبت في الطريق التي أرسلني فيها الرب وأثبت بأجاج ملك عماليق وحرّمت عماليق. فأخذ الشعب من الغنيمة غنماً وبقراً أوائل الحرام لأجل الذبح للرب إلهك في الجلجال».

[صموئيل الأول ١٥/٢٠]

إلا أن جواب صموئيل كان واضحاً وحاسماً:

«هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب. هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من شحم

الكباش. لأن التمرد كخطية العرافة والعناد كالوثن والتراخيم. لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك».

[صموئيل الأول ١٥/ ٢٢]

هذا الصراع بين سلطة الملك السياسية من ناحية ونفوذ النبي من ناحية أخرى كان هو الأساس في العديد من الأزمات التي احتدمت فيما بعد في إسرائيل والتي نجم عنها زوال الملكية.

فبعد أن انهار التوازن بين الروحي والزمني ورجحت كفة الأول على حساب التالي، أعلن صموئيل، كما رأينا، خلع شاول. وبفضل إلهام من السماء مسح داوود ملكاً.

داوود

«وكان (داوود) أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال الرب قم إمسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته. وحل روح الرب على داوود من ذلك اليوم فصاعداً».

[صموئيل الأول ١٦/ ١٢-١٣]

كان داوود من الشخصيات المألوفة في البلاط الملكي. ففضلاً عن كونه صهر الملك ومؤنس جلساته بالعزف على القيثارة، فقد كان أيضاً الضابط المرموق الذي ملأت انتصاراته الآذان وتناقلتها الألسن والشفاه. وحين أحسّ شاول أن داوود يظهر كمنافس خطير له وتوقع أن يكون مزاحماً كبيراً له على السلطة، قرر التخلص منه، فحكم عليه بالإعدام. لكن داوود كان يتوقع مثل هذا الحكم، فهرب وقضى وقتاً في المنفى هائماً على وجهه، ومن ثمّ تزعّم بعض المؤيدين له وقام ببعض النشاطات الدبلوماسية والعسكرية ليسهل عودته من ناحية وليؤمن وصوله إلى السلطة من ناحية أخرى.

العهد القديم يروي بإسهاب الصداقة الحميمة والغريبة التي جمعت ما بين داوود وبين جوناثان ولي العهد الملكي، لا سيما وأن هذا الأخير قد كشف عن كل ما في نفسه من كرم ونبل حين رضي أن ينسحب من تحت

الأضواء ليفسح المجال أمام صديقه في التقدم نحو السلطة، وبعد وقت قصير، لقي جوناثان مصرعه وكذلك والده وإخوته في معركة ضد الفلسطينيين.

في عام ١٠١١ حل داوود في مدينة الخليل كملك على قبيلة يهوذا، فيما اعتلى إيشبوشت، الابن الرابع لشاول، عرش والده. وكان هذا هو بدء الانقسام بين أسباط بني إسرائيل. بعد سبع سنوات مات إيشبوشت فتولى داوود الحكم على قبائل بني اسرائيل كافةً:

«كان داوود ابن ثلاثين سنة حين ملَك وملك أربعين سنة. في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا».

[صموئيل الثاني ٥/ ٤]

في عهد داوود أصبحت اسرائيل امبراطورية يحسب لها حساب في منطقة الشرق الأوسط. ويعتقد اليهود أن إنشاء مملكة داوود ما هو إلا تحقيق لوعد قطعة الرب لإبراهيم وهم يعتقدون أيضاً حسب العهد القديم أن حدود المملكة كانت تمتد من ضفاف الفرات شمالاً إلى البحر الأحمر جنوباً شرقاً، أي أن الدولة العبرية كانت تتاخم مباشرة مصر وبابل.

والسؤال الآن، كيف توصل داوود إلى إرساء قواعد مملكته الشاسعة؟.

في بادىء الأمر قضى قضاءً مبرماً على الكنعانيين، ثم أخضع الفلسطينيين ومن ثم غزا الشعوب المجاورة: المؤابيين والعمونيين والأروميين.

«وكان داوود يتزايد متعظماً والرب إله الجنود معه».

[صموئيل الثاني ٥/ ١٠]

وأخيراً وقع معاهدة مع الفينيقيين:

«فأرسل حيرام ملك صور رسلاً إلى داوود وخشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداوود بيتاً».

[صموئيل الثاني ٥/ ١١]

وبفضل شواطئها الممتدة على ساحل البحر الأبيض وبفضل اتصالها بالبحر الأحمر أيضاً تمكنت الدولة العبرية من مراقبة القوافل الذاهبة من وإلى مصر وبابل، وهذا ما ساعدها على تحقيق ازدهار كبير.

إن وصول داوود إلى السلطة ونجاحه في إدارة كفة الحكم لم تكن وليدة الصدفة، بل ثمرة تجارب روحية وحكمة سياسية ومهارة عسكرية دأب أحفاد إسحق على الاستعداد لها منذ عهد بداوتهم الأولى.

عكف داوود على تنظيم شؤون مملكته، فاعتنى بتنمية قوتها العسكرية عن طريق تشكيل جيش نظامي مجهز بالعربات. وقد استغل مركز دولته الجغرافي المشرف على شؤون التبادل التجاري، فنشّط اقتصاد مملكته وركّز أسسه على دعائم متينة. ولم يكن يتقهقر أمام تنفيذ مشاريعه الإنمائية ولو كلفه ذلك استعباد الكنعانيين أو حتى اليهود أنفسهم. وفضلاً عن كل ذلك فقد كان متمسكاً بكونه رجلاً تقياً من المقربين من الرب، فأحضر تابوت العهد إلى القدس، وقبل أن يبني قصراً لنفسه، قرر بناء هيكل للرب. لقد صادفته عقبات كأداء أثناء حكمه، لكنه تمكن من اجتيازها بفضل كونه رجل إيمان وعمل في الوقت نفسه. مشاريعه، في معظمها، كانت مستوحاة من نزعتة الصوفية ومن ميوله الروحانية.

كان يشدد دائماً على كونه، أولاً وقبل كل شيء، خادماً للرب. وقد برهن على ذلك عندما امتنع عن الانتقام من مضطهده شاول، لأن هذا كان ممسوحاً فقط من الرب. ثم يأتي ندمه العميق حين لامه ناثان على تدبير مقتل زوج المرأة التي كان يحبها. فقد ندم وتاب واستغفر بإيمان عميق ينم عن عقيدة قوية ونفس طاهرة.

اشتهر داوود أيضاً بمزاميره التي تترجم حقاً مشاعر كل إنسان والتي ما زالت، منذ ٣٦ قرناً، تبعث في روح اليهودي نفحة من التقوى والخشوع. فهي تُبرز بشكل واضح ما كان يتمتع به داوود من غنى فكري ومن إقتناع راسخ بقوة الإيمان واعتقاد عميق بأن الاستسلام إلى إرادة الرب تتيح له، وحدها فقط، الفرصة للقيام على أكمل وجه بالمهمة الملقاة على عاتقه في

إدارة شؤون المملكة؛ هو، عبد الرب، المسؤول المباشر عن أمور الرعيّة. وقد توارث هذه الأفكار عمّن توالى على الحكم من بعده.

سليمان

في نهاية عهده، تنازل داوود عن الحكم لصالح ابنه بعد أن كان قد مُسح ونُودي به ملكاً، وقد بقي سليمان على العرش من عام ٩٧١ حتى عام ٩٣١ وتبع خطى والده وتقيد بنهجه القائم على التواضع وعلى الحكمة في التعامل مع الرعية.

«في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلاً وقال الله إسأل ماذا أعطيك. فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داوود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلبٍ معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه كهذا اليوم. والآن أيها الرب إلهي أنت ملكّت عبدك مكان داوود أبي وأنا فتىً صغير لا أعلم الخروج والدخول. وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة. فاعطِ عبدك قلباً فهيماً لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا. فحُسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر. فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياماً كثيرة ولا سألت لنفسك غنىً ولا سألت أنفُس أعدائك بل سألت لنفسك تمييزاً لتفهم الحكم هوذا قد فعلتُ حسب كلامك. هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك. وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله غنىً وكرامة حتى أنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك. فإن سلكت طريقي وحفظت فرائضي ووصاي كما سلك داوود أبوك فإني أطيل أيامك. فاستيقظ سليمان وإذا هو حلم وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرب ذبائح سلامةٍ وعمل وليمة لكل عبيده».

[الملوك الأول ٣/ ٥ ـ ١٥]

لقد أنعم الله على سليمان بالحكمة بما لم يعرف التاريخ مثيلاً له. فالقصة المشهورة التي حكم فيها بقطع الفتى نصفين بين المرأتين المختلفتين على أمومته أظهرت الأم الحقيقية للطفل وجرت مجرى الأمثال على حكمة النبي سليمان. وفضلاً عن الحكمة فقد أنعم الله عليه بالقدرة والسلطة والغنى والمجد. أما نقطة الضعف في سلوكه فقد نشأت عن علاقته الوطيدة مع الأمم الوثنية المجاورة له وعن زواجه من نساء وثنيات أدخلن إلى القصر عاداتهن الوثنية ومن ثمّ دفعن بسليمان خارج الصراط المستقيم.

ومن الناحية السياسية، جدد سليمان معاهدة الصداقة التي أبرمها والده داوود مع الفينيقيين، ولأول مرة بعد خروج العبرانيين من مصر، وطّد سليمان علاقته مع المصريين وكذلك مع الحثيين والبابليين. ثم أظهر كل ما لديه من بذخ حين عمد إلى تحسين قصره وتجميله ليصبح لائقاً لاستقبال ملكة سبأ. وفي عهده عرفت الأمة اليهودية ازدهاراً كبيراً جعلها في مقدمة أمم ذلك العصر.

بناء الهيكل

ثمّ، بفضل أهمية التجارة التي كانت تنطلق من فلسطين، وبفضل عائداتها الوفيرة التي كانت تغدقها على البلاد، راودت سليمان الرغبة بالتفوق على من سبقه من الحكام بإقامة القلاع والحصون وتشييد قصر فخم له، وكذلك بناء هيكل القدس الشهير. وبما أنه لجأ إلى استئجار اليد الغريبة لتنفيذ هذه الأعمال الشاقة، فقد أدّت هذه المشاريع الضخمة إلى أزمة اقتصادية خانقة حملت الشعب اليهودي على الامتعاض والتأفف.

إن القلاع والحصون كانت ضرورية للحفاظ على أمن البلاد. والقصر كان مهماً أيضاً لأنه يرفع من قيمة الأمة ويجعلها على رأس الأمم المجاورة من ناحية البناء والعمران والبذخ والترف. أما الهيكل الذي شُيّد وفق ما كان يتمناه داوود، فقد حمل شهرة القدس إلى أقاصي البقاع. وبالإجمال، فإن كل هذه الإنجازات ليست مطابقة لتعاليم الرب لأنها لا تخدم إلا مصلحة سليمان وحده، لذلك فإن الكارثة كانت مرتقبة ووشيكة الوقوع.

وبالإجمال، فقد عُرف عهد سلميان بالازدهار الثقافي حيث انتشرت فيه المزامير. وسليمان نفسه ألّف ما يُعرف بـ «نشيد الإنشاد»، تلك القصائد التي تصف أطهر وأعنف ما عرف عن الحب الإلهي. وهو الذي ألّف «الأمثال» التي أصبح بعضها شعبياً على كل شفة ولسان لأن من خلالها تظهر الحكمة التي اشتهر بها.

وفي خريف عمره كتب سليمان «أخبار الأيام» بجزئيه الأول والثاني حيث وضع كل تجارب حياته. وعلى الرغم من وجود مقاطع غامضة وجافة، فإن باقي الفصول هي خلاصة الثقافة الإنسانية بما تحويه من غنىً إنساني كبير يصلح لكل زمان ويهم كل إنسان.

نعم لقد تمسك سليمان بالحكمة، ولكن هذا السلوك أتى متأخراً فلم يمنع الكارثة من الوقوع. فالآراميون والآدوميون أخذوا يتململون ساعين للتخلص من الاحتلال الإسرائيلي. وزاد في الطين بلة أن الحالة الاقتصادية كانت آخذة بالتدهور، وضرائب الدولة بالارتفاع، وضغط النظام المصري بازدياد. كل هذا دفع سليمان للجوء إلى القوة، وبذلك أضحى ديكتاتوراً مستبداً.

إن بعض الدارسين والمهتمين بشؤون الدولة العبرية في ذلك العهد يعزون كل الصعاب التي تراكمت على الدولة الإسرائيلية في عهد سليمان إلى نهجه الثقافي والروحي. فقد تساهل في إتباع بعد الطقوس الوثنية في مملكته متغاضياً عن التقيد بالتعليمات والإرشادات التي كان قد قطع على نفسه الالتزام بها والسهر على تنفيذها وهو في أوج الشباب. هذا الموقف المائع حمل الشعب على التراخي والإهمال وعدم الاكتراث، فتسللت أصنام المؤابيين والعمونيين والمصريين إلى أورشليم أولاً ثم إلى القصر الملكي وأخيراً إلى الهيكل نفسه. وكانت النتيجة أن الأصنام التي حاربتها التوراة، عادت لتنتصب في أرفع مكان مقدس، في الهيكل، تحت سمع القصر الملكي وبصره، بل وبحمايته. عندئذٍ تدخل يهوه بصوت النبي أخيّا الشيلوني معلناً ليربعام عزمه على نزع الملك من يدي سليمان:

«هكذا قال الرب إله إسرائيل هاأنذا أُمزّق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط. ويكون سبط واحد من أجل عبدي داوود ومن أجل أورشليم المدينة التي من كل أسباط إسرائيل. لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت إلهة الصيدونيين ولكموش إله المؤابيين ولملكوم إله بني عمّون ولم يسلكوا في طُرُقي ليعملوا المستقيم في عينيّ وفرائضي وأحكامي كداوود أبيه».

[الملوك الأول ١١/ ٣١-٣٤]

وفاة سليمان وتفكك الدولة الإسرائيلية

بعد أربعين عاماً من الولاية توفي سليمان فخلفه ابنه رَحبْعام، فكانت فرصة انتهزها الشعب ليطالب بالإصلاح، ولكن جواب الملك كان قاسياً وظالماً. عندئذ ثارت قبائل بني إسرائيل، ففرّ الملك إلى أورشليم. وهكذا انفصلت إسرائيل بقبائلها العشرة عن بيت داوود والتفّت في الشمال حول يربعام:

«فبادر الملك رَحُبْعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم. فعصى إسرائيل على بيت داوود إلى هذا اليوم ولما سمع جميع إسرائيل بأن رَحُبْعَام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل. لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده».

[الملوك الأول ١٢/ ١٩-٢٠]

وعلى أثر الضعف الذي لحق بالملكية وبسبب الانهيار الذي أتى على وحدتها، ثارت الشعوب التي كان قد أخضعها داوود وسليمان وانتزعت استقلالها بالقوة. إسرائيل الكبرى لم تدم إلا بضع عشرات من السنوات أي أن عمرها كان أقل من قرن واحد. والذي حدث بعد ذلك أن تقهقر الاقتصاد في المملكتين ـ اسرائيل ويهودية ـ ونشبت بينهما النزاعات السياسية مما أدى إلى تخلي قبائل الشمال نهائياً عن القدس كمركز ديني بعد أن بنوا معابد خاصة بهم في بيت أيل وفي دان. ومع مرور الوقت أخذت العلاقات تتأزم بين المملكتين الشقيقتين مهددة بنشوب حرب طاحنة بينهما. يَربُعام أعلن الاستنفار العام لغزو الشمال، رَحْبُعَام فعَلَ بالمثل. الحدود بين المملكتين

شهدت حشوداً ضخمة فيما كان الملكان الشقيقان يتسابقان لتوقيع معاهدة صداقة ودفاع مشترك مع بعض الدول المجاورة كي يضمن كل منهما فوزه بالحرب حين تندلع.

خلال هذه الفترة كان يهوه، بواسطة الأنبياء يلح على شعبه المختار كي يتذكر العهد الذي قطعه على نفسه بالتقيد والالتزام بالعهود القديمة. لا تثقوا بالقوى الإنسانية، قال لهم مراراً، وشدّد على عدم عقد الآمال الكبيرة على الارتباطات السياسية، وكرر أن لا خير في وضع كامل الثقة، إلا بالرب وحده، لأنه الوحيد القادر على حمايتهم.

لكن الإسرائيليين ركبوا رؤوسهم كما هي عادتهم. فكما كانوا في البدء يلحون، رغم نصائح الأنبياء لهم، على أن يكون لهم ملك خاص بهم كباقي الشعوب، كذلك هذه المرة تعنتوا وكابروا وتشبثوا في موقفهم المنادي بإعطاء الأهمية الأولى للمعاهدات السياسية وللتحالفات العسكرية مع شعوب المنطقة من النيل إلى الفرات.

في الشمال كانت مملكة اسرائيل (الصغرى) التي طغى فيها التأثير الفينيقي على كل شيء خصوصاً في ما يتعلق بالدين. فعبادة بعل وعشتروت والرقص والفجور وتقديم الذبائح البشرية للآلهة جرفت الشعب في تيار من الردة العميقة انقلب فيه على العقيدة بكاملها وشكك بالإيمان الموروث عن الأجداد. وفي غمرة من العنجهية والكبرياء أعلنت قبائل الشمال الحرب على اليهودية، مملكة الجنوب:

> «وسبى بنو إسرائيل من إخوتهم مئتي ألفٍ من النساء والبنات ونهبوا أيضاً منهم غنيمة وافرة وأتوا بالغنيمة إلى السامرة. وكان هناك نبيٌ للرب اسمه عوديد فخرج للقاء الجيش الآتي إلى السامرة وقال لهم هوذا من أجل غضب الرب إله آبائكم على يهوذا قد دفعهم ليدكم وقد قتلتموهم بغضب بلغ السماء».

[أخبار الأيام الثاني ٢٨/٨ ـ ١٠]

وتمكن النبي من الإفراج عن الأسرى وإعادة الأمور إلى نصابها.

ولكن حين رفضت إسرائيل دفع الجزية للأشوريين وسعت إلى عقد صلح مع المصريين، هاجمها شلمنصّر وأخذ الجزية عنوة، وفي عام ٧٢٢ ق.م غزا سرجون الثاني السامرة وسباها وقاد أهاليها أسرى إلى بلاد أشور وأقام مكانهم قبائل من بابل ومن الآراميين.

أما في أورشليم عاصمة اليهودية، مملكة الجنوب، فقد توالى على العرش أحفاد داوود وكان من بينهم الملك الصالح الذي يتقيد بالتعاليم أو الملك الفاسق الذي يقترف كل أنواع الشرور. أما الشعب فقد كان يتأرجح ما بين الإيمان والتقوى والالتزام بالمبادىء الدينية من ناحية وبين الكفر والضلال والردة على التعاليم والجري في إثر الشعوب الوثنية وتقليد طقوسها إلى أن جاء الملك حزقيا (٧٢٩ ـ ٦٨٦ ق.م) فثار ضدكل ما هو منافٍ للإيمان.

«فأزال المرتفعات وكسّر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس».

[الملوك الثاني ١٨/ ٤]

حزقيا

في عهد هذا الملك تطوع بعض المطلعين على أمور الدين بجمع النصوص المقدسة وترتيبها وتدوينها. ومنذ ذلك الحين بدأت أجزاء العهد القديم تأخذ مواضعها ضمن كتاب مقدس على الشكل الذي نعرفه الآن، وكان ذلك في القرن السابع ق.م بإشراف النبي يوشيّا (٧٢٦ ـ ٦٠٩).

لكن هذه الفترة من النفحة الدينية والاستقامة لم تدم طويلاً. فما أن تولّى منسّى الحكم بعد وفاة والده حزقيا حتى عادت عبادة بعل وعشتروت تظهر في أورشليم من جديد:

«سفك أيضاً منسّى دماً بريأ كثيراً جداً حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب فضلاً عن خطيته التي جعل بها يهوذا يخطىء بعمل الشر في عيني الرب».

[الملوك الثاني ٢١/١٦]

لقد شهدت هذه الحقبة من النظام الملكي في الحقيقة، صراعاً دائماً بين السلطة المدنية من ناحية والسلطة الدينية من ناحية أخرى. فالملوك كانوا يتصرفون وفق سلوك سياسي خاص يجهل، أو يتجاهل كل ما هو أخلاقي أو وجداني، بينما كان رجال الدين يلعبون دور الحرس المسؤولين عن تنقية الطقوس وتطهيرها من الشوائب المبتذلة كافةً، كعبادة بعل مثلاً، ويجسدون في الوقت نفسه المقاومة العنيفة ضد كل ما من شأنه تشجيع هذا الشعب على الانصهار. فنتج عن ذلك إصرارهم على بلورة الطقوس وتشديدهم في أمر تطبيقها، وهذا ما يُفسر عدد الأنبياء المرتفع وملازمتهم لهذا الشعب مع حرصهم بالتركيز على السلوك قبل الأخلاق وعلى حرفية النص قبل الالتزام بروحه.

٣ ـ سقوط مدينة القدس وبداية عصر الأنبياء

انتهى العهد الملكي في عام ٥٨٦ بسقوط مدينة القدس بين يدي نبوخذنصر، وقد تخلله ظهور عدد من الأنبياء لعبوا دوراً مهماً في وضع الأسس المتينة للدين اليهودي ورسموا بدقة حدود العنصر الإسرائيلي والخطوط العريضة التي حددت فيما بعد نشاطات كل من ينتمي إلى هذا العنصر. عندما سقطت أورشليم كان اليهودي:

١ ـ يتقيد بسلوك نابع من اعتقاد راسخ بأن الفرد هو جزء من المجتمع اليهودي الكبير مهما كانت المسافات نائية بين الأفراد ومهما كان نوع الأنظمة السياسية التي كان يعيش فيها.

٢ ـ يؤمن بانتمائه إلى شعب هو شعب الله المختار، الخاص والمفضل على سائر الشعوب، وقد أجرى الرب معه عهوداً، ومنها أنه لن يتخلى عنه حتى في أحلك الظروف، ومنها أيضاً أنه قد خصصه بأرض في بلاد كنعان.

٣ ـ يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن بقية الأمم لن تتعرف إلى الله إلا عن طريق شعبه المختار. وكل ما يجري خارج هذا النطاق هو بمجمله كذب وتدجيل وهرطقة ونفاق وانتهازية.

لم يتوصل أنبياء بني إسرائيل إلى هذه النتيجة التي صهرت العنصر اليهودي في بوتقة من الخصوصية المتعجرفة إلا بفعل الصبر والترديد والإلحاح. إن أهمية تلك الحقبة التاريخية التي شهدت سلسلة طويلة من الأنبياء تكمن في إقدام كل نبي على تبني ما نادى به سلفه، ثم على تكراره وترديده بحماسةٍ وصدق غير عابىء بموقف الشعب، سلبياً كان أم إيجابياً. وكأن تفاهماً مسبقاً قد حدث بين الأنبياء خلاصته أن العنصر اليهودي، بسبب عناده، وصلابة رقبته، وصعوبة مراسه، لن يقتنع بوجود الله ولن يتقيد بتعاليمه عن طريق إرشادات ونصائح نبي واحد، لذلك يلزمه، قبل الوصول إلى النتيجة المتوخاة، أنبياء عديدون، يرددون ويعيدون ويكررون. فما من سبيل إلى لوي الحديد إلا بطرقه مراراً، وبالقوّة نفسها، وفي ذات المكان. والغريب في أمر هذا الشعب أنه كان يجري وراء تقليد الشعوب المجاورة بسرعة أكبر من تلك التي يُقبل فيها على إتباع أقوال أنبيائه. ففي أكثر الأحيان كان يستعير تعاليمه الأخلاقية، الحسنة منها والرديئة، من الشعوب المجاورة. وقد بلغ به المكر جداً أنه كان ينسب إلى نفسه إيجاد المبادىء التي تُظهر الأيام حسنها وتؤكد التجارب صدقها، فيما كان يعزو إلى الشعوب الأخرى التمرغ بالمبادىء المضادة.

وعندما اختمرت تلك التعاليم في نفس الشعب الإسرائيلي على طول حقبة امتدت نحو خمسة قرون (٩٣١ ـ ٥٨٦)، توصل أخيراً إلى مرحلة أضحى فيها التمسك بسلوك اجتماعي واحد، والعمل ضمن نطاق محدود في سبيل الحفاظ على المكتسبات وتأمين بقائها في الحاضر واستمرار التعامل بموجبها في المستقبل، جزءاً لا يتجزأ من التفكير ومن الكيان اليهودي. فلم يعد اليهودي يأكل ويشرب ويصلي ويفكر يهودياً فحسب، بل أصبح يتمتع بغريزة يهودية، وبردة فعل يهودية، وبأحاسيس يهودية جعلته يعمل تلقائياً لمصلحة الأمة مهما كان المكان الذي يعيش فيه، ومهما كانت الأساليب المتوفرة لديه. بالاختصار إن اليهودي أصبح تعبيراً لبرنامج وراثي قائم على خدمة الأمة اليهودية من خلال معتقدات ثابتة يأتي على رأسها:

١ ـ الخصوصية الدينية.

٢ ـ التفوق العنصري.
٣ ـ أزلية العهد.
٤ ـ ألوهية التوراة.
٥ ـ قدسية الهيكل.
٦ ـ الانفراد عن باقي الشعوب بالتمتع بالحقيقة المطلقة.

ومع كل هذا فقد ظل اليهودي يشك ويتردد وينقلب ويرتد ويعصي ويضل ويتمرد ويكفر. ففي إحدى مراحل التأرجح بين الإيمان بالله والكفر به حلت لعنة الرب على هذا الشعب الذي لا يستكين ولا يتقيد بقول ولا يحترم عهداً، فوقعت أورشليم في أيدي البابليين وكان الدرس بليغاً والكارثة فادحة:

«أنتم رأيتم كل الشر الذي جلبتُه على أورشليم، وعلى كل مدن يهوذا. فها هي خربة هذا اليوم وليس فيها ساكن من أجل شرّهم الذي فعلوه ليغيظوني إذ ذهبوا ليبخروا ويعبدوا آلهة أخرى لم يعرفوها هم ولا أنتم ولا آباؤكم. فأرسلت إليكم كل عبيدي الأنبياء مبكراً ومرسلاً قائلاً لا تفعلوا أمر هذا الرجس الذي أبغضته. فلم يسمعوا ولا أمالوا أذنهم ليرجعوا عن شرهم فلا يبخروا لآلهة أخرى. فانسكب غيظي وغضبي واشتعلا في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم فصارت خربة مقفرة كهذا اليوم».

[إرميا ٤٤/ ٢ ـ ٦]

التشرد والسبي

وبعد أن كان بنو اسرائيل في مقدمة الشعوب وأورشليم من أشهر المدن، تشتت شملهم وذاقوا طعم الذل والهوان عند باقي الشعوب الوثنية. فقسم منهم لجأ إلى مصر وبصحبتهم النبي إرميا، والقسم الأكبر منهم سبي وقيد أسيراً إلى بابل وعلى رأسهم النبي دانيال. أما الأقلية الضئيلة فقد بقيت في اليهودية تعيش عيشة بؤس وحرمان وذل وهوان. هذه المعاناة كانت تحمل في طياتها هدفاً يرمي إلى كسر شكيمة هذا الشعب المتمرد وحمله على اعتناق الايمان الصادق والصحيح. إن الله لا ينسى شعبه المختار لن يتخلى عنه:

«اسمعوا كلمة الرب أيها الأمم واخبروا في الجزائر البعيدة وقولوا: مبدد إسرائيل يجمعه ويحرسه كراع قطيعه».

[إرميا ٣١/ ١٠]

المهم أن يلقنه، من آن لآخر، درساً قاسياً ولكن بليغاً بالايمان:

«لأنه هكذا قال الرب. إني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهّدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع. لأني عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الرب أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرةً ورجاء. فتدعونني وتذهبون وتصلون إلي فأسمع لكم. وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبوني بكل قلبكم. فأُجد لكم يقول الرب وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها يقول الرب وأردكم إلى الموضع الذي سبيتكم منه».

[إرميا ٢٩/ ١٠-١٣]

ففي عام ٥٣٩ يغزو سيروس ملك الفرس بابل، وفي السنة التالية يصدر أوامره بإعادة بناء الهيكل الذي كان قد تهدم. انتهز خمسون ألفاً من اليهود هذه الفرصة ليعودوا إلى بلادهم، بينما فضل البعض البقاء على العودة إلى مدن خربة ينعق فيها البوم منذ أكثر من نصف قرن.

احتدم النزاع من جديد بين العائدين والمقيمين، سواء كان بسبب السيطرة على الأراضي أو من أجل الوصول إلى السلطة. والذي زاد الأمور تعقيداً هو أن بعض العائدين قد تركوا زوجاتهم في بلاد فارس واتخذوا لأنفسهم زوجات وثنيات من أرض فلسطين نفسها، مما هيّأ عودة عبادة الأوثان من جديد. هذا الانحراف، وهذه الردّة، وهذا الضلال لم تحل دون إعادة بناء الهيكل وتوفير كل ما كان يلزمه من زينة وأثاث. ومع إطلالة القرن الخامس قبل الميلاد، كانت اليهودية مقاطعة من الامبراطورية الفارسية وكان قد عاد إليها طابعها اليهودي ومكانتها الدينية. إلا أن الازدهار المرحلي لم يمنع الكاهن عزرا من جمع الشعب وتحذيره قائلاً:

«إنكم قد خنتم واتخذتم نساءً غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل.

فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته، وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة».

[عزرا ١٠/ ١٠-١١]

المد والجزر بين الإيمان الصادق وبين العمل الآثم عاد من جديد يمزق وحدة الشعب اليهودي. فمن ناحية كان هناك المؤمن المتشدد، ومن ناحية أخرى كان الكافر الضال. وقد استفحل استغلال البعض للبعض الآخر مما حمل الشعب على القول بلسان النبي نحميا:

«وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيماً على إخوتهم اليهود. وكان من يقول بنونا وبناتنا نحن كثيرون. دعنا نأخذ قمحاً فنأكل ونحيا. وكان من يقول حقولنا وكرومنا وبيوتنا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحاً في الجوع. وكان من يقول قد استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا وكرومنا. والآن لحمنا كلحم إخوتنا وبنونا كبنيهم وها نحن نخضع بنينا وبناتنا عبيداً ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيء في طاقة يدنا وحقولنا وكرومنا للآخرين».

[نحميا ١/٥ ـ ٥]

وفي عام / ٣٣٢/ يغزو الاسكندر الكبير الشرق تواكبه أفكار جديدة من الفلسفة اليونانية التي طبعت المنطقة بطابعها قروناً عدة. وعلى الرغم من وقوع المنطقة نفسها تحت الحكم الروماني، فإن التأثير اليوناني الحضاري والثقافي والديني ظل واضحاً حتى بعد مجيء المسيح.

٤ ـ الخلاصة

لقد رافقنا في الصفحات السابقة تاريخ نشوء التيار العبري منذ فجر ولادته في عام ١٨٠٠ ق.م. حين خرج إبراهيم من أور متوجهاً إلى أرض كنعان، إلى أن بلغ القمة في عهد الملك سليمان ثم بدأ ينحدر ويضمحل في عهد الإغريق في عام ٣٣٣ تقريباً ق.م.

معلوماتنا استقيناها بمجملها من كتاب العهد القديم، كتاب اليهود المقدس؛ ولم نتوقف في بحثنا إلا عند الأحداث المهمة التي أثّرت في نفسية

الشعب العبري وطبعته بطابعها الخاص. إن العهد القديم كتاب دوِّن بعناية فائقة، فهو يترك القارىء يعيش اللحظات الحميمة من حياة أبطاله ويوحي إليه بأنه ينقل له بأمانة وصدق أدق التفاصيل التي منها تتألف حياة أفراد العشيرة. إنه يتقاسم مع القارىء حيرة ابراهيم بين ابنه البكر اسماعيل وابنه الشرعي إسحق، يتركه يرى سارة تغار من هاجر ويريه الجارية تنتحب في الصحراء وهي حامل. ثم تنتقل الأحداث إلى إسحق ثم إلى يعقوب وأخيراً إلى كوكبة من الأنبياء مروراً بالقضاة وبالملوك وغيرهم من القادة والحاخامات. كل هذه الأحداث وما رافقها من كر وفر ومن سعادة وبؤس ومن حرب وسلام ومن غدر وخيانة ومن مكر واغتصاب ومن شراسة وعدوان ومن كفر وإيمان تتفاعل وتبرز في واجهة الوقائع فيما يربض في خلفية الصراع أمران مهمان: الأرض الموعودة، وشعب الله المختار. والذي يحدث أن القارىء يرى نفسه مشدوداً يعيش مع هذه الجماعة، فيشعر بشعورها ويتحسس مشاكلها. وينتهي به الأمر بمنح عواطفه لهذا الشعب. إن قراءة العهد القديم وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها الصهيونيون في سبيل ابتزاز مشاعر الناس والتغرير بعواطفهم على طريقة أفلام الكاوبوي الأميركية. فمع أن الرجل الأبيض هو المعتدي على الهندي الأحمر، فإنك تجد نفسك تصفق للأول عندما يقتل الثاني. ونحن بدورنا فقد تركنا الأحداث تتتابع حسب نظرة اليهودي المؤمن بها ولم نتدخل للتعليق إلا متى اقتضت الضرورة.

على مدى ثمانية عشر قرناً نمت وتطورت وتشعبت العشيرة الصغيرة لتصبح إثني عشر سبطاً، كل سبط مؤلف من قبائل عدة. فمن مجموعة من البدو الرحل انبثقت قوة أرست قواعد نظام ملكي دام زهاء سبعين عاماً. وقد أظهرنا خلال دراستنا هذه التطور البطيء الذي رافق أحلام هؤلاء القوم والمراحل التي مروا بها قبل أن يصلوا إلى هدفهم المنشود. لا شك أن الدافع الميثولوجي قد لعب دوراً كبيراً في الحفاظ على استمرارية الزخم النفسي وعلى وضوح الرؤية المستقبلية، التي حرص القائمون على قيادة هذا القوم، بالتخطيط لها والتدقيق بتنفيذها ضمن عمل متواصل ومستمر لم

يوفروا عنه طاقة ولم يبخلوا عليه بعناية ورعاية وسهر وكد واجتهاد وصبر وطول أناة ومثابرة ويقظة وجدارة. نقول جدارة لأن هذا القوم، بترحاله بين أقوام مختلفة، وباحتكاكه بحضارات عديدة، اكتسب خبرة واسعة وحصل على معلومات كثيرة سواء بما يتعلق منها بتقنية الدفاع ضد الغزاة، أو بما هو في أساس تنظيم المجتمع وإدارته. فمن البدهي أن تكون الشعوب الرحل من بين تلك التي تتمتع بمستوى عالٍ من الخبرة والاطلاع بفضل احتكاكها بثقافات متعددة وبحضاراتٍ متنوعة. فالفينيقيون مثلاً اكتسبوا تلك القدرة على الانفتاح بفضل أسفارهم المتواصلة عبر البحار. اليهود بدورهم أيضاً، قاموا بسفر طويل عبر أراضٍ كانت تقيم فيها شعوب كثيرة واحتكوا بثقافات مزدهرة وبممالك قوية: فمن الكلدان إلى البابليين ومن هؤلاء إلى الكنعانيين ومن ثمَّ إلى المصريين... الخ. ولا بد أيضاً من التمييز بين بداوة محدودة الأفق تتنقل عبر مساحة محدودة من الأرض، كالبداوة في الصحارى مثلاً، وبين تلك التي تجوب أراضي أوسع وتحتك بأقوام أكثر عدداً وتتوغل في آفاق أبعد.

ومن يتتبع عن كثب مختلف مراحل التطور التي مرت بها هذه العشيرة السامية فإنه يلاحظ ان في مرحلة بداوتها الأولى، أي في عهود المؤسسين الأوائل إبراهيم وإسحق ويعقوب، كان العثور على الأرض وتحديد تخومها هو هاجسها الكبير. وهذا الذي حدث فعلاً في تلك الحقبة. لكن الشعب نفسه، الذي فطر على حياة البداوة، واعتاد على نظمها، لم يكن مؤهلاً لا من حيث العدد ولا من حيث النفسية على الدخول في مغامرة حضارية لم يكن مؤكداً، إدراكُ نجاحها. كان في مؤخرة شعوب تلك المنطقة من حيث التمدن والقدرة على النمو. فالإقامة في مصر كانت إذن ضرورية لسببين: الأول: كي يتكاثر العدد ويصبح قادراً على الوقوف في وجه الشعوب الأخرى، والثاني كي يكتسب الشعب الخبرة اللازمة التي تمده بالقدرة على العيش ضمن مساحة محدودة من الأرض ووفق أنظمة جديدة تتباين وأنظمة البداوة. إن الإقامة في مصر بالذات كانت مفيدة جداً ليس لأنها هيأت العبرانيين لحياة نصف البداوة فقط، بل لأن مصر من الناحية الاستراتيجية

تقع على حدود الأرض التي منّى الشعب السامي نفسه بالحصول عليها. وهذا يجعله على بيّنة من أمره وعلى إطلاع كامل بما يجري هناك من أمور سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها.

وعندما أخرج موسى شعبه من مصر وتوغل معه في الصحراء أدرك أن الدخول إلى أرض كنعان قد يكون ممكناً، ولكن من الواضح أن البقاء فيها كان أصعب من الاستيلاء عليها، لأن الحفاظ على الأرض يتطلب نظاماً دقيقاً وحازماً، فكل الممالك المجاورة لها أنظمتها وقوانينها. موسى كان على اطلاع تام وعلى دراية كاملة بالنظام المصري وقوانينه ونظمه، فلِمَ لا يختصر الطريق ويعمد إلى تطبيقه في الدولة المرتقبة؟ كان موسى يعرف أن لكل نظام نقاط ضعف، وأن للنظام المصري مساوىء عديدة. ثم أن شعبه شعب متمرد، صعب المراس، عنيد، متقلب، فكان لا بد من إجباره على العيش في بوتقة من التجارب الصعبة والمفيدة وصهره في قالب نفسي مُميّز يتوخى غرس بعض الخصائص في وجدانه لحمله ليس على النجاح في الدخول إلى الأرض الموعودة فقط، بل تؤهله أيضاً للبقاء فيها والدفاع عنها. لذلك فإن التيه في الصحراء، بسنواته الأربعين، وما تخللها من أحداث ومفارقات، ومغامرات وبؤس وشقاء، وتفكير ومعاناة وتمرد وطاعة، وعصيان وتوبة، قضى على كل مساوىء الجيل الذي خرج من مصر وحضّر جيلاً جديداً خرج معه من الصحراء ومعهم الشريعة، الناموس. شريعة هي بمثابة الرابط الأساسي بين أفراد الأمة والضمان الرئيسي للحفاظ على الأرض والدفاع عنها.

إن نص الشريعة كما نعرفه الآن لم يُدوّن نهائياً إلا في القرن السابع ق.م. على يد يوشيا (Josias) (٧٢٦ ـ ٦٠٩ ق.م.) قيمتها الأساسية تنبع من كونها مُوصى بها من الرب إلى موسى على جبل الطور في سيناء. وهي بحد ذاتها حجر الزاوية الأهم الذي يرتكز عليه الدين اليهودي بكامله، لذلك يدعوه البعض الدين الموسوي، مؤكدين على الأهمية الكبرى التي يضطلع بها موسى في ترسيخ دعائم الدين. شريعة موسى بالنسبة لليهود هي كالقرآن بالنسبة للمسلمين، لا مجال لتغييرها أو لتبديلها، وكل مساس فيها من قريب

أو من بعيد يعتبر كفراً وإلحاداً، فهي فوق النقد وفوق التجريح. وقد نجمت الاختلافات الرئيسية بين المسيحية واليهودية عن قول المسيحية أن يسوع هو ابن الله، وهذا يعني أن المسيح فوق الشريعة وهو قول لا تقبل به اليهودية أبداً، لذلك امتنعت أورشليم عن السير وراء المسيح وكذلك وراء بولس فيما بعد.

إن تجلّي الله على بني إسرائيل فوق سفح جبل الطور هو المنطلق الذي تنبعث منه عنجهية اليهود وكبرياؤهم. فهم يدّعون أن صوت يهوه في سيناء لم يخاطب فرداً واحداً، بل تكلم مع الشعب بكامله، لأن إسرائيل هي الأمة التي اختارها الرب، دون سائر الأمم، ليحاورها ويخاطبها كأمة نبيّه، لا كأمة ظهر فيها بعض الأنبياء فقط. إن أسباب هذا الاختيار الإلهي واضحة، فكما أن الإرادة الإلهية قد خلقت في الطبيعة عناصر مختلفة صُنِّفت حسب الترتيب التصاعدي التالي: المعادن ـ النباتات ـ الحيوان ـ الإنسان، كذلك هو شأن العنصر البشري الذي جرى فيه التصنيف حسب درجات متفاوتة يأتي في مقدمتها العنصر الذي منحه الله مواهب خاصة به وأغدق عليه مزايا عديدة جعلته يتبوأ مركزاً سامياً، فوق ما دونه من البشر. إن الله خلق إسرائيل لتكون أمة مقدسة، أمة النبوة، أمة الشعب المختار. إن كل يهودي يملك، حسب اعتقاده، من القوة ما يجعله قادراً على تحقيق أسمى الإنجازات الدينية. إن الفكر اليهودي يؤمن بأن الإنسان خُلق ليكون «عاملاً مع الله» أي أنه يتمتع بنفوذ قيادي يتمكن بواسطته من تغيير مسيرة التاريخ وفرض ما يتناسب ومصلحة الإنسان. إلا أن هذه القدرة وغيرها من المواهب التي خصّ بها الله بني إسرائيل، تتأثر تأثراً بليغاً أولاً بالغذاء اليومي، وثانياً بالمحيط الذي يعيش فيه اليهودي. من هنا يتبلور دور التوراة وأهمية الشريعة التي تحدد ما يُسمح به لليهودي بتناوله من طعام. وتظهر أهمية الأرض الموعودة. فبفضل هواء هذه الأرض وبفضل ترابها أيضاً يتمكن اليهودي من السمو ومن بلوغ مراحل اللقاء مع الخالق والدخول في حوار معه. ثم إلى الطعام الذي سمحت به التوراة وإلى الخشوع الصادق الذي تؤمنه أجواء الأرض الموعودة، تضيف الشريعة اللغة العبرية، التي بفضل قواعدها وتراكيبها

وتعابيرها تتميز عن سائر اللغات، وتنفرد عنها جميعاً لتكون أداة التخاطب في رسالات الأنبياء كافةً. والخلاصة البديهية هي أن إسرائيل تحتل مكان الصدارة بين الأمم لا سيما وأن أهم النظريات الدينية وأحدث الاكتشافات العلمية وأدق المفاهيم الماورائية، أينما ظهرت وحيثما نشأت، هي في الحقيقة ثمار شجرة تمتد جذورها إلى إسرائيل. هذا هو الاعتقاد اليهودي الذي لا يقبل المناقشة.

حتى في أدق الأزمات الحاسمة التي مرّت بها إسرائيل فإن الشك لم يتسرب أبداً إلى نفس الشعب بما يتعلق بالشريعة وبأهميتها. ففي تشرذم الأمة اليهودية في أواسط القرن الماضي، ما بين مؤمن متعصب وبين يهودي متطور، حمل الفيلسوف اليهودي موسى مندلسن لواء التقدمية والتحرر، والإصلاح والتطور، وها هو يعلن مشدداً على دور الشريعة: «ليست اليهودية ديناً موصىً به، أعلن بصراحة، بل هي شريعة منزّلة من عند الرب». ثم يضيف موضحاً: «إن الصوت الإلهي الذي ترددت أصداؤه على جبل الطور أعطانا وصايا تحدد سلوكنا ولم يفرض علينا مبادىء تقودنا إلى الإيمان. إن هدف الشريعة هو الحفاظ على طائفة يهودية أصيلة، عرقها صافٍ، ووظيفتها تدريب سائر الأمم على السير في طريق الدين الصحيح».

فعندما تمّ تحقيق الهدف الأول، وهو الاستيلاء على أرض كنعان، كان الهدف الثاني تحصيل حاصل، ويتلخص بوضع شريعة تؤمن في الوقت نفسه نظام الدولة، وتربط الفرد ربطاً قوياً إلى تلك الأرض. فكان الناموس، أو شريعة موسى الشهيرة. ولكن اتضح فيما بعد أن موقع الأرض الجغرافي يعرضها لغزوات عديدة، فمعظم الفاتحين كانوا يمرون في تلك النقطة الاستراتيجية، همزة الوصل بين العالم المعروف في ذلك العهد: شواطىء البحر الأبيض المتوسط الممتدة على أطراف أوروبا وآسيا وأفريقيا. لذلك كان لا بد من إضافة رابط شديد يشد الفرد إلى أرضه في حالة تشريده عنها وتهجيره إلى بلاد نائية، فالشريعة وحدها غير كافية لربط الفرد بالأرض، تلك الأرض بالذات، لأن من الممكن حمل الشريعة ونقلها ومن ثم تطبيقها في مكان آخر أو في أصقاع نائية.

وتحت ضغط هذه الحاجة الضرورية، حدث في مرحلة من مراحل الاهتمام بتركيز السلطة وحصرها، وكان ذلك في عهد الملك سليمان، أن توضحت أهمية وضع السلطة الدينية تحت نفوذ السلطة المدنية. وكان من نتيجة ذلك أن تم بناء الهيكل. فالدافع الأساسي لبناء الهيكل كان سياسياً بقدر ما كان دينياً، إذ أن هدف الملك من وراء تشييد الهيكل ونقل تابوت العهد إليه كان يرمي إلى وضع السلطة الدينية تحت نفوذه، لأن الهيكل بالنسبة للملك لم يكن إلا معبداً تابعاً للقصر. هذه الفكرة بحد ذاتها هي خروج على التعاليم التوراتية لأن الملك أراد أن يقدم بنفسه الأضحية الإلهية في الاحتفالات الرسمية وبذلك يكون قد أسبغ على الملكية هالة القداسة وخصّها بالإشراف على الأمور الدينية. ففي عهد البطاركة الأوائل:

- إبراهيم مثلاً - فإن رب العائلة كان يقدم الأضحية. وحجارة المذبح كانت غير منحوتة كمذبح نوح المفضل في نظر الرب:

«إذا أقمت لي مذبحاً من حجر، فلن تبنيه بحجارة منحوتة،
لأنك إذا مررت إزميلك على الحجر فإنك سوف تدنسه.»

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت من الهيكل، بالنسبة للأنبياء، علامة تنذر ببدء الانحطاط، لأنهم لم يكونوا مرتاحين لرؤية الطقوس الوثنية تقع تحت سيطرة السلطة السياسية، لا سيما وأن من الناحية التوراتية الحقيقية، فإن الملكية والهيكل هما بدعتان خطيرتان لا تنبعان من التقاليد اليهودية الأصيلة. هكذا كانت ردة الفعل المباشرة لبناء الهيكل. ولكن الذي حدث فيما بعد، خصوصاً عندما أعيد بناء الهيكل بعد أن تهدم في المرة الأولى، أن أصبح رمزاً لوحدة الأمة وعنواناً لتملكها أرض كنعان، ومبرراً للسيطرة عليها مع التشديد على ربط مصير الأمة بمصير الأرض ومن ثم بالهيكل. فبعد أن مضت أربعة قرون على تشييده ثم هدمه، فإعادة بنائه، فاز الهيكل بذلك الاهتمام وتمتع بتلك الهالة المقدسة التي أُسبغت عليه جاعلة منه المركز الرئيسي لاستقطاب الأمة بكاملها. والجدير بالذكر أن المسيح لم يرتح كثيراً للهيكل ولا للأهمية البالغة التي كان يتمتع بها في نظر اليهود، لذلك تكلم

ومن دون أية مداراة عن دكه وعن تهديمه، وهذا ما أثار حفيظة الأصوليين المتزمتين.

ومن بين الأحداث المهمة التي جرت في تلك الحقبة نذكر غزو إسرائيل على يد اثنين من الملوك.

١ ـ سرجون ملك أشور في عام ٧٢١ ق.م.

٢ ـ نبوخذنصر الملك الكلداني في عام ٥٨٧ ق.م، الذي افتتح أورشليم، وهدم الهيكل وسبى الشعب اليهودي إلى بابل.

ومن المهم التأكيد على أن هذا الغزو الأخير وسبي الشعب اليهودي إلى بابل يشكل نقطة تحول مهمة في تاريخ بني إسرائيل لسببين:

١ ـ إن يهود بابل، أي يهود السبي أو يهود المنفى، عكفوا على الالتزام بطقوس دينية واضحة وثابتة وأصيلة ضمن نطاق حياة قائمة على التقوى والورع، في حين أخذ الدين ينحدر على يد المقيمين في اليهودية والطقوس تضمحل والتقوى تتلاشى.

٢ ـ في بابل وجد اليهودي نفسه للمرة الأولى بلا وطن بعد أن كان قد استولى على أرض كنعان، وبلا هيكل بعد أن كان يعتز بهيكل سليمان. منذ ذلك العصر بدأت عند اليهود ما أطلق عليه إسم الدياسبورا، وبدأت ترافقها تلك النزعة التعصبية التي عرفت بالصهيونية. فعندما أحس اليهود، وهم في بابل، بأنهم مهددون بالزوال كشعب له خصائصه وميزاته من جراء تلاشيهم في الشعوب الوثنية التي هم على احتكاك دائم معها، أخذوا يخططون على صعيدين متكاملين: صعيد الحفاظ على الخصوصية عن طريق التمسك بالتوراة والتقيد بتعاليمها والحؤول دون الذوبان مهما كان الثمن باهظاً، وصعيد التركيز على العودة إلى الوطن، وطن الأرض الموعودة، وطن الهيكل، وذلك عن طريق ربط الإسرائيلي بملحمة شائقة وبمثولوجيا نادرة. كل ذلك جرى في بابل حيث تعلموا الكتابة ودونوا نصوص كتابهم المقدس.

* * *

إن من يريد تبسيط الأمور يمكنه القول إن ما يجري في الشرق الأوسط الآن بين اليهود والعرب هو خلاف حول تحديد نسل إبراهيم وفرز ورثته واقتسام تركته. كل هذه الأمور حددها اليهود بدقة كما رأينا في الصفحات السابقة، ولكن الإسلام أتى فيما بعد لينصف أحفاد إسماعيل ويعيد إليهم اعتبارهم ويعطيهم حقهم في التركة الروحية والمادية. ودام الوضع على هذه الحال إلى عام ١٩٤٨. ففي هذا التاريخ وقع الهجوم المعاكس ساعياً إلى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الإسلام. الصراع يجري الآن بين نظريتين مختلفتين، بين وجهتي نظر متباينتين، بين عقيدتين متناقضتين، بين دينين. هل يدرك العرب ما معنى استسلامهم أمام الغزو الإسرائيلي؟ هل هم مطلعون على ما سوف تكون عليه الأحوال لو انهم خسروا الحرب نهائياً أمام الزحف اليهودي؟

القسم الثاني

الفصل الرابع

اليهودية عند بدء الدعوة المسيحية

إن الحضارات التي تنشأ وتنمو وتتفاعل مع تيارات عديدة هي حضارات ذات طابع انفتاحي وتتمتع بأبعاد عالمية إذ تكون وليدة تمازج بين شعوب عديدة وثمرة تفاعل بين ثقافات مختلفة مع كل ما يرافق تلك «العالمية» من أمور جيدة وتعقيدات خطيرة. إن صراع الأفكار، واحتكاك العقائد، وتنافس المذاهب يتمخض في الغالب عن ولادة فكر جديد، فكر مشترك، «امتزاجي» ينشأ عن تلاحم من الأفكار المتصارعة. ففي خضم الأفكار وأتون العقائد التي تتابعت مع أمجاد البابليين والفرس والمصريين وأخيراً اليونان والرومان على الساحة الفلسطينية، ملتقى الحضارات، وعرين الصراعات، ورحم التفاعلات الإنسانية، فقد كان من العسير جداً على مجموعة ما من البشر تعيش في تلك المنطقة، أن تبقى بمنأى عن تلك التأثيرات إلا إذا بذلت جهوداً جبارة في التشبث بخصوصية متعصبة وغالت في التركيز على انعزالية تبلغ حد الإفراط والتطرف.

فعلى العكس من شخصية الفرد اليهودي المتزمتة والمتصلبة والمتحجرة، التي حصّنت نفسها بالتشديد على أمرين: الاقتناع الراسخ بكون

الشعب اليهودي هو شعب الله المختار أولاً، والاعتصام وراء صرامة الشريعة ثانياً، فقد نشأت شخصية أخرى، على نقيض من الأولى، هي شخصية القاطن في حوض البحر المتوسط عامة أو المقيم في الأراضي السورية والفلسطينية خاصة، والتي يمثلها بشكل واضح نماذج كانت تعيش في ربوع فلسطين ملتقى الحضارات المزدهرة في ذلك الوقت، منطقة التفاعلات والتحولات ومنشأ الثورات والإصلاحات ومنطلق الفتوحات والحملات ومهبط الوحي والرسالات.

فمنذ انقسام الإمبراطورية اليونانية ونمو حضارتها المدهشة، كان الشرقي يُعرِّف عن نفسه لا كفرد تابع لهذا الشعب أو منحدر من ذلك القوم بل كإنسان تلقى نوعاً ما من التربية وبلغ حداً ما من المستوى الفكري وترعرع في مجتمع لاعرقي ولاعنصري توصل إلى أعلى ما يصبو إليه العنصر البشري من الانفتاح والتمازج والانصهار في بوتقة الإنسانية العالمية والأخوة الكونية. فمع إطلالة القرن الثالث قبل الميلاد أي بعد فتوحات الإسكندر الكبير، صار من السهل الإدراك أن مبدأ التفكير بعلوم إنسانية عالمية، وبتاريخ وبفلسفة بمتناول الجميع، أخذ يتأكد شيئاً فشيئاً. أن هيرودوت وأرسطو كانا من الأوائل الذين سعوا لترسيخ ونشر هذا المبدأ.

وبينما تهافتت شعوب المنطقة تنهل من الحضارة الجديدة الآتية من حوض البحر المتوسط والمعروفة تحت إسم «الحضارة الهلِّينية أو الإغريقية»، فإن الشعب اليهودي وحده بقي منعزلاً رافضاً الانصهار في بوتقة تلك الموجة الجديدة من التفاعل العالمي. فقد ترسخ في وجدانهم الاعتقاد بأن الله قد أوكل إليهم مهمة مقدسة وحدد لهم مصيرهم بشرط أن يحافظوا على نقاوة عرقهم ويستنكفوا عن الاختلاط بباقي الشعوب أو الذوبان في ضلال الثقافات والحضارات الغريبة.

إن الحضارة الإغريقية أثرت في شعوب المنطقة كافةً تأثيراً عميقاً حتى أن اللغة اليونانية أصبحت لغة المثقفين في مصر. وبالرغم من أن الطائفة اليهودية المقيمة في مصر رأت من المفيد ترجمة الكتاب المقدس إلى

اليونانية لأن الغالبية منها لا تلمّ بالعبرية، فإن يهود الإسكندرية حافظوا على التقاليد القديمة التي ورثوها من القرون الغابرة والتي تنادي بشعب مختار وبإله خاص ببني إسرائيل، إله يغضب ويفرح، إله ينتقم ويشارك في الحروب... الخ. وهكذا بقي الشعب اليهودي «**أسير اعتقاد ديني ضيق الأفق** كما يقول الكاتب الإسباني إنياس أولاغو، OLAGO **متحجر العقيدة مما أفضى به إلى الإيمان الراسخ بأنه شعب الله المختار بدون منازع**». كان يؤمن باله واحد ولكنه إله قطع على نفسه عهداً بالحفاظ على سلامة الشعب اليهودي وبالسهر على ديمومة أمجاده. إن هذا الاعتقاد لعب دوراً مهماً في السابق، وما زال، في خلق فكر لاهوتي غني مع غرابته، وعنيف في رعاية شعور وطني واجتماعي متزمت.

فبالرغم من احتكاكهم بالشعوب المجاورة، وبالرغم من خضوعهم للسلطات الثقافية واللغوية والعسكرية والاجتماعية التي فرضها الغزاة من فرس ومصريين ويونان ورومان، فإن اليهود أصروا على رفضهم الأخذ بكل ما هو جديد أو قبول مايحمله معه «الغريب» من حداثة أو تجديد، ذلك أن «كبرياءهم الوطني» و «تعصبهم الديني» و «خصوصيتهم العنصرية»، مدعومة بتقاليد متحجرة منذ آلاف السنين، حالت بينهم وبين الانفتاح والتطور. كان عندهم اليقين المطلق بأصالة عظمة شعبهم، والاعتقاد الراسخ بصحة إيمانهم، واهتمام إلههم بهم، وذلك من دون أن يتغاضوا عن واقع يقول: «إن الدين اليهودي الرسمي لم يقم بأية محاولة منظمة لنشر طقوسه الدينية، ذلك أن، حسب الاعتقاد السائد، لم تكن موجهة إلا إلى الشعب اليهودي بسبب مآثره وخصوصيته الكهنوتية» كما يقول إبشتاين.

إن ذلك النهج الانعزالي من ناحية، والتزمت العنصري من ناحية أخرى خلقا عند الرومان شعوراً بالحقد والكراهية تجاه رعاياهم من اليهود. فقد كانوا يعتبرونهم كحيوانات غريبة، أو يعاملونهم كأولاد متخلفين من الضروري معاقبتهم بين حين وآخر، لوضع حد لبعض الأمور غير المألوفة.

وقبيل بدء المسيح بنشر دعوته، كان لدى اليهود تياران دينيان عرفا من

خلال مجموعتين من المتدينين، عرفت الأولى تحت إسم الفريسيين، والثانية تحت إسم الصدوقيين. وفي الحقيقة فإن هاتين الكلمتين كانتا تعنيان في الوقت نفسه إما حزباً، وإما قلّة أو شيعة أو فرقة إذ أنها كانت تهتم بأمور الدين والحياة الروحية وشؤون الدنيا أي علاقة الفرد بالسلطة. إن انقسام إسرائيل إلى فرقتين كان نتيجة طبيعية للظروف التاريخية التي مرّ بها الشعب الإسرائيلي بعد عودته من منفاه. ومن ناحية أخرى، فكما كان يحصل لكل الشعوب الواقعة تحت نفوذ الاحتلال، فإن بعض عناصر الشعب المحتل كانت ترفض رفضاً قاطعاً التعامل مع القوى الأجنبية أو التأثر بها، فيما كانت بعض العناصر الأخرى، أقل عنفاً، ترضى بالأمر الواقع وتسعى إلى أن تستفيد على أوسع نطاق من الحالة الراهنة وتطبيق ما يمكن تطبيقه من أمور جديدة تعود بالفائدة على الجميع.

إن الفريسيين يتحدرون من أولئك «الحصّادين» الذين كانوا روح المقاومة العنيدة في وجه كل قوى الانصهار والاضمحلال عندما بدأ عهد المكّابيين يتغاضى عن تسرب التأثيرات الخارجية. عرف الفريسييون بالاستقامة وبالمقاومة الشديدة لكل البدع الآتية من الأمم الغريبة. لقد كانوا يبالغون بالتشبث بأقل تفاصيل الشريعة أهمية ويشترطون تطبيقه بكل حذافيره؛ أما تعصبهم فقد كان صارخاً في تزمتهم الوطني العنيف العنيد، وهم بهذا السلوك يمثلون موقف أولئك الذين ينادون بالانعزال الدائم وبالانفصال التام عن كل ما هو غريب. أما دورهم فكان يتلخص بالحفاظ على وحدة المعتقدات الروحية وسلامتها. ومما لا شك فيه أنه في حمى التعلق بالنص الحرفي، وفي غطرسة الكبرياء الفكري الذي دأبوا طيلة قرون ثلاثة على ترسيخ الأول وعلى تجميل الثاني أودى بهم إلى التحجر التام وإلى التزمت الشامل. ففي إحدى الحروب وقعت أورشليم بين يدي أنطيوخس الرابع (السلجوقي؟) (sélencide) لأن اليهود امتنعوا عن الدفاع عن مدينتهم يوم سبت من المفروض، حسب الشريعة الموسوية، عدم القيام خلاله بأي عمل ما. ولأن اليهود، للأسباب نفسها، لم يفعلوا شيئاً لتدمير آليات بومبي لوغراند Pompeé le Grand، فإن هذا الأخير تمكن بسهولة فائقة من الدخول

إلى أورشليم. أما في الشؤون الدينية، فإن مبدأهم قائم على التقيد الحرفي بالتفاصيل وعلى التدقيق المتزمت في التطبيق. وكانوا يتلذذون بلفت النظر عن طريق تقشفهم الصارخ، ومظهرهم الوقور، وقفاطينهم الخالية من الزركشة. وكانوا، بالطبع، يمنعون الزواج من الأجنبيات، ويحولون دون الاحتكاك بالأمم الغريبة، فما كانوا يدخلون بيوت الرومان أبداً، أما إذا اضطروا إلى ذلك لإمر طارىء فقد كانوا يتطهرون مراراً فيما بعد. إن التطير من خلال التقيد بتفاصيل أمور الدين بلغ عندهم غاية السخافة. فبعد أن بلغوا حد المماحكة في تفسير النصوص الدينية، وقعوا أخيراً في فخ المغالطة، إذ أنهم في إعطائهم أهمية كبرى للتفاصيل الدقيقة حدا بهم إلى إهمال الخطوط العريضة، والتغاضي عن الأمور الرئيسية حتى بلغوا حد الاكتفاء بالمظاهر فقط على حساب التقيد بالفضائل وتطبيقها. وكانت هذه المآخذ التي بسببها نالوا تعنيف المسيح.

وفي مقابل هؤلاء اليهود «الضّيقي الأفق» تشكلت فرقة اليهود «المتحررين»، يهود اليسار الذين نهلوا من ينابيع الحضارة الهلّينية. من بين هؤلاء يمكننا ذكر الصدوقيين الذين يتحدرون من «صدوق» أمير الكهنة في عهد داوود وسليمان. لم يكن هؤلاء يعتقدون بصواب نظرية الفريسيين، وما كانوا يشاركونهم سلوكهم، خصوصاً في ما يتعلق بتفاصيل الشريعة وحرمة يوم السبب، ومن ناحية أخرى فلم يكونوا يؤمنون بخلود الروح وبالحياة الأخرى. لقد كانوا على استعداد تام للانصهار بالشعوب الأخرى بالإجمال وبالشعب اليوناني على وجه التحديد. لقد كانوا لا يجدون مانعاً في أن يفتحوا دينهم لباقي الأمم لتشاركهم الإنسانية جمعاء في عبادة الإله الواحد وأن تتقاسم معهم وعوده الكثيرة. ولكن ما كانوا يربحونه من هذا الكرم في تعاملهم مع مختلف الأمم، كانوا يخسرون بالمقابل من حسن سيرتهم الأخلاقية داخل الشعب اليهودي. فهم «الخوارج» عديمو التأثير في المجتمع اليهودي. وكلما كانت الأيام تمر كان المتزمتون يتفوقون عليهم شيئاً فشيئاً حتى نجحوا في عزلهم عن المجتمع اليهودي.

في عهد يسوع كان اليهود ينتظرون مخلصاً، مخلصاً غير عادي،

مسيحاً يقود الإنسانية نحو الخير، وفي الوقت نفسه يبعث من خلال حلم جميل، أمجاد داوود وسليمان الأسطورية، ويضع، أخيراً، العالم بكامله تحت أقدام يهودا (la Judée) العادلة والحازمة والتي تستمد تفوقها من تطبيق نظام يهودي أصيل وشامل ومن أعراف وتقاليد ثابتة وقوية قائمة على التعاون والتعاضد وعلى نقاوة العرق اليهودي، شعب الله المختار.

فمن هذا المجتمع اليهودي المنعزل والمغلق على نفسه، هذا المجتمع الذي ينفر من كل من هو غريب ويحتقره، هذا المجتمع الذي ينظر بقلق وازدراء إلى تكاثر عدد الأغراب في مدنه وقراه، هذا المجتمع الذي يرتعد غضباً من هول التهديد الدائم بإمكانية إغراقه في سيول جارفة من الآراء والأفكار الجديدة التي لا تتوافق وتطلعاته العظيمة وأمجاده العريقة، من هذا المجتمع ولدت تعاليم جديدة انتشرت بسرعة فائقة في كل أنحاء العالم. لأن المسيح، وهو يعلم تلاميذه وينشر تعاليمه، لم يكتف بالتوجه إلى بني إسرائيل فقط، بل كان يخاطب التجمعات المختلفة كافةً، وكل الأقوام الموجودة في الإمبراطورية، باسم إله واحد، إله لا هو ضيق الأفق محدود النظرة، ولا هو مماحك يجادل بالأمور الطفيفة، لا هو متعصب لقبيلة واحدة، ولا هو تاجر مراوغ كما كان يصوره اليهود. إذ أنه عندما يهن الذكاء ويثبط، تتخدر المجتمعات، وما من قوة قادرة على رفعها من عثرتها إلا قوة جديدة تتحلى بالانفتاح وقديرة على الإبداع.

١ - يسوع واليهود

كان اليهود مقتنعين أن الله، الإله الوحيد في هذا العالم، كان إلهاً عادلاً. ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعتبرونه تاجراً أبرم مع جدهم إبراهيم صفقة رابحة ومفيدة لهم لأنها في النهاية تؤمن لهم التفوق والسيادة على باقي الأمم.

لقد آن الأوان كي يتحرر الدين من هذه الشوائب التي فرضها عرق معين، وأن يكسر الطوق الذي منعه من النمو والتقدم وسجن ضمن نطاق ضيق من التقاليد الاجتماعية الغابرة، أكل الدهر عليها وشرب. فمن داخل دين قبائلي محدود الأفق بزغ دين جديد يتطلع إلى العالم أجمع ويخاطب

الأقوام والشعوب كافةً. أحس اليهود بكآبة أن امتيازاتهم العرقية تضمحل؛ وأصغوا إلى المسيح بغضب وهو ينفي عن الله صفة التاجر التي ألصقوها به، وعن بني إسرائيل ميزة الشعب المختار التي احتكروها واستغلوها لعدة قرون. فمن ناحية كان يقول إن الله هو الأب المحب لكافة المخلوقات، ومن ناحية أخرى كان ينادي بالمساواة بين جميع الشعوب. وعندما قال يسوع لليهود متى:

«تعرفون الحق، الحق يحرركم. أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط. كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً».

[يوحنا ٨/ ٣١ ـ ٣٤]

ومع أن تعاليم المسيح كانت واضحة وشاملة ودقيقة، فإن بني إسرائيل ظلوا أسرى نظرتهم الضيقة وانعزاليتهم المتغطرسة التي حاربها المسيح بعنف ومن قبله كلٌ من يونس (Jonas) وروث (Ruth) اللذين كانا يتطلعان إلى عالمية الدين الذي يجب أن يتعدى حدود القوم الواحد ليخاطب الأقوام ومختلف الشعوب كافةً.

إن المرحلة الانتقالية بين الخاص والعام، بين المغلق والمنفتح، بين القومي والإنساني كانت قاسية جداً. لم تكن مرحلة تتعلق بمسائل الاجتهاد في تفسير نصوص أو التعمق في شرح أقوال، بل كانت قضية عامة وشاملة تعدت التفاصيل لتنال من إسرائيل نفسها. من وجودها. من حقيقتها. من شرعيتها.

نعم لقد ولد يهودياً، في وسط يهودي، واتخذ لنفسه تلاميذ كانوا من اليهود أيضاً، إلا أن المسيح، وإن كان في بعض تعاليمه يستند إلى الشريعة اليهودية، فقد كان في معظمها يخالفهم مخالفة شديدة وينتقدهم انتقاداً لاذعاً.

٢ ـ ما قبل به اليهود من تعاليم المسيح

إن إدمون فلاج (Edmond Fleg) في كتابة «يسوع واليهودي التائه» (Jésus et le juif errant) يلخص رأي اليهود بما يتعلق بالمسيح وبتعاليمه كما يلي:

١ ـ المسيح يهودي، «يهوديٌ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه» وكذلك تلاميذه.

٢ ـ كان يتقيد بالشريعة، يحترم الطقوس ويدفع لقدس الأقداس نصف الشاقل المفروض.

٣ ـ كل تعاليمه نشأت ونمت في محيط يهودي، فمن العبث البحث فيها عن أصول يونانية أو عن تأثيرات سورية.

٤ ـ لقد كان من الطبيعي أن ينتهي به المطاف إلى أورشليم بفضل دافع وطني خالص، إذ إنها كانت دائماً بالنسبة له العاصمة التي ليس لها منازع.

٥ ـ إن السلام، برأيه، إذا قُدر له أن ينتشر في العالم وأن يعم جميع الشعوب، فلن يكون ذلك إلا عن طريق اليهود ولن يتم إلا بواسطتهم.

٦ ـ كان يعمل إذن من أجل إله بني إسرائيل. وهكذا يكون نبياً في عداد الأنبياء الذين عرفهم بنو إسرائيل.

٧ ـ الأمل الكبير بالخلاص، الذي نادى به، هو من صلب التقاليد اليهودية لا سيما في ما يتعلق منها بمجيء المسيح المنتظر.

٨ ـ كان يعتبر نفسه نبياً من أنبياء بني إسرائيل، ومن أقوالهم استمد تعاليمه، ولم يناقضهم في شيء ما.

٩ ـ إن اليهود الأكثر تشبثاً بالنص الحرفي، كان باستطاعتهم أن يكتشفوا أن رسالة المسيح في خطوطها الأساسية، وفي روحها الحقيقية، لها جذور بعيدة في ما أتى به الأنبياء من قبل. فمثلاً «الأرض يرثها الضعفاء» موجودة في المزامير. «مواساة المنتجين وتبشيرهم بالخلاص» موجودة ضمن أقوال يشوع Isaïe، «سامح فتسامح» قالها ابن سيراك (Ben Sirach)... الخ. إذن فإن أقوال ابن الجليل لم تكن لا غريبة ولا غامضة. وكان بالإمكان إما انتقاده وإما الدفاع عنه بالادعاء أن لا جديد في ما أتى به.

إلا أن الرأي الذي كان سائداً عند اليهود في ذلك الوقت كان يتلخص بما يلي: إن في أقوال المسيح تعاليم صادقة ولكنها ليست جديدة، وفيها أشياء جديدة ولكنها ليست صحيحة.

٣ ـ ما رفضه اليهود من تعاليم المسيح

١ ـ إن ردة فعل الكاتب اليهودي البديهية أو موقف الفريسي القائم على مجموعة هائلة من التقاليد المستمدة من التلمود، كانت مشبعة بالسخط والاستنكار مع إحساس شائن بالفضيحة والامتهان. إن الحرب الكلامية والمناقشة الجارحة تمادتا في النقد اللاذع حتى بلغتا حد الإهانة والتجريح: فلم يرشح من آراء الكهنة حول المسيح إلا كل ما هو عدائي، وساخر، ومهين وسيء النية. أحياناً كانوا ينعتونه ببلعم ابن بهور «النبي الكذاب الذي أضلّ بني إسرائيل»، وأحياناً أخرى كانوا يعرّفون عنه باسمه الحقيقي: يسوع الناصري، ولكن مشفوعاً بنعوت شائنة مثل: الكذاب، المنافق، اللقيط... الخ. كل هذه الخرافات تسربت إلى التقاليد الكهنوتية وانتظمت على شكل روايات وأحاديث تسرد سيرة المسيح بطريقة مدسوسة وملفقة. وقد ظلت الأوساط اليهودية تتناقل هذه الأباطيل إلى أن جمعت وعرفت في القرن السابع تحت إسم «تولدوت جيشوا» أي حياة يسوع. وكان الامبراطور الألماني فريدريك الثاني، ذلك الصليبي الذي حرمته الكنيسة في القرن الثالث عشر، يحتفظ بنسخة منها في مكتبه وتوهم فولتير الكاتب الفرنسي، أنها صحيحة حتى التفاصيل. التجمعات اليهودية في أوروبا الشرقية والمعروفة بالجيتو، ما زالت تتناقلها وتؤمن بصحتها حتى هذا التاريخ. أما مجمل ما فيها من هرطقات فإنه مستمد من ادعاء يقول إن المسيح هو ثمرة علاقة زنا بين العاهرة مريم وبين جندي روماني يدعى بندرا أو بنترا. وعندما كان في المراحل الأخيرة من طفولته أخذه عشيق والدته إلى مصر حيث تعلم هناك السحر وفن الشعوذة مما ساعده فيما بعد على إغراء إسرائيل والتغرير بها، لذلك ألقي القبض عليه بتهمة الشعوذة وبث

الفتن وإقلاق الراحة، وقيد أمام المجلس اليهودي حيث بقي أربعين يوماً معلقاً على عمود التشهير، قبل أن يُرجم بالحجارة ويُشنق يوم الفصح.

٢ ـ أما من ناحية الرسالة ومخاطبة الجماهير، فإن المسيح كان يتكلم بثقة، وبلغة واضحة سهلة الاستيعاب من طبقات المجتمع كافةً. الأولاد والفقراء والأميون والممسوسون (من الشيطان) والخاطئون والشريرون كانوا يستوعبون ما يقول ويتيقظون لما ينادي به. هذا التجاوب السريع والمباشر والصادق بين المسيح من جهة والجماهير من جهة أخرى كان أمراً جديداً في المجتمع اليهودي، تنبه له وأحس به العديد من أفراد العائلات اليهودية الأكثر تمسكاً بتعاليم الدين والأشد تشبثاً بالشريعة. وهنا بالفعل يكمن التجديد في دعوة المسيح ضمن الإنجيل ويسبغ عليها طابعاً حديثاً غير مألوف في التقاليد اليهودية.

يسوع والشريعة

٣ ـ شجب المسيح بعنف التقيد الشكلي بحرفية الشريعة محذراً من الالتباس الذي قد يقع بين الأصل والشكل، لا سيما حين تتحجر المفاهيم في وجدان الإنسان ويتضاءل الأفق في مدى تطلعاته فيتمسك بالشكل وتغيب عن إدراكه أهمية الأصل. لقد خرق المسيح حرمة يوم السبت معلناً أن السبت خُلق للإنسان وليس العكس.

٤ ـ نعم، إن اجتهادات بعض الحكماء ذهبت إلى القول إن من يُتمم واجباته الدينية ويلتزم بالوصايا تحت تأثير الممارسة وقوة الاستمرار أي من دون الاستناد إلى نية صادقة وورعة، لا ثواب له. وبعض الفريسيين أقروا بشرعية خرق يوم السبت إذا كان ذلك في سبيل إنقاذ حياة إنسان. ولكن المسيح ذهب أبعد من ذلك منددا بعنف بالنفاق المشين الذي يتوارى خلف حرفية النص ويتغاضى عن روحه. لقد ذهب المسيح بعيداً جداً في هذا المجال حتى أن البعض تخيل أنه كان، في نهاية المطاف، ضد التوراة بكاملها، لأنه كان ينتابه شعور بإمكانية إتخاذ بعض ما فيها من

تأكيدات للنيل من وحدانية القوة الإلهية. وكان لا بد من طرح الأسئلة التالية:

- هل يجب إذن تفضيل الخاطيء وليس العفو عنه فقط؟
- إذا كان المتقدمون ينالون الثواب نفسه الذي يحظى به الأوائل، أليس معنى ذلك أن الله ليس عادلاً في مكافأة التائبين؟
- ما نفع هذا الخمر وهذه الجرار؟ ليست الشريعة التي هي في صلب الموضوع، هل يعتبرها باطلة؟
- وهو يدّعي إتمامها، هل يرمي من وراء ذلك إبدالها؟

٥ ـ إن الأصوليين من اليهود عامة ومن الكهنة خاصة، كانوا يرون في هذا الرجل الذي يدعي النبوة، فضيحة شائنة وامتهاناً مثيراً، لأنه يتنبأ بخراب أورشليم وبتهديم الهيكل من دون أن يبدو عليه التأثير أو يظهر عليه الندم والأسى لا سيما وأن الهيكل هو رمز بقاء إسرائيل وعنوان مجدها وديمومتها. لذلك كان المسيح بالنسبة للبعض نبياً مشكوكاً به، لا يؤمن جانبه ولا يصح قوله.

٦ ـ ووفقاً لبعض ما كان يقول به المسيح، ولما كان يردده تلاميذه، فقد أدرك اليهود أن الدور الذي كان يقوم به يفوق بكثير الدور الذي كان من المفروض أن يقوم به مسيحهم المنتظر: لقد تعدى الأمر مسألة تعاليم آتية من السماء، من عند الله الذي منه يأتي الخير وإليه يعود، فيسوع يتكلم ليس كمرسل من عند الله بل وكأنه هو الله نفسه. وهكذا لم تعد التوراة صلة الوصل بين الشعب والله، لأن يسوع حل مكانها، وهو يحثّ الناس على الإيمان به فقط، لأن في ذلك خلاصهم. ولا طريق للنجاة غير هذا الطريق ـ وفي نظر اليهود، تلك كانت الطامة الكبرى والبهتان المهين، لأنه ليس بمقدور الإنسان أن يكون أكثر من إنسان والمسافة بينه وبين الله لا تدخل في الحساب ولا يستوعبها عقل مخلوق، مهما نال من الفطن والذكاء أو من العلم والإدراك.

٧ ـ هذا الرفض من جانب إسرائيل أفضى إلى الانفصال التام الذي تكرس

مع الأيام وأصبح واقعاً نشأ عنه دينان مختلفان: اليهودية والمسيحية. لقد بدأ الانشراخ عندما اتخذ اليهود من الحاكم الروماني بيلاطوس أداة لتنفيذ مآربهم بما يتعلق بالمسيح والتخلص منه وخنق ما ينادي به من تجديد. ولم يكن بيلاطوس ذلك الشخص الصعب المراس أو ذلك الحاكم الواثق من نفسه، فترك اليهود يعملون كما يحلو لهم، لأنه من ناحية كان يخاف أن يلجأ يهود أورشليم إلى إخوانهم في روما (بما يعرف اليوم باللوبي) كي يضغطوا على القيصر فيقصيه عن منصبه، ومن ناحية أخرى كان يشمئز من دسائس محكوميه ويزدري مسكنتهم. وبما أن الأمر يتعلق بهم، وبرجل منهم، فلا حرج في تركهم يفعلون كما يشاؤون، ولا خوف من التخلص من الذي أجمع الكهنة على خطورة تهديداته لأمن الامبراطورية العظمى. تُهمتان اثنتان وجههما إلى المسيح مجلس كهنوت اليهود:

١ ـ مخالفة الشريعة وتهديم أصولها

٢ ـ تحريض الناس وتهديد النظام

* * *

تحرر الدين المسيحي بسرعة فائقة من تزمت الدين اليهودي ورسم لنفسه خطاً جديداً له أبعاد عالمية، ولكن ضمن نطاق التقاليد التي فرضها الأنبياء لا سيما في ما يتعلق بالدين كعقيدة فكرية لا كرابطة قبليّة أو كامتياز عنصري. وكان لا بد للطلاق أن يقع بين الدينين، وبالرغم من أن المسيحية انبثقت من جذع يهودي بحت، فإنها ما لبثت أن استقلت عنها لتصبح فيما بعد ما عرف «بالكنيسة المسيحية». «فبعد عقود عدة من السنوات، يقول ابشتاين، وتحت تأثير بولس، عدّلت الكنيسة نظرتها إلى المسيح لتجعل منه إلهاً من درجة ثانية بدل إنسان من الدرجة الأولى. وهذا الاعتقاد يتناقض تناقضاً تاماً مع وحدانية الله كما يفهمها اليهود. وهكذا أصبح من العسير جداً على اليهود الذين تبعوا المسيح أن يتقيدوا بتعاليم اليهودية. فوقع الانفصال بين الدينين، وكان لا مفر منه».

الفصل الخامس

المسيحية عشية ظهور الإسلام

من الصعب جداً العثور في نص الأناجيل على ما من شأنه توضيح ما اتخذت منه الكنيسة أساساً لها وللدين المسيحي. فلا مجال أبداً لوجود نص صريح ومباشر في أي مكان من فصول الإنجيل يذكر المبادىء التي اعتمدتها الملل والفرق كافةً كسبيل وحيد للنجاة. فمن الصعب مثلاً العثور على كلمة واحدة تفوه بها المسيح معلناً أنه مسيح اليهود المنتظر، أو ما يشير إلى أنه أقنوم إلهي. أحياناً كان يشير إلى نفسه بتعبير «ابن الله» وأحياناً أخرى كان يقول إنه «ابن الإنسان». كل اهتماماته كانت متعلقة بملكوت السماوات. فهو لم يأتِ بالتفصيل على ذكر مبدأ سر الفداء ولم يشرح لتلاميذه لا أهمية الذبيحة الإلهية ولا أسرار القربان المقدس.

ولكن عندما أعلن بولس وسائر التلاميذ أن المسيح كان أكثر من إنسان وأنه كان يتمتع بخواص إلهية، فإنهم، سواء كانوا على حق أم لا، فقد فتحوا مجالاً واسعاً للمناقشة وباباً عريضاً أمام الاجتهادات، والتساؤلات الدينية الكثيرة التي أوجدت شروخاً عميقة في مبدأ الإيمان، منها: هل كان المسيح إلهاً؟ من خلق المسيح، هل هو خلق نفسه، أم هناك من هو أعلى منه؟ هل هو الله نفسه أم هو منفصل عنه؟ ومَن أعلى شأناً؟ . . . الخ.

كان الدين المسيحي منذ بزوغه عرضة للاضطراب بما أحدثته نظرية الأقانيم الثلاثة من مشادات ومناقشات ومزايدات بيد أنه ما من دليل واضح يؤكد على أن تلاميذ المسيح سمعوه يتكلم أو يلمح عن سر الثالوث الأقدس.

١ ـ الفرق المسيحية قبل الإسلام

أ ـ في بيزنطيا

كل من شاء فهم أهمية ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع، وأراد الكشف عن سر انتشاره السريع والكاسح في آسيا وفي شمال أفريقيا، فلا بد له من الإطلاع على الوضع العام في الشرق في ذلك العهد ودراسة الحالة الدينية من جميع جوانبها وما حفلت به من الانقسامات والمزايدات والاضطهاد والتنكيل.

كانت المسيحية منقسمة على نفسها إلى ثلاث فرق. الأولى غربية أو لاتينية اتخذت من روما مركزاً لها. والثانية شرقية استقرت في بيزنطيا. والثالثة مؤلفة من السوريين والمصريين والأرمن، الذين كانوا يشكون من الاضطهاد النازل بهم على أيدي البيزنطيين، وكانوا يتطلعون بفارغ الصبر إلى من يحررهم من النير البيزنطي.

ومن ناحية أخرى، إذا اتخذنا من الفرات خطاً فاصلاً، نجد أن تلك الناحية من آسيا الصغرى مقسومة إلى قسمين: العالم الآسيوي شرقاً، وعالم البحر المتوسط غرباً. وكانت حضارات كلا القسمين متداخلة، ومتفاوتة في درجات تأثيرها بالحضارة الإغريقية. وظهرت تأويلات عديدة وتفسيرات غريبة، في معظمها ذات نفح إغريقي، بعثرت المسيحيين إلى فرق مختلفة. وكان التساؤل عن جوهر الأب وجوهر الابن أحد الأسباب الرئيسية للخلاف لعدم الإجماع على جواب واحد حولهما فتعددت الأجوبة، وتناقضت محدثة مشكلة دخيلة لا علاقة لها أبداً بروح الرسالة المسيحية.

ففي الشرق انتشر المسيحيون النساطرة ضمن بعض تجمعات الزرادشة الذين بقوا على دينهم القديم مؤمنين بزرادشت وبتعاليمه.

البطريرك نسطوروس القسطنطيني ـ هو نفسه من تلاميذ تيودوروس ـ بدأ منذ عام ٤٢٨/ ٤٢٩ دعوته القائلة بأن في المسيح طبيعتين: طبيعة إلهية، وأخرى إنسانية وبأن الله يحل في جسد يسوع الإنسان كما يحل في الهيكل، أي أن الله (الأب) وحده ليس مخلوقاً وليس مولوداً، ومن غير الممكن أن يكون يسوع الناصري من الجوهر نفسه. إن مقولة كهذه تفضي إلى عدم الإيمان بنظرية التجسد وتنزع عن مريم لقب «أم الله» تاركة لها فقط صفة أم يسوع. وفي عام ٤٣١، ومع أن مجمع أُفسس أدان النسطورية وشجبها فإن الفرقة وجدت من يدافع عنها في شمال سوريا حيث انتشرت بكثافة. ومن هناك نفذت إلى ما وراء النهرين واتخذت من ناصيبين مركزاً لها قبل أن تدخل بلاد فارس وتتسرب إلى الصين.

أما في الشرق، فإن ردة الفعل المباشرة على النسطورية كانت النظرية القائلة بطبيعة المسيح الواحدة. هؤلاء المسيحيون يعتبرون أن من الصعب جداً جمع الطبيعتين في جسد واحد. وحسب اعتقادهم، فإنه حين حدث الاتحاد الأقنومي، اضمحلت الطبيعية الإنسانية أمام سمو وبهاء الطبيعة الإلهية وذابت فيها كما تذوب في النار قطعة الشمس. وهكذا، فإن هذه الفرقة القائلة بطبيعة المسيح الواحدة تهدم، كما في النسطورية، نظرية التجسد، لأنها بدلاً من الاعتقاد بالإنسان الإله، فإنها لا تعترف إلا بالطبيعة الإلهية. وبما أنهم ينكرون أن المسيح كان يتمتع بطبيعتين فإنهم يؤكدون أن المسيح لم يشعر بالألم وهو فوق الصليب، لأن الإله أرفع وأسمى من أن يتألم، أما إنسانية المسيح فلا تعدو عن كونها مظهراً شكلياً عابراً. لقد اعترف مجمع أُفسس بهذه النظرية في عام ٤١٩ ولكن مجمع قلدونيا المنعقد في عام ٤٥١ شجبها واستنكرها. وإمعاناً في معاكسة بيزنطيا وتحديها، فقد راجت هذه النظرية في أرمينيا واعتمدتها الكنيسة الأرمنية في نهاية القرن الثالث بفضل تأييد القديس غريغوار الملهم لها، ومن هناك انتشرت في ما بين النهرين حيث اعتنقتها بعض القبائل العربية كبني تنوخ المتمركزين في

الأنبار على نهر الفرات. لقد اتحد المنادون بالطبيعة الواحدة مع اليعاقبة وشكلوا الأكثرية الساحقة في سوريا وفلسطين، وانضموا إلى الأقباط في مصر وإلى بطريركية الاسكندرية ليصبحوا الفرقة ذات النفوذ الأقوى في أصقاع وادي النيل كافةً. وقد ساعدهم على هذا الانتشار السريع تأثير الأكليروس على الشعوب لقربه منها ومخالطته لها ومخاطبتها بلغاتها السائدة. وهذا ما أفشل كل مساعي بيزنطيا في القضاء عليهم.

لم تكن مشاغل هذه الفرقة مقتصرة على الاهتمامات الدينية والاجتهادات الفلسفية بل كانت تتعداها لتشمل تطلعات سياسية ترمي من ورائها الشعوب غير الاغريقية، أي السورية والقبطية إلى الانفصال عن بيزنطيا والتحرر من عبوديتها، بعد أن تعبت من الاضطهاد وسئمت من الذل ونالت من الظلم كل أنواع التنكيل والعذاب. ولم تتأخر عن استقبال الفرس الزرادشتية استقبال الفاتحين المحررين عندما غزوا بيزنطيا في عام ٦١٠. فالمناطق الجغرافية الواسعة التي كان يتكلم فيها السكان اللغة السريانية أو الآرامية، ساعد هذه الفرقة الدينية على الاستقلال التام عن بيزنطيا أو في أحسن الحالات جعلها صعبة المراس أو مستحيلة الضبط والمراقبة.

وصدف أن الامبراطور جوستنيان وزوجته الرائعة الامبراطورة تيودورا أن كان كل منهما ينتمي إلى فرقة دينية معادية للأخرى، فكان الامبراطور أرثوذكسياً يؤمن بالأقانيم الثلاثة، وكانت الامبراطورة تتعاطف مع المنادين بالطبيعة الواحدة. الامبراطورة ألّفت بعثة تبشيرية ووضعت على رأسها القس جوليان، وشكل الامبراطور من ناحيته بعثة أخرى. واحتدم الصراع بين البعثتين واشتدت المنافسة بينهما: كلٌ تسعى للوصول إلى مصر العليا (النوبة) قبل الثانية. فأوفدت تيودورا رسولاً إلى حيث يجب أن تمر البعثتان في طريقهما إلى النوبة مهددة وواعدة إذا لم تُسهل السبل أمام جوليان وتوضع العراقيل أمام البعثة الأخرى. فلاقت أوامرها آذاناً صاغية، وانتشرت نظرية الطبيعة الواحدة في تلك الأصقاع.

أما الأريانية فقد انطلقت من مصر حيث كان أريوس راهباً، وامتدت نحو الشرق، ثم دارت حول المتوسط وتسربت من الغرب إلى أفريقيا

الشمالية. وقد مارس آريوس، الليبي الأصل، التعليم في الاسكندرية، فكان قوي الشكيمة، نافذ الحجة، شديد البأس. أما مقولته فهي تتطرق إلى مسألة شائكة وقديمة، قدم الرسالة المسيحية. فالآريانية بحد ذاتها، ما هي إلا محاولة ضمن عدة محاولات أخرى، سعت إلى دحض الشكوك وجلاء الارتياب حول أصل وطبيعة المسيح. فهذه الشكوك، في أشكالها المختلفة، كانت لا تخلو من الفظاظة ومن الظهور في بعض الأحيان بمظاهر معادية للمسيحية نفسها كرسالة سماوية. مثالاً على ذلك السؤال التالي: «ابن أي أب؟» لا سيما وأن يسوع لم يكن ابن زوج والدته. وحسب مقولة أريوس، فإن الأب وحده هو الله لأنه لم يولد من رحم امرأة. أما الابن، فما هو إلا وسيط وصلة وصل بين الله وبين العالم.

في الزمن الذي طلع فيه آريوس بمقولته هذه (أواخر القرن الرابع ميلادي) كانت الكنيسة قد بدأت تخرج شيئاً فشيئاً من بلبلة وفوضى النظريات المتضاربة المتعلقة بنسب المسيح وأصله لتدخل في دوامة جديدة تريد من خلالها تحديد درجات النظام الإلهي والتدقيق في مراتبه المتسلسلة. هل سيقف يسوع إلى جانب العرش الإلهي؟ أم سيجلس قرب الإله؟

ومما لا شك فيه أن الدين المسيحي وهو في طفولته الأولى بذل جهوداً فكرية كبيرة كي يجد حلاً نظرياً لمسألة مبهمة طُرحت عليه بتعابير غامضة لا تخلو من التحدي والاستفزاز الآريانية رفضت اعتبار المسيح مساوياً لله القادر والمقتدر. الله واحد ووحيد. يسوع ليس سوى عضو ثانوي في الثالوت، أي أنه لم يكن سوى نصف إله، أو مخلوقاً تبناه الله بعد أن انتشله من العدم. وهكذا فإن المخلص أضحى إلهاً من درجة ثانية، حسب تأويل الآريين الذين اعتمدوا مبدأ القرابة العائلية بين البشر كمدخل لتفسير الأسرار الإلهية كما تعبر عن معاني المدلولات اللغوية التي اخترعت مفرداتها العقول البشرية. فقد بذلوا جهوداً طائلة كي يتخيلوا، ضمن نطاق من الأحترام والتبجيل، ما يمكن أن تكون عليه علاقة الأب والابن الإلهية بالنسبة لما يقابلها من علاقة مماثلة بين أفراد المجتمع الإنساني. «أكثر عقلانية من نظرية الأقانيم الثلاثة، يقول أولاغو، فإن الأريانية وباقي

المقولات الوحدانية جعلت من التوحيد نظرية رائجة لها تأثير كبير في الطبقات المثقفة والمتطورة».

مجمع نيسه المنعقد في عام ٣٢٥ جدّد حرم أريوس وكرس طرده من الكنيسة. لكن النفوس لم تهدأ إذ تابع الناس جدلهم في ما يتعلق بمقولاته وآرائه وتحليلاته. إلا أن موته المفاجىء على قارعة الطريق منح أعداءه حججاً إضافية للتشهير به ودحض مزاعمه. فقد مات أريوس، لكن الآريانية بقيت بعده وتمكنت أن تعيش حتى يومنا هذا.

لم يصب الأريانية ما أصاب باقي الفرق التي ظلت معلقة بين الثالوثية وبين الوحدانية، فالتاريخ يشهد أن تجمعات كهذه لا تلبث أن تتفتت وتذوب في الفرق المتطرفة والمنتسبه. وفضلاً عن ذلك فإن الآريانيين عرفوا أن يتطوروا لا سيما بعد أن خرجوا من نطاق المناقشة حول مدلولات بعض الألفاظ اليونانية التي كانت موضع إلتباس وتأويلات. فالعقلانية في مذهبهم تفوقت على الحذلقة في تعليل دقائق أمور الدين وحلت محل المزايدات الانفعالية في الدفاع عن واقعية مقولتهم اللاهوتية.

ففي نظرهم فقد المسيح خصائصه المقدسة التي اسبغها عليه دوره كخالق لهذا الكون، ليصبح في مذهبهم إنساناً يتمتع بخصائص فريدة. وهكذا اتجهت الآريانية نحو التوحيد، شيئاً فشيئاً. وتصدى الشرقيون لبعضهم البعض في مجابهة حامية الوطيس حول مسائل بالغة التعقيد أثارتها أسرار الأقانيم الثلاثة وطبيعة المسيح ودرجته، وقد عرف هذا الجدل، كما سمّاه المؤرخون، بـ: «المشاجرة حول مزايا المسيح وخصائصه» (في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد).

أما في أفريقيا الشمالية فقد تمادى المشرفون على الدين في إختراع المفاهيم الجديدة وتأليف الفرق المتصارعة. وهكذا فإن الرسالة الجديدة التي جلبت معها الأمل والمؤاساة واقترحت تطبيق مثاليات جديدة قائمة على المحبة والأخوة، أضحت مصدراً لمشاجرات ومشاحنات لا نهاية لها. فأفريقيا التي رحبت بهذا الدين في سنواته الأولى، رأته فيما بعد يتمزق

ويتناثر أشلاء عديدة من الشيع والفرق. لا بد من الاعتراف أن المسيحية اجتازت أزمات مماثلة حيثما انتشرت، ولكن تلك التي تفجرت في أفريقيا كانت على شيء من العنف والتحدي مما ألحق بالدين أذىً كبيراً حدّ من انتشاره وحال دونه ودون الترسيخ والتأصل في تلك البقاع.

إن الفرق المختلفة التي تفشت في أفريقيا الشمالية سواء الأدرية (من فعل أدري) [غنوصية gnosticisme] أو مشتقاتها مثل:

١ ـ الدوناتية [donatisme]، نسبة إلى دونات أسقف قرطاجة ورئيس فرقة دينية في القرن الرابع الميلادي.

٢ ـ المانوية [manidéisme] وهي فرقة دينية من أصل فارسي أنشأها مانيس أو ماني في القرن الثالث وهي تجمع ما بين تعاليم أخذت من المسيحية وبين مبادىء أخرى أخذت من البوذية تقول بأن الخير والشر متساويان لكنهما متناقضان وفي صراع دائم.

٣ ـ المانوية [manidéisme] كل هذه الفرق نشأت من مناظرات حامية، إما فكرية وإما ميثولوجية، لكن الفرقة الأكثر غرابة هي المعروفة باسم الأوفيتية (ophitisme) لأنها خصت الحية التي «طغت» حواء بعبادة وتبجيل، أولاً لأنها كانت في الجنة، وثانياً لأنها كشفت للإنسان عن سر المعرفة. وهي وبشكل من الأشكال جعلت من هذا الحيوان رمزاً مسيحياً.

كثيرون من العرب اعتنقوا المسيحية بسبب تلك التيارات الفكرية التي أحدثتها في الشرق والتي استقطبت اهتمام معظم الناس وصارت شغلهم الشاغل وجدلهم الدائم. وفضلاً عن ذلك فإن الرهبان الارثوذكس كانوا يغادرون سوريا وفلسطين ويجوبون الأصقاع والبلدان والصحارى والواحات ناشرين تعاليم الدين الجديد كلٌ حسب نزعة فرقته. وكان بين هؤلاء الرهبان القديس سمعان العمودي الذي نال حفاوة بالغة في شمال سوريا حيث كان يعظ ويبشر. ثم القديس موريس الشهيد ورفاقه الستون، والقديس باخوس، والقديس سيرج (أو مار سركيس) الذي كان قبره في الرصافة، شمالي تدمر على بضعة كيلومترات من الفرات، محطة أنظار الحجاج وقبلة الأتقياء.

وهكذا، ففي القرن الرابع كان في سوريا عدد مهم من السكان الحضر الذين اعتنقوا المسيحية كما تشهد على ذلك الكنائس العديدة في الشمال. وفي القرن الخامس كانت قبائل بني غسان أو بني لخم قد دخلت في المسيحية. وهذه القبائل كانت تقيم في الأراضي الخصبة في سوريا وفي ما بين النهرين، بعضها كان نسطورياً والبعض الآخر لحق بالفرقة التي تعتقد بطبيعة واحدة للمسيح.

كان الشرق بمعظمه قد أصبح مسيحياً في القرنين الخامس والسادس، ولكنه كان ممزقاً إلى فرق وشيع تتشاجر حول مفهوم بعض المبادىء الدينية وحول صحة بعض المذاهب اللاهوتيه. ومن خلال هذه الاعتقادات المختلفة حيناً والمتباينة أحياناً انعكست بوضوح مزايا وخصائص الحضارات والثقافات التي كانت تلتزم بها شعوب الامبراطورية البيزنطية. أرثوذكس ونساطرة ويعاقبة ومؤمنو الطبيعة الواحدة كانوا يتنافسون للفوز بالمراكز المهمة في الإدارات الرسمية. القسطنطينية والمناطق المجاورة لها كانت أرثوذكسية تتمتع بالرعاية الفائقة وبحماية الأباطرة المباشرة لها. لذلك فإن مسيحييها كانوا يعرفون بالمالكيين نسبة إلى (ملك) أو القلدونيين نسبة إلى مجمع قلدونيا المنعقد في عام ٤٥١ والذي شجب عقيدة الطبيعة الواحدة. ومن المهم الإشارة إلى أن كلمة أرثوذكس كانت مستعملة عند الفرق والشيع كافةً. فكل واحدة منها كانت تطلق على نفسها لقب أرثوذوكس وتدعي أن الآخرين هم المنحرفون والمارقون. لذلك، نقرأ في بعض الكتب أن الأرثوذكس هم المالكيون أو القلدونيون وفي البعض الآخر أنهم اليعاقبة أو المنادون بالطبيعة الواحدة.

ومنذ فجر انتشار المسيحية، حدثت محاولات عدة حميدة في سبيل توحيد كل هذه الفرق ولكنها باءت بالفشل بسبب الخصائص التاريخية والاقتصادية والثقافية واللغوية التي كان يتميز بها كل شعب من شعوب الامبراطورية البيزنطية. وقد أدرك الامبراطور قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية خطر ذلك العداء المستحكم القائم بين علماء اللاهوت. فبذل جهوداً كبيرة لحمل المختلفين على الاتفاق وإقناعهم بحل كل الفرق وإنشاء واحدة فقط

لها تعليم واحد ولاهوت واحد ومبادىء واحدة. .الخ. وبناء على مبادرة شخصية صادرة عنه، عُقد في نيسه المجاورة لنيقوميديا (٣٢٥م) مجمع كنائسي عام وشامل. لنترك المؤرخ أوزاب يعطينا ملخصاً عن هذا الاجتماع الغريب الذي ترأسه الامبراطور قسطنطين قبل أن ينال العمادة الدينية وينضوي رسمياً تحت لواء المسيحية. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يترأس فيها مجمعاً دينياً، إذ سبق وترأس قبل ذلك مجمعاً عُقد في آرل. يقول أوزاب أن الامبراطور تصدر الاجتماع جاثماً فوق عرش من ذهب. وبما أنه كان لا يلم باللغة اليونانية، فقد اكتفى بمراقبة حركات المتجادلين ومشاهدة منازعاتهم ومتابعة وتيرة أصواتهم. فالاجتماع كان عاصفاً والجدال كان تعصبياً. فعندما انتصب آريوس العجوز ليتكلم هجم عليه كاهن يدعى نيقولا دي ميرا وصفعه، فغادر عدد كبيرٌ من الحاضرين القاعة وهو يسد أذنيه بيديه استهجاناً واحتجاجاً على ما كان يتفوه به العجوز من هرطقات وبدع. أما الفرقة التي خرجت منتصرة من ذلك الاجتماع، فهي الفرقة المؤمنة بالأقانيم الثلاثة، لأن الامبراطور كان قد سبق له أن وعدها بالتأييد والدعم.

وفي الحقيقة يقول جارودي «إن مسائل الدين والإيمان لم تكن السبب الأساسي الذي كان يرمي إليه قسطنطين من وراء عقد مجمع نيسه، بل كان هدفه سياسياً يرمي إلى توحيد البلاد حول عقيدة واحدة لأن خطر المنازعات العقائدية ينال من وحدة الامبراطورية ويهددها بالتفتيت». فمن ناحية، نجح قسطنطين بالإبقاء على قدر من الوحدة بفضل تأييده لنظرية الأقانيم الثلاثة على حساب المقولات الهرطوقية، ولكن من ناحية أخرى كرّس انقسام المسيحية إلى فرق كل واحدة تتهم الأخرى بالهرطقة.

أما الحاكم الآخر الذي طبع الدين المسيحي بطابع عدم التساهل العقائدي ونفخ فيه روح التحدي والمكابرة فهو الامبراطور تيودورز الكبير(٣٧٩ ـ ٣٩٥) الذي حرم المسيحيين غير الأرثوذكس من عقد الاجتماعات، وسمح للمثلثين (أي المنادين بالأقانيم الثلاثة) بأن يستولوا على الكنائس كافةً وأمر بهدم كل معابد الوثنيين في أرجاء الامبراطورية

كلّها. وفي عام ٣٩٠ هدم أيضاً تمثال سيرابيس المنصوب في الاسكندرية فضلاً عن إحراق مكتبتها الشهيرة.

ومنذ ذلك العهد أصبح لكل فرقة من الفرق الدينية المنبثقة عن الدين المسيحي قانونها الخاص وطابعها المميز. وهكذا بدأت الأكثرية، المتمثلة بفرقة المثلثين تسوم الأقليات العذاب والاضطهاد وتحرم عليهم مزاولة النشاطات الدينية والاجتماعية.

وفي القرن السابع الميلادي كان عرب سوريا يدورون في فلك نفوذ هذه الفرقة أو تلك حسبما كانت تمليه عليهم سواء مصلحتهم الخاصة أمْ تعاطفهم العرقي أو روابط النسب والقرابة. كانوا كلهم يتكلمون اللغة نفسها رغم الاختلافات الطفيفة الناتجة عن اللهجات المختلفة. وبالرغم من أن ظروف الحياة كانت تفرض على البعض أن يكون بجانب تلك الدولة، وعلى البعض الآخر أن يتحالف مع دولة أخرى مناوئة، إلا أن الروابط فيما بينهم ظلت متينة وأواصر القربى شديدة أقوى وأمتن مما كان يتوهم البعض.

وهكذا، ففي عشية الفتوحات الإسلامية كانت شيع مسيحيي الشرق تعيش في جو من المشاجرة الكلامية ومن المنافسة اللاهوتية، غالباً ما كانت تتحول في غمرة المصالح الاقتصادية والانتماءات السياسية إلى معارك طاحنة أو إلى أعمال انتقامية في حملات ردعية من قبل سلطات الامبراطورية. وكانت فرق الأقليات تأمل في التخلص من هذا الاستبداد على يد مخلص قوي ينتشلها من هذا الجحيم. وهكذا يقول رو (Roux): «فإن مسيحيي الأقنوم الواحد، المغلوبين على أمرهم تحت نير عرش امبراطوري جشع ومتعطش للمزيد من الضرائب، مستبد لا يرحم ولا يشفق، استقبلوا المسلمين الفاتحين كمحررين. ففتحوا لهم أبواب مدنهم ولم يترددوا عن التعاون معهم».

عوامل عديدة ومختلفة لعبت دوراً مهماً في تنسيق العلاقات بين الفاتحين المسلمين من جهة وبين الشعوب المسيحية من جهة ثانية. فمشاعر هؤلاء المبثوثة ضمن كتاباتهم لم تكن تتعلق بظروف حياتهم الجديدة بعد

الفتح الإسلامي فقط، بل وخصوصاً بطريقة تعاملهم مع باقي الفرق وتعامل المسلمين مع كل منها. «ففي الواقع، يقول دوسيلييه Ducellier، إن الفرق المسيحية كانت تتسابق لتفوز بالحظوة عند المسلمين: فالذين كانوا ينالونها، بدوا معتدلين وواقعيين في كتاباتهم عن الإسلام وعن معاملة المسلمين لهم، أما الذين كانوا يفشلون بالحصول عليها، فقد استرسلوا في وصف مرارة خيبتهم، وفي تصوير المنتصرين من خلال مشاعر قاتمة وحقودة. وبسبب هذه المنافسة احتدمت مشاعر الضغائن المتوارثة من عهد البيزنطيين. وهكذا فإن المالكيين الذين كان لهم امتداد في البلاط البيزنطي لم يتوانوا عن الحط من سمعة الأقباط باتهامهم بالتحالف مع العرب أثناء الفتوحات».

ب ـ في بلاد فارس

في عهد سيروس، صار الدين الزرادشتي ينمو شيئاً فشيئاً على حساب عبادة الآلهة المحلية سواء في نينوى أم في بابل. كان زرادشت من أصل آري وُلد حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد. جمعت تعاليمه ومبادؤه في كتاب عُرف باسم «زندافستا»، وفيه سيرة كاملة حول صراع قائم بين هرمس إله النور والحقيقة والصراحة والشمس وبين أهريمان إله المكر والخداع والظلام والليل. ومع وصول أردشير إلى سدة الحكم حوالى عام ٢٢٧ أصبح هذا الدين دين الدولة الرسمي ورئيسه يحتل المرتبة الثانية بعد الملك مباشرة. ولكن حالة الغليان العقائدي والمشاجرات الدينية التي كانت رائجة في ذلك الزمن، حالت دون سيطرة الزردشتية على بلاد الفرس، ليس بسبب الدين المسيحي فقط الذي أخذ ينتشر شرقاً، بل لأن نزعات جديدة منبثقة عن الأفكار المتداولة في ذلك الوقت أخذت تروج وتنتشر. من أهمها:

١ ـ الميتراوية

ميترا هو إله النور إنبثق عن هرمس بطريقة عجائبية، تقريباً كما ينبثق الأقنوم الثاني عن الأول في الثالوث المسيحي. ومع حملات بومبيوس الكبير انتشر هذا الدين في أوروبا وظل معمولاً به منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى عهد قسطنطين الكبير.

٢ ـ المانوية

أصبح متداولاً في القرن الثالث الميلادي، بفضل مؤسسه مانيس، ابن أحد المتعصبين الدينيين، الذي نشأ في جو من المشاحنات والمشاجرات الدينية. ومثله كمثل باقي البدع الدينية الرائجة في ذلك العهد، فإن تعاليمه كانت نوعاً من جمع بعض ما كانت تقول به أديان ذلك الوقت وصهرها في قالب خاص للحصول على مزيج يرضي أكبر عدد ممكن من الناس. وكان مانيس يعلن أنه لم يأتِ بدين جديد، فجميع الذين سبقوه من موسى إلى زرادشت إلى بوذا، إلى يسوع، كلهم كانوا أنبياء عظام لم يخطئوا ولم يفشلوا في نشر رسالاتهم، أما دوره هو فإنه يقتصر على توضيح ما غمض من أقوالهم وإتمام ما نقص منها. وفي عام ٢٧٧ وتحت حكم بهران الأول، صُلب مانيس ولحق الاضطهاد بأتباعه ونكل بهم.

وفي نهاية القرن الخامس استوحى مزدك بعض التعاليم من المانوية وصار ينادي بالاشتراكية في الممتلكات وحتى في النساء أيضاً. . ومما لا شك فيه أن مثل هذه المبادىء كانت تشكل خطراً على مصالح الطبقة الارستقراطية والاقطاعية، لا سيما بعد أن لاقت آذاناً صاغية بين الفلاحين والمزارعين. ولم يكن من بد أمام الملك الساساني في كافاذ الأول، الذي أصيب بالهلع أمام رواج هذه الأفكار الخطيرة، إلا أن يلقي القبض على النبي الثائر ويلقي به في غياهب السجن.

وعندما بدأ النبي محمد بالدعوة إلى الإسلام، كانت الزرادشتية الأرثوذكسية (أي المزدكية) هي دين الدولة الرسمي في جميع أنحاء بلاد الفرس. أما بقية الأديان والملل فقد كانت ممنوعة، وكان أتباعها ملاحقين ومضطهدين وأحياناً كانوا يلاقون الموت بسبب التنكيل والتعذيب.

ومن ناحية أخرى، فإن العلاقة بين القوتين العظميين في ذلك العهد: بيزنطيا وفارس لم تكن على ما يرام. ففي عام ٦١٤ سقطت أورشليم في أيدي الفرس بعد سقوط دمشق. وأضرمت النار في المدينة وفي كنيسة القيامة. وفي السنة التالية وصلت طلائع الجيش الفارسي إلى ضفاف البوسفور وسقطت الاسكندرية ومصر ما بين عام ٦١٦ و٦١٩.

وبعد أن انتشى بعظمة المجد وعصفت روح الكبرياء في نفسه ظاناً أنه قد جارى سيروس الكبير في فتوحاته أو أنه فاق داريوس الأول في انتصاراته، كتب كسرى الثاني رسالة إلى غريمه هرقليوس يقول فيها: «تدعي أنك وضعت كل ثقتك بربك، فلماذا لم يأتِ لنصرتك؟ لماذا لم ينقذك من بين يدي في قيصرية Césarée وأورشليم والاسكندرية؟ ولو أردتُ، ألم يكن باستطاعتي تهديم القسطنطينية أيضاً؟ أما مسيحك، فلا جدوى لك منه وكفاك استرسالاً في الوثوق به، فلا أمل يرجى منه، فلو كان باستطاعته تحقيق شيء ما لكان أنقذ نفسه من بين أيدي اليهود الذين صلبوه».

وقد قرىء نص هذه الرسالة في الكنائس البيزنطية كي يثيرهم اليونان ويشحذ عواطفهم الوطنية والدينية. أما جواب هرقليوس على هذه الرسالة فكان الهزيمة النكراء التي ألحقها بكسرى في عام ٦٢٧، مضرماً النار في المعابد كافةً انتقاماً لنهب أورشليم.

ت ـ في إسبانيا

عندما بدأت المسيحية بالانتشار في شبه الجزيرة الايبيرية وفي جنوب بلاد الغول، في غضون القرن الثالث، جابهتها الصعاب والمشاكل نفسها التي صادفتها في آسيا وفي أفريقيا. وقد أحصى المؤرخ الاسباني إينياسيو أولاغو هذه الصعاب كالتالي:

١ ـ كان على المسيحية أن تفرض نفسها في وسط متطور لم يعانِ مآسيَ الأحداث التي مزقت سائر مناطق الغرب. وكان هذا الوسط قد حافظ على ترابط لحمته من خلال البحبوحة المادية والتطور الثقافي.

٢ ـ في المناطق الأخرى هدمت الحروب الأهلية كل شيء وأحرقت نارها الأخضر واليابس. وكان من أسباب إشتعالها وصول البرابرة إلى سدة الحكم، وليس الغزوات أو الأسباب الخارجية الأخرى كما يدعي البعض.

٣ ـ كان العرب يعيش في فراغ فكري تام، فراغ شبيه بفراغ العالم الطبيعي.

٤ ـ وبما أن الفكر يأبى الفراغ، شأنه في ذلك شأن الطبيعة، فإن الغرب أخذ يستمد الأفكار من الشرق، المكان الوحيد في العالم الذي كان يفكر في ذلك الوقت.

٥ ـ الحركات التي فشلت ولم تتمكن من الازدهار في موطنها الأصلي، هاجرت إلى الغرب حيث وجدت الأرض الخصبة والمناخ المثالي وكانت المسيحية في عداد هذه الحركات، مسيحية الأقانيم الثلاثة على الأقل.

٦ ـ لم تكن المسيحية المنبثقة عن مجمع نيسه هي الوحيدة التي فازت بكسب النفوس بل كان هناك باقي الفرق والهرطقات الدينية. وكانت الأريانية أوسعها انتشاراً.

٧ ـ اعتنقت المناطق الغنية والمتطورة في الخليج الايبيري مبدأ الأقنوم الواحد، بينما اعتنقت المناطق المتأخرة والفقيرة مبدأ الأقانيم الثلاثة.

٨ ـ في عهد المجمع الديني الرابع الذي عقد في كليكلة في عام ٦٣٣، أي عشية الفتح العربي، لم تكن الطقوس المسيحية موجودة في كل أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية، إذ أن قوانين هذا المجمع أظهرت أن عدداً كبيراً من المسيحيين كانوا يبحثون عن كل ما هو جديد وغريب. وما ان قارب القرن السابع على الانتهاء حتى كان نجم الأرثوذكسية قد مال نحو الأفول.

٩ ـ ويختتم أولاغو بحثه متسائلاً: ولماذا الاستغراب إذن من اعتناق عدد كبير من المسيحيين للدين الإسلامي في مطلع القرن التالي (أي الثامن)؟

وفضلاً عن الفرق والبدع الدينية المنبثقة عن الدين المسيحي والتي انتشرت في بيزنطيا وفي أفريقيا، فإن شبه الجزيرة الايبيرية كانت حقلاً خصباً لانتشار مذهبي العرفان والبريسلاّنية.

كان مذهب العرفانية حركة فكرية نشيطة ومتقشفة جمعت حولها عدداً من الفرق المختلفة والمتباينة وقد نشأت عن مزج بعض التقاليد القديمة مع

أفكار مستوحاة من الرسالات الحديثة. وحسب القديس حنا كريزوستوم، فإن التابع لهذه الحركة يعرف باسم «العرفاني» لأنه يدعي حصوله على قدر من المعرفة يفوق ما لدى الآخرين. إن هذه الثقة بالنفس تعود إلى اعتناق بعض التقاليد القديمة والتي كانت جزءاً من أديان غابرة تناقلها كهنة إيزيس أو مجوس الكلدان لا سيما ما يتعلق منها بالأمور الماورائية والأسرار الغيبية. وقد بلغت هذه الحركة أوج عزها في القرنين الثالث والرابع وانتشرت انتشاراً واسعاً في أنحاء شبه الجزيرة كافةً، وهذا ما حال دون مجمع إليبيريس (Ilibéres) الديني وشجبها، لكن مجمع سرقوسطة لم يلتئم في عام ٣٨٠ إلا ليستنكرها وينزل عقوبة الحرمان بإثنين من كهنتها.

كانت هذه الحركة تدعي أن الخلاص لن يكون إلا عن طريق معرفة النفس البشرية معرفة عميقة وصحيحة، لأن هذه المعرفة وحدها هي السبيل الوحيد والأكيد لمعرفة الذات الإلهية. وكانت من ناحية أخرى تستند إلى بعض النظريات والمقولات التي تدعو إلى إبدال الحقيقة المسيحية بنظريات ميثولوجية أو بمقولات رمزية كي تجعل من مبدأ الفداء حركة عرفانية وشمولية تتوصل إلى الكشف عن أسرار كل ما هو مخلوق أو غير مخلوق. وقد نشأ في داخلها مدارس عدة فكرية، لكل منها طريقتها الخاصة بها للتوصل إلى المعرفة ومن ثم إلى النجاة.

ثم أخذت حُمّى الهوس بالتوصل إلى المعرفة كما روجت له هذه الفرقة، تتضاءل شيئاً فشيئاً لصالح فرقة أخرى قائمة على العقلانية هي البيريسيلاّنية التي انتشرت أخيراً لتشد من أزر النظرية الأريانية.

وُلد بيريسيليان في عائلة عريقة، وقد تعمد في مرحلة متأخرة من شبابه، لأن معظم أفراد عائلته كانوا وثنيين. وأجمع المؤلفون على أنه كان حاد الذكاء ويتمتع بمواهب عديدة. ومما يلفت النظر أنه قضى معظم عمره خارج السلك الديني، فلم يناد به قوم أفيلا راهباً إلا في المراحل الأخيرة من حياته. وقد أعدم في العام ٣٨٥. وكانت هذه هي المرة الأولى وليست الأخيرة التي يصدر فيها عن محكمة مدنية حكم بالإعدام على مسيحي لأنه

عبّر بحرية عن آرائه الدينية. وانتشر خبر إعدامه في نواحي البلاد كافةً، فأسرع أتباعه إلى إكس لاشابيل وأخذوا جثته ودفنوها في جاليس مسقط رأسه. وقد نجحوا في إكمال رسالته وتأليف فرقة عرفت نجاحاً كبيراً. إن الأفكار في الغالب تعيش أكثر من الذين نادوا بها.

لقد أراد بريسيليان أن يبني أفكاره على بدعة تتعلق بشخص المسيح وليس برسالته أو تعاليمه، وأراد أيضاً أن يترك لأتباعه حرية الانتقاد والتعبير عن الأفكار بعيداً عن كل قسر أو إكراه، فالمسيحية بالنسبة له، هي دين قائم على الرمز المطلق. وأفكاره تتلخص في ما يلي: «الرمز هو من صنع الله».

أما في أيامنا هذه، فإنه من الممكن شرح هذه الفكرة بالطريقة التالية: إن الأسطورة وما فيها من خيال هي أهم من الأحداث وما يرافقها من وقائع. تطبيقها في ميدان الأديان يجعلها تعني إن بفعل تأثير الأسطورة يتمكن الإنسان من سماع صوت الله يتردد في روحه نافحاً الإيمان في قلبه.

فكرتان في هذه البدعة تلفت الانتباه:

١ ـ فكرة تلطيف وتبسيط مبدأ الأقانيم الثلاثة.

٢ ـ فكرة الارتكاز على معطيات العقل وقدراته.

أما البدعة نفسها، المنبثقة عن العرفانية، فيمكن تلخيصها كما يلي:

١ ـ من الممكن الارتقاء لبلوغ الذات الإلهية بواسطة المعرفة والحضور المباشر.

٢ ـ يسوع لم يكن إلا نبياً عظيماً.

بدع أخرى شبيهة ودقيقة انتشرت في شبه الجزيرة الايبيرية خلال النصف الثاني من القرن الثامن، كتلك مثلاً التي نادى بها فيليكس، أسقف أورجيل (Urgel) أو تلك التي أنشأها ايليباند (Elipande) الملحق بمطرانية طليطلة، وكلتاهما تقولان إن المسيح لم يكن إلهاً بل كان إنساناً تبناه الإله.

ومن ناحية أخرى، فإن المدعو ميجيسيوس Migicius، ذلك الإنسان الغريب الأطوار، اجتهد ما بين سنة ٧٧٤ وسنة ٧٨٥ أن يبرهن، معتمداً على

الكتب الإلهية، أن الثالوت الأقدس كان مؤلفاً من داوود ويسوع والقديس بولس. وهذا ما اضطر البابا أدريان الأول إلى إيفاد رسول يدعى إيجيلا (Egile) لانتشال المؤمنين من الضلال والعودة بهم إلى جادة الصواب.

وأخيراً، فإن بعض الفرق نفت عن المسيح صفة الألوهية مستندة إلى الآية التالية التي وردت في انجيل متى:

«أما ذلك اليوم وتلك الساعة (نهاية العالم) فلا يعلم بهما احد،
لا ملائكة السماوات ولا الابن، إلا الأب، الأب وحده».

[متّى ٢٤/٣٦]

وقد تكبد، حتى المتخصصون في الشعوذة الدينية، عناء كبيراً قبل أن يتوصلوا إلى إجلاء غموض هذه الآية.

بدأت المنافسة الدينية بين المنادين بالأقنوم الواحد وبين المؤمنين بالثالوت الأقدس تأخذ منحىً سياسياً منذ مطلع القرن الثامن. وقد تحولت فيما بعد إلى حرب أهلية شرسة اكتسحت شبه الجزيرة الإيبيرية ومقاطعات الجنوب الفرنسي.

الفصل

السادس

اليهودية عشية الدعوة الإسلامية

بعد ستة قرون من مجيء المسيح وانسلاخ المسيحية عن اليهودية، وانتشار المسيحية في الأصقاع كافةً. بعد ستة قرون من العداء المستحكم بين الدينين، لا بد للباحث أن يتساءل، ماذا بقي من اليهودية وماذا بقي لها؟

بقي لها ما كانت تعتبره الأهم أي:

١ ـ إيمان توحيدي لا يتزعزع، مبطن بتعصب قومي متزمت.

٢ ـ شريعة موسى التي أضحت الأساس بعد تهديم الهيكل.

٣ ـ انتظار المسيح الموعود، لأن الذي أتى لم يكن الحقيقي. لا سيما وأنه خلّف وراءه تأرجح في الآراء حول اليهود وما بين شعب مختار و «شعبٍ مغضوب عليه».

١ ـ قومية متزمتة

عشية ظهور الإسلام كان اليهود يلتفون حول قومية متعصبة وعلى قدر كبير من فظاظة الأخلاق وشراسة المواقف. الحاخام أليعازر، وهو في صدد شرح وتأويل مقطع من مقاطع كتاب التثنية، جعل الله يقول في تعليقه على

بعض الآيات موجهاً ملامته لليهود: «وكما أنكم تعترفون بأنني الإله الوحيد في هذا العالم، كذلك أنا أقر أنكم الشعب الوحيد على سطح هذه الأرض».

الهيكل الذي دكّه تيتوس في عام ٧٠ ميلادية بقي خراباً ولم يبن من جديد. بالنسبة لإسرائيل، الهيكل لا وجود له، فلا مجال إذن لتقديم الأضحيات التي كان الهيكل رمزاً لها. وبدل الهيكل انتشرت المعابد المعروفة باسم الكنيست. وهكذا حلت العبادة محل طقوس تقديم الأضحية للرب. وبما أنه صار من المستحيل ارتياد الهيكل والتجمع فيه، أصبح من الضروري الالتفاف حول الشريعة والتمسك بها والتشدد بالدفاع عن نقاوتها خوفاً من أن تتسرب إليها شائبة من شوائب الأقوام المجاورة.

وعندما تعذر على الفكر الوطني أن ينمو ويزدهر في الهيكل وأن يتخذ منه حصناً منيعاً للحفاظ على وحدة القوم، انكفأ اليهود إلى نص الشريعة يحمونه ويحتمون به. فأطلقوا ما عرف باسم «السياج (أي السور) حول التوراة» لحماية الكتاب المقدس، واستنفروا القوم المختون ليحافظ، على حساب باقي الأقوام، على خصوصياته العرقية التي كرسته كشعب مختار وأمة مقدسة.

٢ - الهيكل والتوراة

مع اختفاء الهيكل اختفى أيضاً الكهنة المولجون بالإشراف على الذبائح الإلهية وعلى الأضاحي. أما الأول فقد أستعيض عنه «موقتاً» سواء بالمدرسة أم بالكنيست، وحلّ اللاهوتيون والكنيسة محل كهنوت الهيكل، أما الطقوس المتعلقة بتقديم الذبيحة إلى الإله في مذبح الهيكل فقد توارت هي أيضاً لتفسح المجال أمام صرامة شديدة في احترام قوانين يوم السبت وفي الالتزام بالصلاة وفي مراعاة التقيد بالصوم. أخذ الكنيست يلعب شيئاً فشيئاً دوراً مهماً في حياة يهود التيه. وأصبح المكان المفضل لعقد اجتماعاتهم المنتظمة وبث التعليمات المتعلقة بسلوك وحياة اليهود في المنفى. ومن ثمّ، ولأسباب مسلكية أو تحت وطأة ضرورة أمنية، أو خوفاً

من مداهمات سياسية، اضطر مجمع الكهنوت إلى إعداد طقوس وصلوات وعبادات تتماشى مع وجود الكنيست في غياب الهيكل، وهي في مجملها لا تخرج عن كونها ابتهالات وتوسلات وتضرعات حلت موقتاً محل ذبائح الهيكل، تطلب من الله أن يساعد شعبه المختار، «**وفي أسرع وقت، على بناء الهيكل العظيم على أرض إسرائيل الخالدة**». فإسرائيل بلا هيكل كانت موجودة في كل أنحاء العالم وعند الشعوب كافةً، ولكنها كانت إسرائيل ضعيفة، مشتتة، مبعثرة، إسرائيل غير قادرة على التحاور مع الله، إسرائيل فاقدة الاتصال المباشر مع يهوه، إسرائيل خرساء ومشلولة. فمثل إسرائيل بلا هيكل كمثل الطيار بلا لاسلكي، يهيم على وجهه حسبما تدفعه الأنواء. من هنا يجب أن يتصور العرب ضخامة التخطيط الذي تقوم به إسرائيل في سبيل بناء هيكلها مكان المسجد الأقصى الشريف. إسرائيل تعلم أن الوقت لم يحن. وهي الآن مشغولة بتفتيت العرب، وبتناحر المسلمين فيما بينهم، وبتهيئة الغرب. فهدم المسجد يتطلب عملاً مدروساً ودقيقاً يفوق ما بُذل أثناء إنشاء إسرائيل نفسها. خلق إسرائيل قد تم بنجاح. فما أن مر أربعون عاماً على وجودها حتى كانت مصر قد خرجت من حلبة القتال، ولبنان ينوء تحت ضربات إسرائيل اليومية، والإسلام يُذبح على الأرض الإسلامية بأيدي المسلمين... وهذه كلها مؤشرات على أن بناء الهيكل أضحى وشيكاً. قوة إسرائيل في تخطيطها وفي تنفيذ هذا التخطيط بدقة وصبر مهما كلفها الأمر من تضحيات ومهما كانت دناءة الأسلوب الذي غالباً ما تلجأ إليه للوصول إلى غاياتها.

نتساءل الآن: كيف كان حال اليهود بعد أن فقدوا الهيكل. لقد تمسكوا في غياب الهيكل بما يلي:

١ ـ طقوس العبادة الممكن إقامتها في الكنيست.

٢ ـ شعائر الدين الصارمة.

٣ ـ حلقة الأعياد الدينية، التي كانت في الحقيقة الرابط الأساسي الذي يجمع بين اليهود ويجعل كل واحد منهم يشعر بأنه جزء من مجموعة تبعثرت آنياً، ولا بد من لمّ شملها قريباً.

وهكذا، ترسخ في صلب اليهودية تقاليد متزمتة انحدرت بالشعب إلى التقوقع ضمن:

١ ـ مفهوم للدين ضيق الأفق

٢ ـ فكر يهودي عقيم ليس باستطاعته لا التوسع ولا الانتشار، فكر ضحل مُني بالانكماش والتآكل.

٣ ـ نظرة للدين لم يتعد مداها ما سمح به الكهنة التلموديون المتشددون.

٤ ـ حلقة صارمة تدور برتابة في فلك الشريعة وبين جدران الكنيست.

ولكن ماذا حلّ بالشريعة الناموس وكيف أصبحت؟

١ ـ لم تعد الشريعة قاعدة أخلاقية وحسب، بل أصبحت نظاماً يتقيد به مجتمع منغلق على نفسه، في سبيل الحفاظ على نقاء عرقه.

٢ ـ لقد فقدت الشريعة أبعادها السماوية، لتصبح قانوناً دموياً فقط.

٣ ـ وأصبحت سلاحاً ضد الانصهار. فبتطبيقها الصارم يتوصل شعب الله المختار إلى درء خطر التلوث من التسرب إلى عرقه النقي.

٤ ـ أصبحت السبيل الوحيد الأخير للحفاظ على استمرارية الدين. فبفضل الاجتهادات في شرح نصوص التوراة، نجح اليهودي بعزل نفسه عن باقي المجتمعات وحصّن كيانه من الذوبان.

في هذه الظروف الجديدة من التشتت والتبعثر بعيداً عن «الأرض الموعودة»، أخذ الدين اليهودي، حرصاً على استمراريته، ينحرف إلى منعطف خطير لا يزال واضحاً في سلوكه حتى يومنا هذا، وينعكس بجلاء على نفسية كل يهودي، إذ لعب دوراً مهماً في تشكيل هذه النفسية وفي خلق ميزتين، على الأقل من خصائصها:

١ ـ لا هيكل، لا كهنوت، لا ذبائح. لقد كان باستطاعة الدين اليهودي، بعد هجرته من دياره، أن يتحرر من الروابط الجغرافية وأن ينفتح في قدرات أوسع على العالم بأسره. لم يترك هذه الفرصة تفوته وحسب، بل ترك نفسه ينجرف نحو تحجر انعزالي مقيت جاعلاً من صرامة الشريعة الرابط الأساسي بين الأفراد على حساب التعاليم نفسها

والمباديء الدينية بكاملها. فحين تحررت الرسالة المسيحية من الجغرافيا ومن العرق ومن الشريعة ومن التقوقع القومي لتنتشر في جميع الجهات، فإن اليهودية حصنت نفسها بالتوراة كي لا تنصهر في باقي المجتمعات، توراة خاصة بها، رفضت أن تتقاسمها مع قوم، وأبت أن يهتدي بها شعب.

٢ ـ جاء وقت تكاثرت فيه الاجتهادات حول تفسير النصوص، وتفاقمت التأويلات في سبيل بلورة المفاهيم ودفعها باتجاه قاعدة تقول: **إن الوسيلة تبرر الغاية، وقد تحل محلها**. فشرح نصوص الشريعة صار باتجاه الأهداف التعليمية فقط، أي أن دور الشريعة أصبح دوراً اصطلاحياً أو ثقافياً أكثر من التزام ديني أو إيمان عقائدي. وعبثاً حاول الملحد اليهودي، ماركسياً كان أم رأسمالياً، أن يؤكد على أنه غير مؤمن، ولا يزاول شعائر دينية، لكن لا يستطيع التملص من الالتزام بسلوك اليهود والانصياع إلى عقليتهم، والانجذاب إلى تفكيرهم الخاص. سلوك وعقلية وتفكير يشترك فيها كل اليهود مهما اختلفت أوطانهم، ومهما تعددت لغاتهم، ومهما تباينت مشاربهم. وإذا ما تعمقنا في دراسة النفس اليهودية فإنه من السهل الإدراك أن كل اليهود يشتركون فيما بينهم بالشعور الديني، وبالرياء الاجتماعي، وبالحس الاقتصادي، وبالانتهازية السياسية، وبالنزعة العنصرية. «فعندما نسبر غور ما يقبع في قلب الإنسان اليهودي، يقول سيغفرد، فإننا نجد تلك الطقوس التقليدية وتلك الثقافة المتعددة الوجوه».

٣ ـ شعب الله المختار أم الشعب المغضوب عليه؟

ومن ناحية أخرى، فإن التباين العقائدي والاختلاف الفكري، والتناقض الاجتماعي كانت على أشدها بين اليهود والمسيحيين. فالأمة التي كانت مقدسة، والتي كانت تنادي بكونها شعب الله المختار قبل مجيء المسيح، أصبحت تُعرف فيما بعد، بالأمة الشريرة، قتلة ابن الله، الشعب المغضوب عليه. وانتقاماً لهذا الوضع الذي تردّى إليه اليهود، أخذوا يتحينون المناسبات وينتهزون الفرص لإشعال نار التنافس وإضرام نار

الاقتتال بين الفرق المسيحية المختلفة. ومن ذلك الوقت نشأت أحقاد وضغائن وتعمقت عداوة دفينة بين اليهودية والمسيحية. الأولى تنتظر مجيء المسيح، والثانية تقول إنه قد جاء. «إن صلب المسيح، يقول الكاتب اليهودي إيبستاين، قد وضع حداً لكل الآمال السياسية والوطنية التي وضعها تلامذته فيه. لقد أصيبوا بالهلع الشديد لدى سماعهم نبأ موته واحتاروا كيف يفسرون ذلك. فاضطروا إلى تهدئة روعهم بالادعاء أنه كان المسيح السماوي وأنه سوف يظهر من جديد ليحكم هذه الأرض».

إن رسائل القديس بولس كانت منبعاً خصباً لتغذية الجدال، ومصدراً غنياً لجعله لاذعاً. إن هدفه لم يكن محاربة المذهب اليهودي الفريسي فقط، بل زعزعة الثقة بالشريعة لا سيما عندما يجعل من شخص المسيح المحور الأساسي والأهم. فحسب التقاليد اليهودية والإيمان الكهنوتي، إن الله لا يكشف عن الحقيقة إلا بالتوراة أو من خلالها. بينما القديس بولس يقول إن لا حقيقة يرجى منها إلا تلك التي تأتي عن طريق المسيح: إن الشريعة إذا لم تطبق بحذافيرها وإذا لم تحترم بكاملها، فإنها تتسبب بتعريض الإنسان للخطيئة، وأن الغاية من وراء تطبيقها هي الفوز بنعم الله وعفوه. ولكن إسرائيل، بصلبها المسيح، فقدت هذه النعم، وحُرمت من العفو. وهكذا، وضع القديس بولس (الشريعة) بكاملها موضع الشك منتقداً تطبيقها الرديء. ومن ناحية أخرى، فإن اليهود لا يجدون أي مبرر لترك الشريعة، بل يؤكدون على الاعتقاد بها كطريق للخير والنجاة أكثر من النظر إليها كسبب للتدهور وللفشل.

سلكت كل من المسيحية واليهودية طريقاً مختلفاً عن الآخر بل متبايناً معه ومعاكساً له. وانغمس أتباع الدينين، في مناقشة حادة يتبادلون فيه الهجاء المقذع، وتراشقوا بالتهم المضللة. أمّا القديس بولس فقد كان واضحاً وصريحاً بقوله:

«هوذا أنت تُسمّى يهودياً وتتكل على الناموس وتفتخر بالله وتعرف مشيئته وتُميز الأمور المتخالفة متعلماً من الناموس وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين في الظلمة ومهذب للأغبياء ومعلم

للأطفال ولك صورة العلم والحق في الناموس. فأنت إذاً الذي تعلم غيرك، ألست تعلم نفسك. الذي تكرز أن لا يَسرق أتسرق. الذي تقول أن لا يزني أتزني. الذي تستكره الأوثان أتسرق الهياكل. الذي تفتخر بالناموس أبتعدي الناموس تهين الله. لأن اسم الله يحذف عليه بسببكم بين الأمم كما هو مكتوب.... الخ».

[رسالة بولس إلى أهل رومية. ٢/ ١٧ ـ ٢٤]

أخيراً يجب التذكير أن اليهودية، كما يقول ايبستاين، ترتكز على مبدأين أساسيين:

١ ـ الإيمان بأن الله واحد.

٢ ـ اختيار بني إسرائيل كأمة مقدسة لتنقل هذه الوحدانية إلى كل الأمم.

ثم يتابع الكاتب موضحاً أن: «كل التجسيدات الإلهية وكل الأفكار المغلقة بحلول الإله في جسد إنساني، تسيء إساءة كبيرة إلى الإيمان اليهودي **بالإله الواحد** وتتعارض معه تعارضاً تاماً مهما توخت أن تكون جليلة. ومهما اجتهدت لتظهر بمظهر المفرطة بالدقة والملتزمة بالنبل والورع. ويختم الكاتب قوله: مرفوض من الدين اليهودي، ليس كل الاعتقادات الثنائية أو الوثنية وحسب بل وخصوصاً ـ الثالوث في الوحدانية ـ كما تنادي به المسيحية. ومهما تعددت الاجتهادات والتأويلات للتأكيد على أن الثالوث المسيحي هو نوع من أنواع التوحيد وأنه لا يتعارض مع الإيمان بالله الواحد فإن النظرة اليهودية إلى هذا الثالوث تظل نظرة شجب واستنكار وتبقى متعلقة بالإله الواحد الأحد الذي منذ البدء اختار إسرائيل لتكون في خدمته، كشعبه المختار».

* أديان العرب قبل الإسلام

كان البدوي مادياً وواقعياً، لذلك لم يكترث كثيراً بالخوض في غمار الماورائيات. يكفيه اعتقاده أن الأرض كانت مملوءَة بالأرواح المسماة جناً. نعم كانت الجن غير منظورة، ولكنها أحياناً كانت تأخذ شكل بعض

الحيوانات. أما الأموات فإنهم، حسب الاعتقاد السائد في الجزيرة العربية، يتابعون الحياة بشكل مترد ويتنقلون على طريقة الأشباح. وعلى الأحياء تقديم الذبائح لهم ورفع الأحجار التذكارية فوق قبورهم. الآلهة تسكن في السماء، بعضها يظهر على شكل نجوم. أما المهمة منها والجديرة بالتقديس فإنها كانت معروفة في كل أنحاء شبه الجزيرة، منها مثلاً الله أي الإله أو الإله الذي يمثل العالم السماوي في أتم وأبهى وأسمى أشكاله، فهو خالق الكون بكامله والمعني بالإيمان وبالعبادة. ومن ثم كان هناك ثلاث آلهة تحتل مكان الصدارة على أنها «بنات الله». الأولى «اللات» وهي مؤنث الإله، وتمثل وجهة من وجوه كوكب الزهرة، نجمة الصباح، وهي إلهة بني ثقيف. ثم تأتي «العزة» أي صاحبة القدرة وكانت آلهة بني قريش. وأخيراً «منات» التي كانت تحمل المقص لتقطع به مصائر البشر والتحكم بها فكان لها معبد خاص بها، وكانت آلهة الأوس والخزرج في المدينة.

أما في مكة فكان هناك «هُبل» الكبير المصنوع من عقيق أحمر. وغالباً ما كانت العبادات مرفوقة بتقديم الأضاحي والذبائح التي لم يكن مستبعداً في بعض الأحيان أن تكون من البشر.

وابتداءً من مطلع القرن الخامس بدأ تأثير الديانتين: المسيحية واليهودية يبدو واضحاً في المجتمع العربي داخل شبه الجزيرة نفسها. يهود ونصارى كانوا قد استقروا في أهم البوادي داخل الصحارى على شكل تجمعات لها نفوذها وكيانها.

النصاري، كان لهم كنائس عديدة في نجران المدينة التجارية المهة الواقعة تقريباً في وسط شبه الجزيرة. أما اليهود فكانوا قد استقروا في ربوع مكة حول خيبر ومن ثم حول يثرب التي تعرف الآن بالمدينة المنورة.

ففي حين كانت الطوائف المسيحية تعيش مبعثرة لا رابط يجمع بينها وبين أتباعها الجدد من بين الرقيق الأحباش أو الصنّاع المغمورين، ضمن نشاط محدود جداً خوفاً من تفجر الصراعات الكهنوتية، فإن الطائفة اليهودية، على العكس من ذلك، كانت مؤلفة من طوائف عدة مترابطة

ومتماسكة فيما بينها ولها تأثير كبير على مجرى مختلف النشاطات الاجتماعية، ولكنها كانت حريصة حرصاً شديداً في ما يتعلق بالدعوة إلى الدين ونشر الرسالة. «عملياً، يقول إيبستاين، فإن الدين اليهودي الرسمي لم يبذل أي جهد ولم يحاول من خلال أية مبادرة، فردية كانت أم جماعية، نشر الدين والدعوة إلى الإيمان وكسب المؤمنين الجدد، ذلك أن تعاليم اليهودية تخص الشعب اليهودي وحده، وما كانت في يوم من الأيام موجهة إلى بقية شعوب العالم، إنها ملك الشعب المختار والأمة المقدسة».

فعشية الدعوة الإسلامية كانت بعض القبائل اليهودية الرحل، قد استوطنت في قلب الجزيرة حول يثرب، وبنت لنفسها مواقع حصينة. ومما لا شك فيه أن وجود الديانتين السماويتين في قلب الجزيرة جعل عرب الصحراء يشعرون أنهم متأخرون دينياً فآلهتهم لم تعد تتماشى وتطور العصر، ودياناتهم لا تتوافق ومفاهيم العقائد الجديدة. وكانت بعض النفوس الطاهرة، وبعض العقول النيرة تدرك أن شيئاً ما سوف يحدث وأن تغييرات كثيرة سوف تقلب الموازين.

اجتمع أربعة رجال بعيداً عن الجموع الغفيرة التي تؤم مكة كل عام لتتبارك بالأوثان وتتعبد للأصنام. وأقروا أن مواطنيهم هم في غفلة عن إدراك الحقيقة، وأن المواكب التي يتسابقون للسير في ركابها ما هي إلا الدليل الساطع على الضلال الذي هم فيه غارقون، فكان لا بد من الاعتراف بواقع الحال: إذ بالرغم من وجود عدد كبير من الطوائف اليهودية المبعثرة هنا وهناك، وعلى الرغم من انتشار الفرق المسيحية في البوادي كافةً، فإن غالبية الجزيرة العربية بقيت وثنية تعبد الأصنام وتتسابق في اختراع الآلهة، فانتشار الأديان التوحيدية لم يؤثر على المفاهيم المتعارف عليها ولم ينل من قوة سلطان الوثنية. لذلك قرر الرجال الأربعة[١] الخروج من ديارهم والتجوال

(١) هؤلاء هم: ورقة بن نوفل، وعثمان بن حويرث، وعبيد الله بن جحش، وسعيد بن عمرو.

في الأصقاع النائية طلباً للمعرفة وبحثاً عن الحقيقة حتى الوصول إلى معرفة الإله الوحيد، إله الجزيرة العربية.

كان ورقة مطلعاً على الديانتين اليهودية والمسيحية، وكان مقتنعاً، حسب اعتقاد واسع الانتشار، أن رسولاً مفوضاً من قبل السماء سوف يظهر قريباً حاملاً معه شريعة موجهة إلى الأمم كافةً وخصوصاً الأمة العربية. فقفل عائداً إلى دياره مقتنعاً أن هذا الرسول سوف يخرج من صلب الأمة العربية ومن وسط الجزيرة نفسها.

وكان عثمان، وهو في تجواله في أقصى الديار، قد اقتنع أن رسالة المسيح كفيلة بأن تخرج أمة العرب من الضلال، فقصد القسطنطينية حيث تعمد واعتنق المسيحية. ولكن مبادرته ظلت مبادرة فردية ولم تتعد حدود الخصوصية الضيقة، إذ ان باقي القبائل العربية بقيت على ما كانت عليه دون أن تكترث بعثمان أو بما طرأ على أفكاره من تغيير.

وظل عبيد الله فريسة للشك وعرضة للتغيير إلى أن تناهى إليه نبأ ظهور النبي محمد في الجزيرة فقرر اعتناق الإسلام، إلا أنه عاد وغير رأيه واتجه في الطريق نفسها التي سلكها عثمان.

أما سعيد، فقد أصبح موضع ارتياب وشك أهل مكة بسبب مهاجمته العلنية لآلهتهم وتحقيره أوثانهم وانتقاده تطيرهم، فاضطر للهجرة إلى ما بين النهرين. وعندما أخبره أحد أصدقائه القسيسين أن نبياً قد ظهر في الجزيرة العربية، قفل عائداً إلى وطنه. لكنه وقع في الطريق بين أيدي زمرة من اللصوص. فقتلوه واستولوا على ما كان في حوزته.

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات الفردية، والاحتكاكات المباشرة مع الديانتين التوحيديتين، وعقم الوثنية وارتكازها إلى طقوس جامدة وبالية، فإن الجزيرة العربية بقيت محافظة على تقاليدها الغابرة تجتر طقوسها، وترمم أوثانها وتحصي آلهتها.

ولا بد من الإشارة من ناحية أخرى، إلى أن المنافسة كانت على

أشدها في ربوع مكّة في مطلع القرن السابع بين تجمعين مختلفين في النظم الاجتماعية وفي نظرتهما إلى الأمور الحياتية: البدو في الصحراء ينتمون إلى القبيلة، والحضر في الواحات، تلم شملهم المدينة. التجمع الأول يرتبط برابط الدم، والعرق، والتضامن، والشرف، والكرم والشجاعة وكان ضمن هذه الدائرة يحقق ذاته ويبني آماله ويقضي عمره. أما الثاني فقد كان قائماً على الملكية الخاصة، وعلى تكامل الأعمال، والزراعة والصناعة اليدوية، وعلى التجارة ضمن تسلسل طبقي وسياسي تروج فيه المنافسة، وعدم المساواة وتتحكم فيه الأطماع وتتفشى غرائز حب التملك، وتنتشر نزعة حب التسلط والسيطرة.

لقد كان الجو الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي جو تململ وترقب وكانت الحاجة إلى تغيير جذري تبدو ضرورية وملحة في مرحلة يتصدع فيها التاريخ وينهار ومن ثم ليعود إلى الاستقامة، ليس في الجزيرة العربية وحدها، بل في أنحاء المعمورة المعروفة كلّها في ذلك الوقت.

الفصل
السابع

ظهور الإسلام

مما لا شك فيه أن عالم القرن السابع كان عالماً يرزح تحت عبء أزمة فكرية حادة.

فبعد سطوع الفكر الإغريقي وبلوغه القمة بمجيء المسيح، انحسر النفوذ العبري وانكمشت اليهودية على نفسها متقوقعة وراء قومية ضيقة الأفق، سلبية السلوك، عنيفة التحدي. وكان همها شن الحملات العنيفة والخبيثة ضد المسيحيين، مرة عن طريق التهجم على المسيح نفسه ومرة أخرى من وراء توجيه التهم الشائنة إلى مريم.

أما المسيحة نفسها، فكانت منقسمة إلى فرق متباينة وتسعى إلى وحدة دينية ضمن مجتمع واحد سواء عن طريق الإقناع والإتفاق أو عن طريق الردع والحسم.

فلأجل وضع حدٍ لطقوس يهودية متحجرة، وفي سبيل ردع تحزب مسيحي دامٍ، نادى نبي الإسلام بإيمان بسيط ولكنّه قوي وواضح وأرسى قواعد مجتمع جديد، منفتح، حر وموحّد. «لقد أتى الإسلام، يقول جعيط،

ليسيطر على القلق السائد ويمحو الكآبة المتفشية. فنظرته العقلانية العامة ليست محل نقاش أو موضع نزاع».

ولا بد من التذكير أيضاً إنه عشية الدعوة الإسلامية، كانت الحروب المتتالية قد أنهكت عملاقي ذلك العهد: بيزنطيا وبلاد الفرس. لقد كانا على شفـا هاويـة من الانهيار التام بسبب نظام اجتماعي أفلس من شدة الظلم وكثرة الرشوة وانتشار الفساد؛ وبسبب عقائد دينية أيضاً ناصبت بعضها البعض العداء ضمن حلقة جهنمية من التنكيل والاضطهاد ومن الجور والطغيان.

في غمرة هذه الأحداث كلّها، بدا واضحاً أن ظهور دين جديد وخلق مجتمع حديث أصبحا ضرورة لا بد منها. فالعالم بأسره كان في حالة من الانتظار والترقب، وكان ينتظر حلولاً لمشاكله ومخرجاً لأزماته. إن الثورة التي أتى بها القرآن، وتفجرت في وسط الجزيرة العربية، أعطت للحياة معنىً جديداً، وأشعلت أمام الشعوب الضالة أمل مستقبل منير، ونفخت في نفوس الأقوام المتحاربة روح إيمان عميق قائم على المحبة والعدل والمساواة، ومستمدٍ من المنطق والوضوح والعقل. فقد أتى الإسلام بمقترحات جادة ورصينة لإيجاد حلول لنوعين من المعضلات المستعصية:

١ ـ المعضلات الدينية.

٢ ـ المشاكل الاجتماعية.

كانت الخصائص الروحية والميزات العقلانية التي يتمتع بها الدين الجديد، متوقعة ومرتقبة. فقد كان العالم في ذلك الوقت بحاجة ماسة إلى دين يهتم في الوقت نفسه بالأسرار السماوية وبالمجتمعات الدنيوية. وكان على هذا الدين الجديد أن يسمو فوق أنانيات هذا العالم. وأن يمنح المجتمع الإنساني نظاماً يجمع بين صرامة تعاليم اليهودية والمسيحية وتطلعاته نحو المساواة والعدل والتسامح. وقد تمكن الإسلام بفضل تعاليمه ونظرته الجديدة إلى الإنسان والعالم أن يحمل إلى كل إنسان وإلى كل مجتمع مشروع أمل يستمد مبادئه من ماديات هذه الدنيا ومن روحانيات السماء.

وهذا ما أحدث ثورة جذرية في المفاهيم والقيم امتدت آثارها خارج الجزيرة العربية.

لقد حسم الإسلام موقفه من المعضلات الدينية سواء ما كان منها متعلقاً باليهودية أم بالمسيحية.

الإسلام واليهودية

اتخذت الدعوة المحمدية موقفاً حاسماً من اليهودية لا سيما في ما يتعلق بخصوصية الشعب اليهودي وادعائه أنه شعب الله المختار، وفي ما يخص المسيح وأمه اللذين أصابهما التحقير والذم والشتم على لسان كهنة اليهود.

أ ـ عالمية الإسلام

على العكس من المفهوم اليهودي الضيق والمتزمت، الذي جعل من إله الكون والأرض والسموات رباً خاصاً يسهر على مصلحة قبيلة واحدة ويهتم برعاية عرق واحد، فإن الإسلام حمل رسالة الله إلى الشعوب كافة ومختلف العروق على تباين ألوانها وتعدد ثقافاتها بدون أي تمييز بينها:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

[سبأ ٣٤/٢٨]

وبوضوح أكثر وبدقة أوفر تقول الآية التالية:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

[الأعراف ٧/ ١٥٨]

ويحثهم جميعاً على أن يكونوا إخوة:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

[الحجرات ٤٩/ ١٠]

لأن الناس، مهما كانت أصولهم، ومهما كانت القبيلة التي ينتمون إليها، فكلهم منبثقون من عرق واحد لأنهم يتحدرون من نفس الذكر ومن ذات الأنثى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

[الحجرات ٤٩/ ١٣]

كان لهذه الأفكار العالمية والإنسانية الجديدة أكبر الأثر على «بني إسرائيل»، «الشعب المختار»، و «العرق المقدس» إذ قلب الإسلام كل المقاييس المتعارف عليها، باتخاذه السلوك والأخلاق والتقوى والورع أساساً لتصنيف البشر بدل العرق أو الدم أو المركز. كما أحدث ثورة شاملة في النظرية المتعلقة بالنبوة التي كانت حكراً على نسل واحد بدءاً من إسحق وصولاً إلى المسيح، عندما اعترف صراحة بوجود أنبياء ورسل عند الشعوب الأخرى غير السامية:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾.

[غافر ٤٠/ ٧٨]

وإن:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

[يونس ١٠/ ٤٧]

وهكذا، مهما كان نصيب المرء من السلطة والنفوذ، ومهما كان أصله وقبيلته، ومهما كان عرقه ودمه، فإن من يدخل في الدين الجديد عليه أن يلتزم بالإيمان الذي ينص على كون «جميع المؤمنين أخوة»، وعليه أيضاً أن يتقيد بالحديث الشريف الذي يحذر من الوقوع في مخاطر الكبرياء العنصري:

«إنما المؤمنون أخوة سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

وهكذا نفى الإسلام نظرية «الشعب المختار» وكسر طوق «الإله الخاص بقوم واحد» وأتى بمفاهيم جديدة تنادي بالمساواة والأخوة والعدالة بين البشر وبعالمية الدين والإيمان.

ب ـ الإسلام واليهودية والمسيح

من حيث المبدأ فإن يسوع كان «مسيح» اليهود المنتظر. ولكن هؤلاء أنكروه وانقلبوا ضده. ومن ثم افتروا عليه ونددوا به وبوالدته. فوقف القرآن الكريم موقفاً صريحاً من هذا الافتراء المشين: فردّ إلى المسيح وإلى والدته اعتبارهما ومكانتهما السامية وأنب اليهود تأنيباً عنيفاً بسبب نقضهم المواثيق:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

[النساء ٤/ ١٥٦]

فالقرآن الكريم يضع مريم فوق النساء كافة:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

[آل عمران ٣/ ٤٢]

ويشهد أن الله وهب المسيح أفضل الصفات:

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

[البقرة ٢/ ٨٧]

وجعله من المقربين:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

[آل عمران ٣/ ٤٥]

ولكن اليهود أنكروه:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

[البقرة. ٢/ ٨٨]

فقيل لهم:

﴿ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

أجابوا:

﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾.

[البقرة ٢/ ٩١]

ولم يغب عن المسيح ما يرمون إليه:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران ٣/ ٥٢]

أما اليهود فقد أنزل الله بهم العقاب لكفرهم:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾.

[النساء ٤/ ١٥٧]

لقد حسم القرآن الخلاف القائم بين المسيحيين واليهود في ما يتعلق بقدسية ومكانة وطهارة المسيح وأمه مريم، لكنه ترك لله الحكم الأخير والفاصل في ما يدور بينهم من الخلاف:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

[البقرة ٢/ ١١٣]

«شعب الله المختار»، «الشعب المغضوب عليه»، «الأمة المقدسة»، «قتلة ابن الله»، «لقد أتى المسيح»، «المسيح لم يأت بعد»... الخ. هذه بعض الخلافات التي أشعلت الجدال والمناقشة بين المسيحيين واليهود. جدال كثيراً ما أسفر عن مآس أو انتهى بمبارزات دموية.

أما اليهود فموقفهم في هذا الخصوص ما زال على ما كان عليه صريحاً، حاسماً ومتحدياً. نسمع كاتبهم الشهير إيبستاين يقول: «لا مكان في اليهودية لعقيدة تؤمن بإله يموت ثم يُبعث».

إن الفكر الإسلامي اتجه منذ نشأته، إلى إيجاد أرضية مشتركة للحفاظ على توازن دقيق بين التيارين المتباينين دون أي تساهل في ما يتعلق بقدسية وطهارة ومكانة المسيح ووالدته. فمن خلال هذا الموقف الإسلامي الصريح من عيسى ووالدته، من الممكن إيجاد خيط قوي وأساسي يمكنه وصل الإسلام بالمسيحية.

ت ـ الإسلام واليهودية وإبراهيم

منذ إسحق وحتى ناحوم (حوالى أربعين نبياً في غضون تسعة أو عشرة قرون) كانت النبوة والدين والسلطة مقتصرة على المتحدرين من «العرق المختار، أبناء وأحفاد إسحق ابن إبراهيم من زوجته الشرعية سارة على حساب الابن البكر إسماعيل، ابن الجارية الذي طُرد إلى الصحراء ونسيه الله وكذلك إخوته لا لمعصية ارتكبها ولا لذنب اقترفه إلا لكونه ابن الجارية.

ومع مرور الوقت وتأكيد خصوصية السلالة الإسحاقية، تكرس وضع غريب من العنصرية الحادة والتفرقة الجائرة بين سلالة أخوين شقيقين متحدرين من أب واحد هو إبراهيم. وفيما يخال للإنسان أن بعض الأمور قد تأكدت وثبتت وكادت تصبح أبدية، إذا بمفاجأة حاسمة تعيد التوازن إلى ما أصيب بالخلل، والحق إلى من لحق به الضيم والأجحاف.

أمام الحلقة العنصرية التي فرضتها اليهودية، اتخذت المسيحية موقفين: فمن الناحية العنصرية البحتة، فإنها سارت على خطى اليهودية وفي نظرتها إلى نسب المسيح وربطه بسلالة إسحق. أما من ناحية هدف الرسالة ومضمونها فقد حاولت، على الأقل في البداية، أن تلتزم بالخصوصية اليهودية:

فالمسيح أجاب المرأة الكنعانية التي توسلت إليه أن يشفي ابنتها، أنه مرسل إلى بني إسرائيل فقط. فقد قال لها:

«لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

[متى ١٥/ ٢٤]

إن فتح آفاق بعيدة أمام الرسالة المسيحية لم يتبلور إلا فيما بعد، لا سيما من خلال البعثات التبشيرية التي انيطت بتلاميذ المسيحِ لينتشروا في الأرض ويحملوا الرسالة إلى جميع الأمم، على خلاف ما كان يتقيد به بنو إسرائيل.

وعندما نتخيل سيرة الأخوين الشقيقين إسماعيل وإسحاق، الأول ابن الجارية الموسوم باللاشرعية، والثاني ابن الزوجة الشرعية والحائز على التركة وعلى البركة يمكننا إدراك فداحة هذه التفرقة الجائرة التي استمرت عدة قروناً منزلة الظلم والاستبداد بسلالة إسماعيل ونافخة روح العظمة والمجد في أحفاد إسحق. عندما نفكر بهذا كله يمكننا عندئذ الإلمام بأبعاد ذلك التحدي الكبير الذي أتى به النبي العربي، حين خرق حلقة الأنبياء الخصوصية مثبتاً أن النبوة يمكن أن تكون في سلالة إسماعيل كما هي في أحفاد إسحق، وأن «حفيد الجارية» دعي إلى دين جديد وتبوّأ مركز الصدارة «بين كوكبة الأنبياء المعتمدين من السماء».

وعلى غرار المسيح، فقد سعى النبي، في بادىء الأمر، إلى التعاون مع اليهود علّهم يتنازلون عن خصوصيتهم أو يخففون من كبريائهم. وقد توخى إقناع ثلاث قبائل: بني النضير، وبني قريظة وبني قينقاع لاعتناق الإسلام، لكنها لم تكتفِ بالمكابرة والتثبت بتقاليدها المتزمتة فحسب، بل دأبت على مضايقة الرسول في دعوته وترويج الادعاءات القائلة أن الله لا يتكلم مع عباده إلا عن طريق اليهود، واليهود فقط. إذ ان الله قد قال لهم:

«وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة».

[خروج ٦/١٩]

أي أنه وحدهم، حسب مفهومهم، المولجون بتعريف الناس بالله وبحمل تعاليمه إليهم، لأنهم أمة مقدسة اختارها الله من بين باقي الأمم لتكون الوسيط بينه وبين الشعوب والأقوام كافة. وهكذا فإن كل يهودي يعتقد اعتقاداً راسخاً، كما يعترف إبستاين، أنه عضو في شعب اختاره الله وأناط به مهمة نشر العدالة الإلهية على هذه الأرض». ويتابع هذا الكاتب اليهودي قائلاً: «إن الله اختار إسرائيل لتكون شعب النبوة، وكل يهودي

يتمتع، على الأقل ضمنياً، بتلك الموهبة التي تجعله قادراً على تحقيق أسمى المنجزات الدينية (. . .) وكل الأمم، مثلها في ذلك مثل إسرائيل، تملك القدرة على ممارسة النبوة، ولكن على درجة أقل وبنسبة أضعف». من الواضح إذن أن من الصعب، بل من المستحيل، على اليهود أن يقبلوا بنبي من خارج سلالتهم لا سيما إذا كان عربياً، من أحفاد إسماعيل الذي «لم يباركه الإله. . .»

لقد ألح النبي على إقناعهم بالتخفيف من عنصريتهم ولكن من دون جدوى. فكبرياؤهم الديني وشموخهم العنصري ومجدهم التاريخي واحتكارهم لكل ما هو رباني أو سماوي حال دونهم ودون الاعتدال ومنعهم من التنازل عمّا كانوا يسمونه «امتيازات» خصهم الله بها. وأمام هذا الموقف المتعنت اضطر النبي إلى قطع الحوار معهم وكان ذلك في أواسط شهر شباط من عام ٦٢٤ أي بعد حوالي خمسة عشر شهراً من الهجرة.

وقد حمل القرآن عليهم لأسباب عديدة، منها:

١ ـ خداعهم وقلة أمانتهم:

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾

٢ ـ احتقارهم للآخرين:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾.

[آل عمران ٣/ ٧٥]

وهكذا أهملهم الإسلام بسبب سلوكهم الاجتماعي وكبريائهم العنصري وحقق قفزة بعيدة في التاريخ ليربط دعوته مباشرة بأصولها التي ترتقي إلى إبراهيم. وهكذا تهيأ له أن يعيد المساواة بين الأمم وبين العروق المختلفة وأن يرد لإسماعيل اعتباره كما فعل بالنسبة ليسوع ولمريم.

وغالباً ما كان القرآن يؤنبهم لأنهم أرادوا أن يحتكروا إبراهيم الذي كما يقول القرآن:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٦٧]

وفي هذه القفزة في أعماق التاريخ حقق الإسلام، بعيداً عن اليهودية والمسيحية، ربط أصوله بإبراهيم والد إسماعيل جد العرب. إبراهيم الذي نادى بدين حنيف أساءت إليه اليهودية وزاغت عنه المسيحية وهذا ما تسبب بالانشقاق والتشرذم:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

[البقرة ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦]

إن دين إبراهيم الذي إليه ترتقي أصول الإسلام هو دين الاستسلام إلى مشيئة الله، الله الواحد الأحد، وإلى تعاليمه التي تنهى عن التطير وعن الجاهلية، لا سيما و:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

[النحل ١٦/ ١١٩]

وفي الحقيقة، فإن النبي لم يدّع أنه كان في سبيل تأسيس دين جديد، بل مرسلاً لتوضيح وتأكيد الدعوة الأساسية التي أتى بها إبراهيم والذي:

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

[الحج ٢٢/ ٧٨]

وقد نادى النبي بالإسلام، لا كدين خاص بل كإيمان أصلي وأساسي كما بشر به إبراهيم الذي لم يكن لا يهودياً ولا مسيحياً ولا حتى مسلماً بل كان كما يصفه جارودي «مثالاً للإنسان وللإيمان». أما دور النبي فيقتصر

على دعوة الناس إلى الإيمان حسبما يشاء الله، وأن يذكرهم بإيمان إبراهيم الذي حرّفه اليهود، فهددهم الله قائلاً:

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٩٤]

صحيح أن القرآن يلوم اليهود والمسيحيين على تأويلهم رسالة إبراهيم والانحراف بها عن خطها الأساسي، لكن الواقع يشهد أنه لم يكن يتعامل مع الطائفتين الموحدتين بالطريقة نفسها ولم يكن ينظر إلى أتباع الدينين ذات النظرة. فالعلاقات بين الإسلام والمسيحيين كانت منذ البداية، أقل توتراً وأكثر تقارباً مما كانت عليه مع اليهود. إن الآية التالية تصور لنا بوضوح علاقة الإسلام بالدينين ونظرته إليهما:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

[المائدة ٥/ ٨٢]

ومع أنهم لم يعتنقوا الدين الجديد، فقد ظل المسيحيون على حالهم من الفقر المادي والاستنكاف عن التدخل في شؤون الآخرين، بينما كان اليهود يحتكرون الطبقة الغنية والمستبدة، ولا يتورعون عن الهزء بالرسول والتهكم عليه. فكما عاملوا المسيح الذي انبثق عنهم وترعرع بينهم، فقد كان من الطبيعي أن يعاملوا النبي بعنف أشد لا لأنه غريب عنهم فقط بل لأن مجرد مناداته بالنبوة أثار حفيظتهم وأغاظ كبرياءهم.

أخيراً، فإن النبي بعودته بالإيمان إلى عهد إبراهيم وضع حداً لسلسلة المنافسات وحدد معالم مجتمع المؤمنين، ففي هذه العودة إلى الأصول تمكن الإسلام من بلوغ ذروة النجاح بعد أن عبّر بأمانة ودقة عن الإرادة الإلهية التامة والشاملة.

وبما أن عهد إبراهيم يرتقي إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وان

الدعوة الإسلامية ظهرت في القرن السادس بعد الميلاد، فمن السهل تحديد وتقدير القفزة التي قام بها النبي عبر التاريخ والتي شملت نحو أربعة وعشرين قرناً اختصرها الرسول ليربط دعوته بالأصول الإبراهيمية مستشهداً فقط بما جاءت به اليهودية والمسيحية من تعاليم لا تتعارض ومبدئيه الأساسيين: وحدانية الله المطلقة، والمساواة التامة بين جميع البشر.

علاقة الإسلام بالمسيحية

كانت علاقات المسلمين بالمسيحيين أقل توتراً وأشد تقارباً مما كانت عليه مع اليهود. فإذا كان القرآن يعامل اليهود كمعتدين، لا سيما أولئك الذين كفروا ولُعنوا:

﴿ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾.

[المائدة ٥/ ٧٨]

فإنه بالمقابل يمدح المسيحيين، خصوصاً أولئك الذين:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

[المائدة ٥/ ٨٣]

ومع ذلك، فمن المفيد التذكير بأن الإسلام لم يُقر ولم يعترف بكافة ما كان يعتبره المسيحيون جزءاً من عقيدتهم لا سيما ما يتعلق منه بطبيعة المسيح أو بمبدأ الأقانيم الثلاثة.

أ ـ الإسلام والمسيحية ويسوع

فالإسلام ينظر إلى المسيح ابن مريم على أنه إنسان كباقي الناس، وعلى أنه نبي كسائر الأنبياء. ومع أن القرآن حين يذكر حَمَل مريم، يؤكد أصل المسيح المقدس:

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

[الأنبياء ٢١/ ٩١]

ومع أنه يذكر أن المسيح هو كلمة الله :

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٤٥]

ومع أنه يعلن على لسان الله قائلاً :

﴿ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾ .

[البقرة ٢/ ٨٧]

بالرغم من كل هذا، لا بد من الاعتراف :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٥٩]

إن المسيحية التي كان الرسول ينتقدها أحياناً، هي مسيحية بعض الفرق المتطرفة والمتعصبة. وقد لفت الأب ميشال الحايك الانتباه إلى هذا الأمر فقال: «إن الدراسة التاريخية التي تتناول أحوال المسيحية السورية والعربية منذ مجمع أفسس خصوصاً (٤٣١)، تشرح بوضوح موقف نبي الإسلام وتبرّئُه من الشهادات الفادحة التي ألحقها به مسيحيو ذلك العصر». فالفكر المسيحي لم يكن في عهد الرسول، قد توصل إلى الحسم النهائي لبعض الأفكار التي لم تتبلور، ولم تتضح إلا فيما بعد.

وكان النبي يقصد بالفرق:

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ .

[الروم ٣٠/ ٣٢]

ففي الوقت الذي كانت الفرق الدينية المسيحية تتوغل في متاهات من الجدل العقيم، كان الإسلام قد توصل إلى اكتشاف الأجوبة المقنعة للعديد

من المسائل المتباينة وكان قد نجح في وضع حدٍ للمهاترات كافة في اعتماده العقل كحكم عادل، والمنطق كأسلوبٍ موفّق. لقد أتى الإسلام بتغيير جذري وشامل وحمله حتى إلى المناداة بوحدة جميع الرسالات السماوية، بدون أن يدّعي امكانية توحيد كل الفرق المسيحية لأن:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

[المائدة ٥/ ١٤]

أما في ما يتعلق بطبيعة المسيح وما أحدثته من جدال ومناقشات، فإن موقف القرآن منها واضح وصريح:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾.

[المائدة ٥/ ١٧]

فللمسيح طبيعة واحدة في نظر الإسلام:

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾.

[الزخرف ٤٣/ ٥٩-٦٣-٦٤-٦٥]

وفي القرآن حوار بين الله والمسيح يوضح قضية القضايا التي أثارت الكثير من الجدال بين الفرق المختلفة:

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

[المائدة ٥/ ١١٧]

إن عبادة شخص المسيح ونظرية التألية التي أسبغتها عليه بعض الأوساط المسيحية، حدا بالنبي إلى التشديد على عنصره الإنساني وعلى كونه إنساناً عادياً كباقي الناس وعلى بساطة نشأته. فعلى مدى الآيات القرآنية يبدو التركيز واضحاً على إنسانية النبي ـ الرسول ـ الموحى إليه.. الخ.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

[النازعات ٧٩/ ٤٥]

ثم يوضح:

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

[ص ٣٨/ ٦٩ ـ ٧٠]

وفي وصف رائع يحدد الشيخ دراز دور النبي قائلاً: «ليس هو ـ أي النبي ـ في مركز أعلى من الآخرين، فسلطته تنبع من رسالته، ومتى تمت الرسالة أصبح النبي إنساناً عادياً كبقية الناس. محمد لا يتورع عن قوله وحسب بل يلح أيضاً: عليكم أن تطيعوني ـ يقول للمسلمين، حين أخاطبكم باسم الله لأنني في هذه الحالة أكون معصوماً عن الخطأ وعن الكذب، أما حين أكلمكم باسمي فأنا إنسان كالآخرين».

إذن، موسى وعيسى ومحمد والأنبياء كافةً ليسوا سوى رسل بعثهم الله، رسالاتهم متشابهة في جوهرها، وأحياناً تكون متطابقة.

ب ـ الإسلام ومبدأ الأقانيم الثلاثة

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

[النساء ٤/ ١٧١]

تفسر هذه الآية بوضوح وجهة نظر الإسلام في ما يتعلق بيسوع وأصله ومكانته بالنسبة لله.

فكما حارب خصوصية اليهود واحتكارهم لله على أنهم شعبه المختار، كذلك حارب الإسلام الادعاء القائل بألوهية المسيح من خلال أسرار الثالوث الأقدس. ومرة أخرى نذكر بأن هذين المبدأين المذكورين كانا السبب الرئيسي في تعريض الدينين للعديد من المشاكل. فالأول أحدث في صفوف الطائفة اليهودية خلافات داخلية، وكان السبب المباشر في خلق التوتر الشديد، والمتفجر أحياناً، الذي سيطر على علاقات اليهود بباقي الأمم. أما الثاني فقد فرق المسيحية إلى فرق وشيع. تتصارع فيما بينها.

ففي سبيل ايجاد حلٍ للمسألة الأولى، لم يتوان القرآن عن دعوة المسيحيين واليهود للالتزام بعالمية الدين وبالمساواة بين البشر كافة:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

[المائدة ٥/ ١٨]

وفي سبيل وضع حد للمهاترات الناشبة بين الفرق حول طبيعة المسيح، فقد حسم الخلاف معلناً وحدانية الله:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

[الإخلاص ١١٢/ ١-٤]

وطلب من المسلمين اعتماد المنطق في مناقشاتهم والتزام الاعتدال في معاملاتهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

[البقرة ٢/ ١٤٣]

«إن من بين الأسباب المهمة التي فجرت الحضارة الإسلامية، يقول أولاغو، كان على رأس القائمة مبدأ وحدانية الله الذي قضى على العقائد السابقة المعقدة».

إن فكرة الأقانيم الثلاثة كانت معروفة قديماً قبل المسيحية، فقد ذكرها أفلاطون وتحدثت عنها مدرسة الاسكندرية. والرسل الذين عرفوا المسيح، وكذلك تلامذته الذين أولعوا به، كانوا يعتبرون أن معلمهم هو المسيح نفسه. اليهود المتأثرون بالحضارة الاغريقية واليونان المتعلقون بفلسفة مدرسة الاسكندرية نقلوا تلك الفكرة الماورائية وطبقوها على شخصية عيسى التاريخية جاعلين منه رديفاً لله.

القرن التاسع أسبغ على شخصية المسيح الكمال المثالي متأثراً في ذلك بالنهج الفلسفي الرائج في ذلك الوقت، والمعروف بنظرية الآيون éons والتي عرّف عنها الأدريون (gnostiques) بقولهم إنها نظرية القوى السرمدية المنبثقة عن الكائن الأسمى والتي بواسطتها يحقق إرادته بشأن هذا العالم. المسيح، قد يكون الإله نفسه، ولكن ذلك يتعارض مع أقوال الإنجيل. من هنا نشأ الجدل وتطور إلى نزاع.

جوستانيوس، فيلسوف المسيحية الأولى، اقتفى أثر التقاليد الرائجة في الاسكندرية فقال: «ليس فقط عند اليونان وعلى لسان سقراط نطقت الكلمة وتحدثت عن الحقيقة، فالبرابرة أيضاً عرفوا الكلمة التي، بعد أن اتخذت شكلاً مادياً وأصبحت رجلاً عرف باسم المسيح، قادتهم إلى سواء السبيل وأنارت أمامهم طريق الهداية... بالوسيلة الأقوى والأعدل بعد الله مباشرة، الذي أنجبها. وفي مطلع القرن الثالث قال أوريجين بأن المسيح منبثق عن الإله كما ينبثق الابن عن الأب. فالله خلقه ورفعه من العدم إلى المقام الأسمى. ويبدو أن مثقفي القرن الثالث هم الذين شاؤوا أن يحلوا مشاكل العصر اللاهوتية فنادوا بنظرية الأقانيم الثلاثة.

وهكذا، ففي خلال ثلاثة قرون، توالت على مسألة شخصية المسيح ثلاث نظريات مختلفة:

١ ـ إن الإله أمدّ المسيح بقوة إلهام هائلة جعلته بدون شك أكبر وأعظم الأنبياء.

٢ ـ إن المسيح هو المخلص، إذ إنه يتمتع بقوة إلهية خارقة ولكنها أقل من قوة الله نفسه، الأب.

٣ ـ أخيراً تطورت الفكرة نفسها لتقول بأن الله طبيعة ثالثة. ففضلاً عن الأب والابن هناك أيضاً الروح القدس.

وقد بدا في القرن الثالث أن النظرية الثالثة أي نظرية الثالوث الأقدس كانت هي النظرية الأكثر رواجاً، ولكن الواضح أنها فجّرت المسيحية من الداخل. فكثير من المسيحيين لم يستسيغوا هذه الفكرة، فاحتدم الجدال طيلة القرن آخذاً في بعض الأحيان منحىً عدوانياً. وفي مطلع القرن الرابع بلغ النزاع أوجه مع مقولات آريوس ذات النهج العقلي والمادي.

في عام ٣٢٥ شجب مجمع نيسه الأريانية، وكان أوزي مندوب البابا إلى المجمع صديقاً للامبراطور قسطنطين، مما مهّد السبيل أمام نظرية الأقانيم الثلاثة لتصبح الدين الرسمي للدولة الرومانية، لكنها من ناحية أخرى فجرت الخلافات والحروب بين المسيحيين إذ ادعت كل فرقة أنها، حسب النظرية اليهودية، هي ممثلة شعب الله المختار. وفي نهاية القرن الرابع كتب مارسلين يقول: «ليس من المعقول أن تكون الوحوش أكثر ضراوة فيما بينها مما كان عليه المسيحيون في حروبهم بين بعضهم البعض». المنافسة الدينية أصبحت هي القاعدة السائدة في عالم البحر الأبيض المتوسط. ومع مرور الأيام وتوالي القرون تكرست بالنسبة للمسيح فكرتان رئيسيتان: الأولى يقول بها الإسلام وهي أن المسيح نبي يتمتع بمكانة خاصة به. والثانية تعتنقها الكنيسة الكاثوليكية وتستقطب حولها معظم المسيحيين وهي تؤمن بنظرية الثالوث الأقدس.

ت ـ الإسلام والصليب والخطيئة الأصلية

منذ أن صُلب المسيح وعذّب، أصبح الصليب رمزاً للمسيحية وموضع تبجيل وأساس العبادة عند إقامة الطقوس الدينية. إن إحياء ذكرى الفداء على الصليب يتجدد رمزياً مع إقامة كل طقس من طقوس السر القرباني. لقد كتب القديس بولس يقول:

«نحن نكرز بالمسيح مصلوباً لليهود عثرة ولليونانيين جهالة».

[الرسالة الأولى إلى كورنثوس ٦/ ٢٣]

لقد ألقيت تبعة صلب المسيح على عاتق اليهود، قتلة ابن الله المغضوب عليهم، فلاقوا من جراء ذلك الكثير من المعاناة والاضطهاد خلال قرون عديدة إلى أن نجحوا أخيراً، في منتصف القرن العشرين، في التخلص منها. كان على الإسلام أن يحسم موقفه بوضوح من قضية صلب المسيح.

إن اليهود لم يقتلوا المسيح، يقول القرآن:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

[النساء ٤/ ١٥٧]

بل إن الله قد رفعه إلى السماء:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[آل عمران ٣/ ٥٥]

وبالرغم من هذه المكانة الرفيعة ومن هذه العصمة الإلهية التي أسبغها الإسلام على المسيح فإن البعض ظل على موقفه الحذر من الإسلام ذلك أن رسالة النبي، لا تعترف بنظرية الفداء، إحدى ركائز المسيحية. فالمسيح قد قَبِل العذاب ورضي بالإسلام في سبيل فداء البشرية وتخليصها من خطاياها:

«إن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب». يقول القديس بولس.

[الرسالة الأولى إلى كورنثوس، ١٥/ ٣]

فقبل المسيح، كان البشر مهددين بالهلاك الأبدي بسبب خطيئة آدم التي لم ينجهم منها إلا المسيح. والصليب رمز للفداء، والانبعاث دليل الخلاص فداء البشرية من الحكم بالهلاك، وخلاصها من الخطيئة.

أما الإسلام، فإنه ينظر إلى هذه الأمور نظرة أخرى وهي أن الإنسان لم يدنس بالخطيئة لذلك لم يكن بحاجة إلى استعادة نقاوته بواسطة التجسد الإلهي. نعم، إن مسألة الخطيئة موجودة في العقيدة الإسلامية، لكن الإسلام يعتبر أن اقتراف الخطيئة لا ينتج بالضرورة انقطاع محتوم بين الخالق والمخلوق. ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يحدد المسؤولية ويحصرها بمن اقترف الخطيئة فقط ولا يرضى بالتعميم أو الشمولية. إن آدم، بعد «أن اقترف خطأ العصيان لأوامر الإله» طُرد من الجنة، وهو وحده المسؤول عما اقترفت يداه. فالقرآن يقول:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

[فاطر ٣٥/ ١٨]

فالقرآن يعتمد على هذه الفكرة الواضحة بما يتعلق بالمسؤولية الفردية كي ينقض نظرية الخطيئة الأصلية. فما من إنسان، يقول القرآن، يحاسب عن خطيئة اقترفها إنسان آخر. ومع أن آدم قد عصى أوامر ربه ومع أنه طُرد من الجنة، إلا أنَّ مِنْ:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

[طه ٢٠/ ١٢٢]

إن على الإنسان لكي ينجح في ضمان سلامه وتحقيق خلاصه، الاعتماد على عقله وإيمانه في سبيل نصرة الحق على الباطل، والخير على الشر والعدل على الظلم وفي سبيل السمو بنفسه من خلال العبادة الصادقة وبفضل التقوى النيّرة. إنه حر، يتمتع بكامل حريته. هذه الحرية النابعة من الميثاق الأساسي الذي بعد غفران الخطيئة والصفح عن آدم، ينير السبيل أمام الإنسان ويقود خطواته. الإنسان إذن يعمل بوحيٍ من ضميره ووجدانه في جو من الحرية التامة ولكن بمقتضى تعهد بأنه هو المسؤول، والمسؤول الوحيد عن كل ما يصدر عنه من أقوال أو ما يقوم به من أعمال.

ولكن أليست النزوة الجسدية هي نفسها خطيئة البشر الأصلية؟

يقول الإسلام في هذ المجال إن العلاقة الجسدية كقانون طبيعي وكحاجة اجتماعية ترضي الإله إذا ما مورست في نطاق ما ينادي به القانون وما يسمح به المجتمع:

«عن أبي ذر رضي الله عنه:

إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهيٍ عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة».

قالوا: «يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرُ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

رواه مسلم

من الواضح جداً أن هدف مفهوم كهذا هو السعي في إسباغ طابع فكري وأدبي وروحي واجتماعي على العملية الجسدية والغريزة الجنسية. إن

القرآن عموماً لا يقف حائلاً دون اللذات الطبيعية، شرط آن تتم في حدود طهارة تامة وفي ظل رقابة وجدانية حساسة، بهدف السمو بالأشياء المادية إلى المستويات الروحية؛ وهو يمنح الإنسان الحرية التامة بالتمتع بالحياة ومباهجها وبتذوق لذاتها ونعمها، على أن لا تضله عن الصراط المستقيم أو تلهيه عن وظائفه الاجتماعية أو واجباته الدينية.

أخيراً، فإن الفكر الإسلامي بالإجمال ينفر من فكرة الخطيئة الأصلية، وما يمكن أن ينتج عنها من عوامل.

٣ ـ الخلاصة

بالاختصار، فإن اتجاهات الإسلام كانت تميل نحو التوفيق والتوحيد ونحو العالمية والمساواة في وقت كانت فيه الأفكار الدينية المسيحية ما زالت في طور التفاعل والتردد والشقاق والتباين، وفيما كانت الأفكار اليهودية تتقوقع وراء ستار كثيف من الوطنية الضيقة ومن العنصرية البائدة.

فالإسلام لم يخفِ ولم يتردد بالجهر بالأفكار التي كانت تميزه عن الدينين السابقين:

١ ـ لقد شجب بعنف خصوصية اليهود المتحجرة وحض بني اسرائيل على الانفتاح على العالم والانخراط في أمة ترتكز دعائمها على المساواة والعدل والأخوة.

٢ ـ لقد أعرب بمهارة عن وقوفه ضد مقولة التجسد الإلهي ورفض رفضاً قاطعاً التحدث سواء عن «ابن الله» وعن «والدة الله» واضعاً بذلك حداً نهائياً للمهاترات الدينية والمزايدات الكهنوتية كافة.

٣ ـ لقد استنكر نظرية الثالوث الأقدس، نقطة انطلاق التباين ونبع الخلافات الحامية ومصدر الشجار والجدال، لا سيما وأنها كانت في ذلك العهد، لا تتعدى كونها اجتهادات فلسفية تغامر في ركوب الأنواء المتضاربة، وتخاطر بالتوغل في الطرق المسدودة.

٤ ـ لقد رفض أيضاً مقولة الصلب. وبهذا الموقف رفع عن اليهود تهمة قتل ابن الله التي تسببت لهم بالاضطهاد والملاحقة طيلة قرون عديدة، وفي الوقت نفسه جردهم من تلك الحجة المموهة التي يدعون بموجبها أنهم قادرون على التخلص من كل من يتجرأ على الوقوف ضدهم وبقتل كل من تسول له نفسه بمعاندتهم حتى ولو كان ابناً للرب!!!

٥ ـ لقد رفض أخيراً نظرية سر الفداء وكذلك مقولة الخطيئة الأصلية. ونادى بالمسؤولية الفردية قائلاً إن الإنسان لا يتوصل إلى الخلاص إلا بفضل ما تجني يداه فمن يعمل خيراً ير خيراً ومن يعمل شراً يلق شراً.

لا شك أن التباين كان عميقاً، ولكن إمكانية التقارب بين الأديان الثلاثة مع احتمال توحيدها لم تكن مستحيلة.

وفي الإجمال، فإن ما يميز الروحانية في الإسلام وما يلفت النظر فيها، هو بساطتها المتناهية التي لا تعترف إلا بإله واحد أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. في هذه البساطة يكمن سر قوتها الحقيقية لأن من خلالها تنبثق نقاوة وحدة العقيدة في الإسلام.

الرسالة الإسلامية هي رسالة سماوية هدفها هداية الإنسان إلى سواء السبيل في حياته الأرضية كي تؤهله ليكون جديراً بالفوز بنعيم الحياة الآخرة. فمن يريد النجاة عليه أن يبحث عنها ولن يجدها إلا في السيطرة على النوازع النفسية بواسطة الأيمان العميق والحكمة والتعقل، ولن يجدها إلا في أعماق وجدانه حيث تترعرع المناقب السامية وتهجع مشاعر المحبة داخل غلاف من الإنسانية ومن التواضع ومن التفاني ومن الاخلاص. ففي المجتمع البشري القائم على المحبة وعلى الاستسلام لإرادة الله، يهيىء الإنسان دخوله المظفر إلى ملكوت السماء حيث النور والحقيقة والفناء التام في الوحدة السرمدية. يجب الحفاظ على ملكوت الأرض ودرء جميع أخطار الانهيار عنه، لأن انطلاقاً من هذا الملكوت الأرضي، ملكوت المشاكل والصراعات والآمال والتطلعات يُحضّر الإنسان نفسه للدخول في الملكوت الثاني.

إن رسالة الإسلام قد أحدثت حركة كبيرة وشاملة قائمة على التحرر من الاستبداد الديني ومن الظلم الاجتماعي ومن العنف السياسي. إن نجاحها الباهر الذي أحرزته في الجزيرة العربية وفي الأماكن التي دخلت إليها كافة، يعود إلى التغييرات الجذرية التي أدخلتها إلى نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى مجتمعه. وهكذا تيسر لها أن تساهم مساهمة كبيرة في تكوين فكر جديد أدخل المنطق والعقل والعلم لا إلى المسائل الاجتماعية والسياسية وحسب بل إلى النظريات الدينية والرسالات السماوية خصوصاً. فعند كل المضطهدين وفي ضمير المحرومين كافة أحيت شعوراً سامياً بالتحرر وبالنضال، إذ كما يقول جارودي: «بعد انهزام الطبقات الحاكمة الطاغية، كان في استقبال العرب الفاتحين والمحررين جموع الضحايا التي كانت تعاني من الطغيان الاجتماعي ومن العنف السياسي ومن الاضطهاد الديني».

القسم الثالث

الفصل
الثامن

الإسلام والمسيحية والتحدي الإسرائيلي

في إحدى الندوات الثقافية العديدة التي تقيمها الجامعات الباريسية سمعتُ يهودياً يقول بلهجة لا تخلو من التهكم: «إن السفرديم[1] أحفاد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر قد استحقوا أوراق اعتمادهم كشعب الله المختار، لأن أجدادهم، وعلى رأسهم يسوع، قد دخلوا الأرض الموعودة،

(١) عُرف اليهود الذين أقاموا في البلاد المسيحية تحت إسم الأشكينازيم أما أولئك الذين عاشوا في الديار الإسلامية فقد أطلق عليهم إسم سفرديم، ولكل منهما طقوسه الخاصة به. وفي بعض الأحيان فإن الإشكينازيم تدل فقط على يهود أوروبا الوسطى والغربية أي بولونيا، ليتوانيا، روسيا.

ومن ناحية أخرى فإن ارثور كوستلر في كتابه: «القبيلة الثالثة» يعتبر أن يهود أوروبا الوسطى والغربية هم في معظمهم أحفاد مباشرون لقبائل الخزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن. وبعد أن انهارت مملكتهم اختلط هؤلاء العرب المتحدرون من أصل تركي مغولي، بباقي تجمعات التتر والسلاف حيث أقاموا طائفة يهودية كبيرة عرفت تحت إسم الإشكينازيم، تعلمت الألمانية باحتكاكها بالتجار القادمين من الغرب.

وبنوا الهيكل، وأسسوا مملكة سليمان، وذلك بفضل يهوه الذي يحبهم حباً قوياً ودائماً كحب الأب لإبنه».

أما الإشكينازيم فإنهم يفتقرون إلى دليل يُظهر أن الله يحبهم ويفضلهم كما يحب ويفضل إخوانهم الشرقيين. ولكي يبرهنوا أنهم فعلاً يستحقون الإدراج ضمن نطاق شعب الله المختار، فقد كان عليهم غزو الأرض الموعودة و «تحريرها» في ظروف تشابه تلك التي حقق فيها إخوانهم الانتصار على الكنعانيين. وقد نجحوا في تحقيق هذا الإنجاز في منتصف القرن العشرين، أي في الوقت الذي كان فيه العالم يهنيء نفسه بما حققه من اكتشافات علمية وبما أنجزه من تطورات تقنية... يا للعجب!!! قد يتصادف مجيء مسيحنا المنتظر مع إقامة الاشكينازيم في الأرض الموعودة، لأن ذلك الذي أتى من قبل في عهد السفرديم لم يكن مسيحنا نحن...

وهكذا، تابع يقول، فإن اليهود **الخزر**، تؤجج قلوبهم الحماسة النابعة من ذكرى دخول العبرانيين إلى أرض كنعان، لا يوفرون وسيلة، ولا يضنون بتضحية كي يثبتوا أنهم، في منتصف القرن العشرين، يمثلون رواد تحرير الأرض الفلسطينية. وهذا ما حصل فعلاً. وقريباً، إعادة بناء الهيكل، تحمل معها تباشير مجيء المسيح، الحقيقي. ليس هذا حلماً، بل حقيقة، حقيقة ملموسة. فنحن شعب الله المختار. إن يهوه معنا. إنه يحبنا... هو لنا... ونحن له...»

سواء كانت هذه الهجمة الشرسة هي بوادر إنجازات الأشكينازيم أم كانت صورة طبق الأصل عن مغامرة غابرة قام بها السفرديم، فإن اغتصاب الأرض الفلسطينية وإنشاء الدولة العبرية هو بحد ذاته تحدٍ صارخ لا للعرب وللمسلمين فحسب، بل للمسيحيين خاصة وللإنسانية جمعاء وخرقاً شنيعاً لروح العدالة وجوهر الأخلاق. فإنشاء دولة قائمة على الميثولوجيا العنصرية وبعث كيان استخرج من غياهب التاريخ المظلمة، هو صفعة قوية على وجه القرن العشرين بكامله، الذي يتباهى بكونه عصر العلم والتقنية، عصر الذرة والفضاء والكومبيوتر، عصر المادة والواقعية. أما زرعها غدراً وعدواناً في

قلب منطقة كانت على وشك الخروج من عهود الانحطاط والتخلف فهو أيضاً أحط أنواع الغدر وأعلى درجات العنف والتسلط. ففي الوقت الذي كان فيه العرب يستعيدون أنفاسهم ويستعدون للحاق بركب الأمم المتطورة وُجهت إليهم هذه الضربة الماكرة فقضت على آمالهم في التطور.

إن تلك الحفنة من المسلمين التي تنادي ببعث الإسلام. بتلك الروح التي عرفها في القرن السابع، هي جماعات تجهل معنى التاريخ، كما يدّعي بعض كتّاب اليهود الغربيين. ويتابعون قائلين إنه ليس من الممكن اصطناع أحداث جديدة بحجة أنها وقعت منذ خمسة عشر قرناً، لأن الظروف الملائمة التي أدت إلى فتوحات سهلة المنال، لن تعود أبداً. ويتمادى هؤلاء الفريسيون في غيهم فيقولون: إن المقياس الوحيد الذي به نتأكد من صحة دين ما، يكمن في الروح الوثّابة التي يحافظ على بقائها ويرعى استمراريتها مهما كانت الصعاب التي تعترض السبيل، ومهما كانت ضخامة الحواجز التي تقف حائلاً دون الاستمرار. فبعد كل مأزق وفي نهاية كل اختبار يكون الرابط أقوى والاستمرار أضمن والوحدة أشمل. هذا هو الحال بالنسبة لليهودية التي خرجت دائماً أقوى وأمنع من كافة الصعاب التي اعترضتها في زوايا العالم الأربع؛ خرجت دائماً وساميتها أنقى وأطهر بالرغم من إغراءٍ غربي بالانصار ومن دعوة شرقية للذوبان؛ خرجت دائماً وهي أشد تمسكاً بروحانياتها على الرغم من إنجازات الشعارات والمبادىء المادية التي مسخت وجه المسيحية وشلت حركة الإسلام...

إننا بالطبع لن نعير هذا الدسّ الرخيص أي أذن صاغية، فأحداث التاريخ، من هجمات المغول والتتار إلى حملات الصليبيين أولاً وحماقات الاستعماريين ثانياً، تشهد أن الإسلام حاضر في كل محنة، متجدد في كل اختبار، ثائر في كل طغيان، يمد الروح بقوة إيمان كبيرة قادرة على تغيير مسيرة التاريخ وتصدّر أهم صفحاته. إننا لن نتطرق في هذا السياق إلى هذه الأمور المعروفة من الجميع فمنذ القرن السابع وحتى القرن العشرين ما يزال الإسلام يحتل مكان الصدارة من الأحداث إذ إنه مع العرب دخل أوروبا حتى مشارف فيينا ولم يخرج منها إلا مع بداية هذا القرن.

إن ما سوف نتناوله في الصفحات القادمة هو تاريخ ميثولوجيا دولة بني إسرائيل، ومن ثم نستطلع احتمالات مستقبلها الغامض.

١ ـ نشوء حلقة مفرغة

إن نظرة سريعة إلى تاريخ بني إسرائيل تكشف عن إنتفاضات شعبية دورية ومنتظمة ضد اليهود تبدو وكأنها متوقعة وتحصيل حاصل كلما انغمس الشعب المختار في الرشاوى الأخلاقية والدينية أو تعاطى الدعارة الاجتماعية أو المجون الفكري. وإن ما يلفت الانتباه هو تكوين حلقة مفرغة من الممكن تصويرها كالتالي: خطيئة ← اضطهاد ← وتنكيل ← ندم وتوبة ← غفران، وهكذا دواليك. أي بمعنى آخر أن كل انحراف جماعي يقترفه اليهود يفتح الباب على مصراعيه أمام تنكيل عام يلحق بهم وطغيان شديد ينزل بهم مما يدفعهم إلى التوبة والاستغفار كي يفوزوا أخيراً بالغفران. إن تاريخ أنبياء العهد القديم يتبع خطاً واضحاً على الشكل التالي:

١ ـ نبي ينادي برسالة سماوية.

٢ ـ شعب ضعيف الإيمان يشك ثم يثور ويستنكر.

٣ ـ عقاب شديد.

٤ ـ غفران.

ففي أماكن عديدة من النصوص ومن الأسفار يصور لنا العهد القديم الشعب اليهودي كزمرة متكبرة، عنيدة وصعبة المراس. زمرة صلفة تركب رأسها وترفض الاستماع إلى صوت العقل والمنطق. زمرة طاغية تراودها أحلام شرسة واستبدادية: إسرائيل لا تُهزم، الهيكل لا يُهدم، إسرائيل هي الأقوى، تفكيرها هو الأصح... الخ. وقد يحصل في بعض الأحيان أن تقدم إسرائيل الذبائح، تحترم فروض يوم السبت، تحتفل بالأعياد الدينية، تلتزم بالصوم، ولكنها في الوقت نفسه ترتكب المعاصي وتنهج نهج الظالمين:

«اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكي تبيدوا بائسي الأرض قائلين متى يمضي رأس الشهر لنبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة. لنصغر الأيقة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش لنشتري الضعفاء بفضه البائس بنعلين ونبيع نفاية القمح. قد أقسم الرب بفخر يعقوب اني لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم. أليس من أجل هذا ترتعد الأرض وينوح كل ساكن فيها وتطمو كلها كنهر وتفيض وتنضب كنهر مطر.

[عاموس ٨/ ٤ ـ ٨]

إن كل نبي من أنبياء بني إسرائيل صادف شيئاً من هذا الخبث والصلف الإسرائيلي وشجبه واستنكره. ومع أن إسرائيل كانت هي الشعب المختار «شعب العهد» فإنها لم تنبجُ من العقاب الشديد ومن الدروس الرادعة. وفي هذا المجال هناك سؤال مهم يطرح نفسه: هل المصائب العديدة التي نزلت ببني إسرائيل كانت بطريق الصدفة أم لها علاقات مباشرة بأسباب وجيهة؟.

أ ـ عقاب إلهي أم اضطهاد إنساني؟

من المتعارف عليه أنه إثر احتكاك شعبين مختلفين تنشأ روابط تجارية وعلاقات اقتصادية وفي بعض الأحيان تفرض الوقائع اللغوية والتيارات الأدبية نفسها في تسلط ثقافي عام يصبح فيه أحد هذين الشعبين تابعاً ثقافياً للآخر. إن هذه الاحتكاكات المفروض فيها نظرياً أن تكون بريئة وبعيدة عن التأثير والتأثر، تمهد السبيل أمام تقارب شامل، يبدأ بميل نحو تذوق الأفكار الغريبة وينتهي بشعور جارف يتطلع إلى الدمج والانصهار. إن تاريخ الشعب العبري يشهد أنه في العديد من المرات هبّ الحاخامات يصرخون وجلين: «يا للفضيحة!!» والسبب أن الشعب قد ترك نفسه ينساق وراء التأثيرات الخارجية. وفي سبيل «إنقاذ الأمة من الخطر المحدق بها» فإن كل الوسائل كانت صالحة بشرط تأمين الحفاظ على الوحدة الدينية وترسيخ الإبقاء على الرابط القومي بعيداً عن كل تفكك أو انحلال. وهكذا فإن الأكثر اطلاعاً على أحداث التاريخ والأشد معرفة بما يختلج في طبقات المجتمع اليهودي كانوا

يلمّون بالمؤشرات المنذرة بقرب وقوع مأساة قومية رهيبة، فما كانوا يتورعون عن أي عمل يمكن عمله ليتداركوا تفتت القوم وينقذوا وحدة الأمة.

وغالباً، ما كان «الشعب المختار» يجد وحدته وتماسكه في المصائب ويتطهر من ذنوبه ويطمع من جديد برحمة يهوه ورأفته.

وفي كل مرة كان الاضطهاد يلحق باليهود، كانوا يلجأون إلى ممارسة بعض الطرق الروحانية المعروفة تحت اسم «القبالة»، التي نشأت في ألمانيا وانتشر تداولها في القرن الثاني عشر. وكان هدفها السعي للوصول إلى الحقيقة التي يتضمنها الكتاب المقدس والاجتهاد للكشف عن الأسرار الكامنة في كل كلمة من كلمات النصوص الإلهية أو التي تختفي وراء كل حرف من حروف هذه الكلمات. بهذه الطريقة فقط يمكن أولاً تحديد الأسباب التي هي وراء انحطاط الأمة (في الغالب سلوك لا ديني ناتج عن ميل نحو الانصهار في الأمم الغريبة يجعل يهوه يستشيط غضباً فيلجأ إلى الانتقام) ومن ثمّ التخطيط للخروج من هذا الخطر المحدق ومن هذا الانصهار الخطير بواسطة الاستغفار والتضرع وتقديم الذبائح. عندئذ، ومن صميم التجربة الحاسمة يتفجر نبع جديد من القوة ومن الطهارة ينقذ اليائسين ويملأ قلوبهم بقوة خارقة وبصبر كبير على تحمل المصائب المادية وعلى السمو فوق الآلام الجسدية. يقول كاتبهم المشهور إبستاين: «إن كتاب الزهار قد علمهم أن يروا في مآسيهم انعكاساً واضحاً لمأساة العالم بكامله، حيث ليهوه نفسه تورطات واضحة. ولم يكن يساورهم أدنى شك في ما يتعلق بالانفراج أو بما ستنجلي عنه هذه المآزق».

إن كل انفتاح على الأمم الأخرى كان في نظر الحاخامات يحمل في طياته بذور أخطار جسيمة. لذلك كانت إسرائيل في أكثر مراحل تاريخها تشبه تلك القلعة المهددة أبداً، والتي كان عليها حماية نفسها من الهجوم المباشر أو من تسرب العناصر الماكرة. وهو وضع سخيف ومأسوي.

سخيف لأن إسرائيل المشتتة في كل أنحاء العالم لم يكن لها ما يحميها

من الاختلاط بالأمم الأخرى. في مفهوم بعض رجال الكهنوت كانت حدود إسرائيل تمتد إلى كل صقع من أصقاع العالم يوجد فيه إسرائيلي واحد. فإسرائيل كانت في أوروبا وفي أميركا وفي أفريقيا في آسيا وفي أستراليا، إسرائيل كانت حتى في معسكرات التعذيب. هذا في ما يتعلق بإسرائيل الأمة، أما إسرائيل الدولة فإنها كانت هدفاً سامياً تتطلع إليه نفوس اليهود مهما طال الانتظار وكيفما تبدلت المعطيات.

مأسوي بسبب ذلك الحرص المبالغ فيه بالحفاظ على عنصر نقي لا تشوبه أية شائبة اختلاط مع العناصر الغريبة الأخرى وتلك الوساوس المتجددة التي كانت تؤرق رجال الكهنوت في سبيل الإبقاء على تقاليد اجتماعية وطقوس دينية صافية الأصالة نقية الجوهر خالية من كل تأثير خارجي. وكانت تراود الحاخامات دائماً أفكار مفادها أن الاحتكاك بالأمم الأخرى يعرض الشعب اليهودي إلى الخطر؛ ولم يكن هذا الخطر مقتصراً على الخوف من صرف انتباه الشعب اليهودي عن تقاليده وتحويل اهتماماته إلى عبادات أخرى، بل كان الجزع الحقيقي يكمن في ما قد ينتج عن ذلك الاحتكاك من إمكانية تهيئة الشعب اليهودي إلى الانصهار والاندماج في الشعوب الأخرى.

وفي أكثر الأحيان، كان نوع من الفتور الديني يتسرب إلى نفوس الشعب الإسرائيلي إثر كل احتكاك مع شعب غريب. فتور كانت الآداب التوراتية تتطرق إليه فتدرسه وتحقق في آثاره وتبحث عن أصوله وتصور مظاهره على الشكل التالي: ضعف ناشيء عن الجري وراء الترف، تصلب مُتهور في النزوع نحو الأعمال الشريرة، ميل أعمى ناحية الدعارة والأعمال الشائنة، انغماس في الرشوة والفساد، لجوءٌ إلى الاستبداد والطغيان... الخ. عندئذ، ينحط الشعب المختار ويتزعزع إيمانه فينهار سلوكه الديني. ويغضب يهوه ويتحقق العقاب. وبقدر ما تكون الردة الدينية أعمق والتردي الأخلاقي أكثر فساداً يكون العقاب أشد وأشمل.

سواء كان الأمر متعلقاً بالأمة أم بالدولة فإن مسؤولية المصائب كافةً

التي تنزل بشعب الله المختار كانت تنسب إلى ذنوب يقترفها مثل: الزواج المختلط، الشك بالقدرة المطلقة للرب، التفكك الديني، الانحطاط الاجتماعي، التشبث بالماديات على حساب الروحانيات. . . الخ. أما الذنب الأكثر شناعة والأشد مقتاً فهو الزواج المختلط لأنه برأي الكهنة لا يلوث طهارة دم الشعب المختار فحسب، بل يهدد الأمة جمعاء بالفناء التام. فمعارضة هذا الزواج والتشديد في منعه يحمي الأمة من الانزلاق إلى تقليد الوثنيين والوقوع في شرك عباداتهم وضلالها. إن تشريد عشرة من أسباط بني إسرائيل وتهديم الهيكل الأول، لم يكن ليحصل لولا انتشار الزواج المختلط وإقدام الشباب اليهودي على الزواج من وثنيات. فالآداب التوراتية توقفت كثيراً عند هذه الظاهرة ولم تتردد في غزو انتشار الارتداد الديني وتفشي مساوئه في المجتمع الإسرائيلي إلى دسائس الزوجات الأجنبيات واستفحال نشاطاتهم الماكرة.

فإذا كانت الذنوب الاجتماعية كالرشوة والدعارة والعربدة والسكر. . . الخ تتسبب في وقوع المصائب الطبيعية من زلازل، وجراد، وأوبئة، وقحط وجوع. . . الخ فإن الأمور تأخذ منحىً مغايراً حين تندرج الخطايا في سياق الشؤون الدينية وتكون نابعة من تيارات الارتداد الديني كالإيمان ببعل وعبادة العجول واضطهاد الأنبياء وتحدي يهوه والجري في إثر كل ما هو غريب. . . الخ عندئذ تستفحل الخطايا وينجم عنها عقاب سياسي شديد، فتندلع الحروب، وينتشر الخراب ويكثر القتل، ويتفاقم التهديم، ويعم الاضطهاد والتنكيل ومن ثم النفي والتشريد. . . الخ.

إن إمعان بعض الشعوب في اضطهاد اليهود هو نتيجة معاملة اليهود لهذه الشعوب أو حصيلة تفكير عميق للحاخامات مستمد من المبدأ الكهنوتي القائل: «إن الإنسان يجب أن يكون في خدمة الدين وليس الدين في خدمة الإنسان»، أي يجب على اليهودي أن يقبل بالموت في سبيل إنقاذ الدين من الخطر. وفي الغالب فإن ثلاثة دوافع رئيسية تحمل على اللجوء إلى هذا الحل الكهنوتي:

١ ـ درجة الاقتناع بالانصهار ونسبة انتشاره.

٢ ـ الظروف الاقتصادية.
٣ ـ أبعاد تفشي الردة الدينية ومدى خطورتها على الوحدة الوطنية. لذلك، فإن في كثير من الأحيان لا يكون هذا الاضطهاد، في جوهره، سوى رأس حربة ذكية يستعملها الكهنوت في سبيل ردع المؤيدين للانفتاح على الأمم الغريبة، أو هو آخر سلاح يضمن نجاة الأمة من تشرذم أكيد على أثر تيار قوي من الامتناع بالانصهار.

إن التحدي الواضح الذي أطلقه النبي إيليا في وجه المنحرفين دينياً لا يزال صداه يتردد في نفس كل يهودي لا سيما حين تساوره مشاعر قوية للاندماج في الشعوب الغريبة. على جبل الكرمل تقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال:

«حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه. وإن كان البعل فاتبعوه فلم يجبه الشعب بكلمة».
[الملوك الأول ١٨/ ٢١]

وفي حين يفشل هذا النداء في اقتناع أكثرية اليهود بالعدول عن غيهم والرجوع عن انحرافهم فإن «القوى القومية» الكهنوتية تشهر سلاحها، سلاح هو في الغالب قاطع وحاسم.

إن ليهوه حرية اختيار الذراع المنفِّذة بين الأمم كافة ليعاقب شعبه. فقد اتخذ مرة من حزيال، ملك آرام، العصا المُصلحة، التي بها ضرب شعبه ورده عن كفره. وتحت وطأة ضربات هذا الملك الوثني، ذاقت إسرائيل طعم الذل والهوان وتقلص نفوذها لتصبح مستعمرة آرامية تستكين للغزاة بضعف واستسلام. ونتائج عقاب كهذا ليست عديمة الفائدة لأنها بحد ذاتها المدخل الأساسي والوحيد نحو التوبة والاستغفار. فإذا كان الإنسان، حين يبتعد عن الطريق القويم، ينغمس في الخطيئة وبتعاطي المحرمات، فإن الندم والتوبة بعد العقاب، كفيلان بأن يُصلحا ما فسد وجديران بأن يعيدا المنحرف إلى سواء السبيل، والضال إلى حظيرة يهوه الرب الوحيد. فكل ما هو ألم وغضب وهول وفظاعة وتنيكل وعذاب وقتل وتدمير، يختفي ويزول مفسحاً المجال أمام الرجل العاقل والمؤمن والتقي والورع بالشروع في بناء حياة

جديدة في عالم جديد قائم على العهد الأبدي الذي لا تفتأ الأحداث المؤلمة والكوارث المريعة من التأكيد على صحته والتركيز على قدسيته وإعطاء البرهان الساطع على أزليته. من أحزان الندم ومن دموع التوبة تنبعث أمة جديدة طاهرة ومؤمنة. من نوائب العقاب ينبثق شعور ديني قديم يرافقه زخم هائل من التقوى والورع وإحساس عميق بحلاوة التوبة ومرارة الندم بعد نشوة الصفح ولذة الغفران.

«لأنه هكذا قال الرب لبيت إسرائيل أطلبوني فتحيوا».

[عاموس ٥/ ٤]

هناك في تاريخ بني إسرائيل بعض الثوابت التي تظهر تباعاً على عدة مراحل وتؤلف حلقة تتدرج فيها الأحداث على الشكل التالي: ذنوب وضلال ـ سبي وتنكيل ـ ندم وتوبة ـ صفح وغفران. إن هذه الحلقة تأخذ شكلها الملموس من خلال تأرجح مأسوي بين قطبي الجاذبية التي شدت إسرائيل إليها فمزقتها وشتتتها على مدى تاريخها الطويل منذ أمينوفيس الثاني حتى معسكرات هتلر النازية وهي: الانصهار والاندماج من ناحية، والعذاب والتنكيل من ناحية أخرى. ومن الخطأ الفاحش الادعاء أن كل ما لحق باليهود في أوروبا من عذاب واضطهاد وتشريد يعود إلى التهمة التي ألصقت بهم على أنهم قتلة ابن الله، وإلا كيف تفسر ما لحق بهم قبل المسيح على أيدي فراعنة مصر وملوك أشور: تغلت فلَصَّر الثالث، شلمنصر، سرجون الثاني سنحريب، وبدون أن نغفل أيضاً نبوخذنصر البابلي أوثيتوس الروماني؟ إذ إنه في عهد هؤلاء الملوك لم يكن المسيح قد جاء ولم يكن قد صلب بعد. ولكن اليهود كانوا دائماً يتأرجحون بين التقوقع والانفتاح بين الانعزال والانصهار، وفي كلتا الحالتين كانوا دائماً يجلبون على أنفسهم الاضطهاد والتنكيل.

وهذه الأحداث الدورية ما هي بالنسبة لليهود إلا حوار واضح وصريح بينهم وبين الرب. فسواء في انتصاراتهم أم في هزائمهم فإنهم يسمعون دائماً صوت يهوه حاملاً إليهم إما البركة وإما اللعنة. ويقال إن اليهودي الذي ينتحب في المصائب هو إنسان قد نسي أصله اليهودي. فاليهودي الحقيقي لا

يبكي ولا يشكو ولا ينتحب إلا أمام حائط المبكى. فمهما كانت فظاعة المصيبة التي لحقت به ومهما كانت دوافعها ومظاهرها، فإن الإسرائيلي الصميم لا يعزو أسبابها إلا إلى عقاب صادر عن الإرادة الإلهية. فلنستمع مثلاً إلى الفتاة اليهودية «آن فرانك» تقول في كتابها الذي نشرت فيه مذكراتها حين كانت تقيم في مخبأها السري إبان الحرب العالمية الثانية: «مَن الذي طبعنا بهذا الطابع؟ من الذي قرر عزلنا عن باقي الشعوب وألحق بنا كل هذا العذاب؟ إنه الرب. هو الذي أراد وهو الذي قرر. وهو أيضاً سوف يخرجنا من هذا الجحيم». وعلى الرغم من كل هذه الآلام التي كانت تعانيها في ذلك الحين، فإن قلمها يكشف سريعاً عن حقيقة كبريائها اليهوديّة وعنصريتها القومية، فتستطرد قائلة: «بالرغم من هذه المحن التي تحاصرنا من كل جانب إذا كُتبت النجاة لبعضٍ منا، فلا بد عندئذٍ من التأكيد أن من اليهودي الملاحق والمضطهد سوف يخرج الإنسان القدوة والمثال. من يدري، فقد يأتي يوم يصبح فيه كتابنا المقدس منارة للعقول، وينبوعاً للخير لكل الأمم ولكل الشعوب، وإلا فلا معنى لكل آلامنا ولا فائدة منها. لن نصبح أبداً، ومهما تغيرت الأحوال، مواطنين دولة أجنبية، أبداً لن نصبح فرنسيين أو هولنديين أو إنكليز. نحن يهود وسوف نظل ونبقى يهوداً لأننا نريد ذلك ونتعلق به».

إن كل شيء يحملنا على الاعتقاد أن المصائب التي لحقت باليهود على مدى التاريخ كانت تأتي في الوقت المناسب وكأنها مدرجة ضمن برنامج مدروس كي تلعب دوراً مهماً في تنقية الجو المشحون بالتوتر بينهم وبين الرب. إنهم يعرفون جيداً أن العذاب الذي عانوه سابقاً لم يكن سوى نتيجة حتمية ومتوقعة للذنوب التي اقترفوها، وهو السبيل الوحيد إلى التفكير، والشرط الرئيسي للصفح والغفران، والثمن الحقيقي للفوز بالقدسية من جديد. إذ بعد ضلال البعض، وبعد التنكيل بالبعض الآخر، هناك «بقية» ما عليها تقع مسؤولية بعث الحياة الدينية الصافية من جديد وإضاءة مشعل النمو والازدهار، فالمثل اليهودي يقول بوضوح: «لا حاجة لأكثر من ثلاثين يهودي فقط لضمان استمرارية اليهودية وإنقاذها من الفناء».

جاء في التلمود: «أليس بمقدورنا، تبرير نجاح الشرّير ولا تفسير محنة العادل». ومع أن إسرائيل هي في الأصل شعب الله، شعب العهد والميثاق، فإنها لم تنجُ ولن تنجو من العقاب. إنّ الحلقة القائمة على الذنب والعقاب، على الندم والتوبة، على الصفح والغفران تتطلب تضحيات تكفيرية تتراوح نسبتها من حيث الكمية والنوعية بحسب ما تكون الذنوب المقترفة، دينية جماعية أم اجتماعية فردية، لأن الرب يعاقب إسرائيل في سبيل إنقاذها، فهو يحبها.

فالتوارة تؤكد أن النبوة من ناحية، والآلام والعذاب من ناحية أخرى، هما أمران لا ينفصلان عن بعضهما.

وعلى الرغم من كل هذا نجد «أمة النبوة» هذه، تبكي وتنتحب، تشكو وتتأوه، كلما ألمّت بها مصيبة، أو نزلت بها نائبة أو حلت بها ضائقة متناسية أن اليهودي الذي ينتحب هو إنسان قد فَقَد يهوديته أو تغاضى عنها، لأن اليهودي الحقيقي، المسؤول والملتزم، المؤمن والمتمم واجباته الدينية، لا يبكي ولا ينتحب إلا أمام حائط المبكى.

إن المركز الذي منحته لنفسها بين الأمم يستوجب، حسب الأدب التوراتي، عذاباً وآلاماً وتجارب قاسية هي في مجملها اختبارات طبيعية يمر بها كل نبي تحمل مسؤولية نشر رسالة سماوية، فكيف إذن إذا كانت الأمة بكاملها هي أمة نبوة و «مملكة كهنوت»؟

وحرصاً على درء خطر الأزمات الداخلية الناتجة عن ضعف في الإيمان أو عن تهاونٍ في تطبيق الناموس، لجأ العقل الحاخامي إلى إعداد معادلة خطيرة تعيد للشعب تلاحمه وتحفظ للدين جذوره وتؤمن لجذوة الإيمان تأججها الدائم في النفوس المترددة. وهي معادلة بسيطة وسهلة التنفيذ. بسيطة لأنها في محنة المفاضلة بين اليهودية كدين وبين اليهودي كإنسان، فإن اختيارها التلقائي يقع مباشرة على اليهودية. سهلة التنفيذ لأنها لا تجد حيفاً في قتل اليهود عندما تقرع الأجراس. إن ترتيب المجازر ضد اليهود وإذكاء روح العداء ضد السامية في نفوس الشعوب التي سئمت من

نزعة اليهودي الاستغلالية الوقحة وضاقت ذرعاً بخصوصياته المتكبرة، هي من الأمور السهلة المنال، فقد لجأ إليها الحاخاميون في كل العصور وفي ظل مختلف الأنظمة تحت شعار: «لا ضيم من التسبب بمقتل اليهود في سبيل الحفاظ على الدين». ثم لا يخفى بعد ذلك ما تتركه هذه الموجات الموسمية من «الانتفاضات الحاخامية» من أثر بليغ في نفوس اليهود المترددين والذي يبدو واضحاً في عودتهم السريعة إلى الالتحام والتماسك عبر نزعة عنصرية حادة من الكبرياء واحتقار سائر الأديان. الصهيونية نفسها، في جوهرها وفي أصولها، هي شكل من أشكال هذه النزعة الهادفة إلى رص صفوف الشعب في وحدة قادرة على الصمود في وجه تيارات الانصهار أو الذوبان وتيارات الإلحاد والخروج على مبادىء التوراة والناموس. سلاح الصهيونية بمتناول يدها، سلاح حاسم يحول دون المترددين ودون التفاعل الصادق والحقيقي مع المجتمعات المضيفة.

إن الصهيونية هي الرادع النفسي والمادي لكل جالية يهودية نسيت يهوديتها وتراخت في الحرص على خصوصياتها، تاركة نفسها تذوب شيئاً فشيئاً في مجتمع أحسن وفادتها وتقبل وجودها. إن الصهيونية هي دائماً بالمرصاد لمثل هذه الاسترخاءات الخطيرة. لا بأس من التغاضي عن بعضها إذا كانت فردية ومحدودة، لكن من الواجب زجرها بعنف والتصدي لها بشراسة إذا كانت جماعية وصادقة. فمن تعاليم الصهيونية الأساسية ما يفرض على اليهودي:

أ ـ أن يحافظ على شخصيته التوارتية أنى كان وكيفما كانت أساليبه المعيشية.

٢ ـ أن يتمسك بحرص وبصدق بمجمل التقاليد الطقوسية والثقافية.

٣ ـ أن يحدد موقفه من المجتمع الذي يعيش فيه، مسيحياً كان أم مسلماً.

٤ ـ أن يضمر مشاعره في خلايا نفسه إذا كان الإجهار بها يجلب المتاعب.

٥ ـ أن يتوخى الحفاظ على سلوكه اليهودي نقياً ودقيقاً.

فمن الواضح أن تاريخ هذا الشعب يترك أثراً في نفس كل يهودي من جراء أحداث الاضطهاد والتنكيل والسبي والتشتت التي توالت عليه بانتظام

ورتابة منذ القرون الأولى حتى العهود الحالية. ولكن من المهم أيضاً الإدراك أن هذه الأحداث المأسوية كانت تنفرج، وتجاوُزاتها تنتشر، ووقعها يتضاعف، حسب برنامج مدروس ووفقاً لتوقيت دقيق. إن أجراس اصطياد اليهود ما كانت تقرع إلا عندما كانت اليهودية نفسها مهددة بخطر التلاشي والذوبان أو حين كانت نقاوة العرق «السامي» مهددة بالتلوث والانحلال.

ب ـ السامية واللاسامية

إن اليهودية ترتكز على مبدأين أساسين هما:

١ ـ الإيمان باله واحد.

٢ ـ اختيار إسرائيل لنشر هذا الإيمان.

إذا كان الإسلام على اتفاق تام مع اليهودية بما يتعلق بالمبدأ الأول مبدأ وحدانية الله وقدرته، فإنه يختلف معها اختلافاً مطلقاً حول صحة المبدأ الثاني وواقعيته.

فالإسلام يجد في المبدأ الثاني تعنتاً عنصرياً وتزمتاً قومياً يحمل في طياته عناصر تفرقة خطيرة وبذور مغالاة مجحفة ودوافع تسلط أعمى. فمعظم المغامرات التي عاشتها إسرائيل وأكثر الشدائد التي نزلت بها، وغالبية المصائب التي لحقت بها على مدى تاريخها هي النتيجة الحتمية والمباشرة للإقتناع بهذا المبدأ، مبدأ الاختيار الإلهي الذي نتج عن تفسير الآية التالية:

«وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة».

[خروج ١٩/٦]

إن الأبعاد الزمانية والمكانية لهذه «القدسية» تبدو واضحة في الكلمة العبرية «قادوش» التي تحمل في نفس الوقت معنىً سلبياً: «الانفصال عن» وآخر إيجابياً: «التكريس لِ» أي الانفصال عن كل ما من شأنه إضعاف هذه الجدارة بالقدسية والتكريس لخدمة الرسالة «المقدسة من الرب». وباختصار فإن إسرائيل هي شعب العهد والميثاق، وكي تستحق هذه النعمة الإلهية وهذا

الحب الرباني عن جدارة، عليها أن تحافظ على «قدسية» شعبها، أي أن تتمسك بالتوازن الدقيق بين انفصال عن باقي الأمم واختلافٍ عن كافة الأقوام، واختيار إلهي لنشر رسالة سماوية تجعلها على احتكاك دائم بباقي الشعوب، وتكليف سماوي بتعريف البشرية على مبادىء الوحدانية وجوهر الدين تتطلب تعاملاً مباشراً مع الأمم الأخرى.

فإسرائيل كـ: «مملكة كهنة» تؤلف الشعب الذي عن طريقه وحده فقط تتمكن الشعوب الأخرى معرفة الخالق والإلمام بتعاليمه وتطبيق طقوسه والقيام بعبادته. لقد أقام الرب عهداً مع إبراهيم يحمله هو وذريته مسؤولية تعريف الناس بـ:

«طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً»

[تكوين ١٨/ ١٩]

فبفضل هذه الميزة التي توارثها أحفاد إبراهيم، وقع اختيار الرب على إسرائيل كي يجعل منها قاعدة شعبه المفضل وأمة أنبيائه الصالحين.

فانطلاقاً من الآيات المذكورة أعلاه تصور اليهود أن عليهم في سبيل الحفاظ على حقهم «كأمة مقدسة»، التمسك بطريقة عيش خاصة بهم تحفظ لهم خصوصيتهم وتضمن لهم نقاوتهم وتبقي على ميزاتهم الدينية والعنصرية والتاريخية والاجتماعية. . الخ، لأن أمتهم، حسب اعتقادهم، ليست مقدسة إلا بقدر استطاعتها على القيام بدور «مملكة الكهنة» المنوط بها هداية الشعوب وحمل البركة الإلهية إليهم.

إن المأساة التي مزقت إسرائيل وعانت نتائجها الإنسانية كلها تجد جذورها في التباين الصارخ الذي فرضته إسرائيل على نفسها. فمن ناحية هي «الأمة المقدسة» التي يتوجب عليها الترفع عن كل ما هو واقع خارجاً عنها والتسامي عن كل ما من شأنه المساس بأفضلية عنصرها، ومن ناحية أخرى هي «مملكة كهنة» من واجباتها الرئيسية التعامل مباشرة مع الآخرين في سبيل نشر الهداية من خلال رسالتها الكهنوتية.

نستنتج مما شرحناه سابقاً:

١ ـ أن كل مشاكل اليهود تنبع من اقتناعهم بأفضليتهم على باقي الشعوب. فهم لا يعتبرون أنفسهم طائفة دينية مدعوة للعيش والتعايش، للسكن والمساكنة، للمبادلة والتبادل، للتأثير والتأثر مع الآخرين ضمن إطار واضح من العدل والمساواة، بل إنهم يتصرفون وكأنهم أمة متميزة، مشتتة مؤقتاً، هاجسها الرئيسي السهر على صيانة العرق من التلوث ووقاية الكيان من الاضمحلال، ريثما يلتئم الشمل في الأرض الموعودة. في هذه الأثناء، فإن كل مصيبة وكل هزيمة وكل معاملة سيئة وكل اضطهاد وكل تعسف وتنكيل لا تفسر على أنها عقاب إلهي فحسب، بل أيضاً كإشارة إنذار وتحذير موجهة إلى ذوي الميول الضعيفة والمقاومة الخائرة.

٢ ـ على الرغم من التصنيف المثلث الوجوه الذي نُعت به اليهودي وعُرف فيه على أنه: قاتل ابن الله، مرابٍ وعنصري، فإننا نعتقد أن الدين (قتل ابن الله) والاقتصاد (الرِّبا) ما كانا يكفيان لوحدهما كي يفجّرا تلك الموجات العارمة من الشعور العدائي ضد السامية، فهما على الأرجح اتخذا كدوافع إضافية لتأجيج نار الحقد والضغينة التي أُضرمت في ظلام العصور الغابرة من تاريخ الشعب العبري، قبل مجيء المسيح بزمن بعيد. ذلك أنهم وهم يتظاهرون بالعيش على هامش حياة المجتمع الذي يستضيفهم، فإنهم يراقبونه كي يستغلوه بذكاء، ويتجسسوا عليه كي يدمروه من الداخل عند الضرورة. فعلى الرغم من تظاهر البعض بالانصهار وادعاء البعض الآخر بالإلحاد، فما من مرة واحدة تنازل فيها اليهودي عن يهوديته أو تشكك في تفوقه العرقي وأفضليته الدينية. إذ يبقى دائماً على اعتزازه بجذوره السامية العريقة ويفتخر بأصوله التاريخية النبيلة.

إن تعنت الشعب اليهودي «المتكبر والحرون» يأتي في الواقع من الصفة التي نعته بها الرب قائلاً عنه إنه «شعب صعب المراس». إلا أن هذا السلوك نشأ في الأصل من كلمة «سامية» المشتقة من: «سام» الذي يعني:

الرفيع ـ العالي ـ الجليل ـ النبيل ـ المتفوق، ومنه اشتقت كلمة سماء أيضاً. فاليهود مقتنعون اقتناعاً حاسماً وحازماً بتفوقهم هذا من خلال «ساميتهم» التي ما تراجعوا أبداً عن التباهي بها والتفاخر بعراقتها. والجدير بالذكر في هذا السياق أن اليهود وحدهم عرفوا في العالم على أنهم ساميون صميمون لا يشاركهم في هذا المحتد أحد. فسامية العرب مثلاً مشكوك في أصالتها، أو هي سامية درجة ثانية، طغت عليها العروبة وامتصتها الصحراء حيث طرد إسماعيل ابن الجارية المصرية سليلة حام، فيما العرق اليهودي يرتقي إلى إسحق المتحدر من أبوين ساميين صميمين: إبراهيم وسارة. وبما أن كل نظرية تستوجب خلق عكسها فإن السامية استوجبت خلق اللاسمية كي تخفف من غلواء إدعاء قاطع بالتفوق والأفضلية. إن كلمة «سامي إذاً لا تقتصر في مفهوم اليهود للدلالة على عرق أو على عنصر أو على دين أو على لغة بل تتضمن أيضاً معنى واضحاً ودقيقاً كان على الدوام مقترناً بسلوك اليهود وملازماً لتصرفاتهم وظاهراً في تعاملهم مع الآخرين. أي أنه مثلما هناك عرق سامي هناك أيضاً سلوك سامي» موجود ليس فقط في المفردات اللغوية ومدلولاتها المعنوية بل هو حاضر وملموس في الوقائع التاريخية منذ أن احتك أحفاد سام بأحفاد حام في مصر الفرعونية إلى أن التقت ذريتهم بذرية يافت في الديار الأوروبية. ففي كل الأحوال أن شعوراً دفيناً بتفوق السامية متستراً وراء مظهر من التواضع الكاذب، وعنجهية عنصرية مقنعة بستار من الرياء، وجشع مادي أعمى متخف في زوايا قاعات الجمعيات الخيرية الوهمية.. الخ أفرزت شعوراً معادٍ للسامية، بدأ في ظاهره كأنه ذا أبعاد عدوانية ونوايا هجومية، فيما هو في الحقيقة موقف دفاعي وردة فعل وقائية.

فإذا ما نظرنا إلى اللاسامية من هذه الزاوية بدت لنا وكأنها بعيدة كل البعد عن كل ما ألحق بها من «ذنوب» وما ألصق بها من «خطايا»، إذ من حق أي إنسان أن يعترض على كل شعور بالاستعلاء وأن يعارض كل ادعاء بالتفوق مهما كان هذا الشعور رقيقاً وناعماً وماهراً في التستر.

أما في ما يتعلق بالمآسي التي عانى منها بنو إسرائيل فإنها لا تتعدى في

الحقيقة كونها وهماً واختلاقاً، عمل الكهنوت على اختلاقها، لأنهم بحاجة إليها من أجل:

١ ـ وقاية «الشعب المختار» من أخطار أي انصهار محتمل، كان من الممكن أن يتسبب في تلاشي «العنصر المبارك».

٢ ـ التكفير عن الذنوب التي اقترفها «الشعب الصعب المراس» على أثر احتكاكه بالشعوب المارقة الأخرى.

٣ ـ خلق عند الشعوب المضيفة أزمة ضميرية قائمة على عقدة الذنب في سبيل خنق كل شعور لديهم بالعدل والإنصاف.

٤ ـ ابتزاز ثروات هائلة بحجة التعويض عن مجازر تعسفية وتوظيفها في مشاريع «استصلاح صحراء» اغتصبت من شعب آخر.

هذا هو أساس الشعور بـ «عقدة الذنب» الذي ما فتيء يقضّ مضجع الضمير المسيحي في الغرب عبر حلقة جهنمية من الابتزاز المادي ومن التقريظ الوجداني.

أخيراً، من الممكن الملاحظة ونحن نستعرض تاريخ الشعب اليهودي أن هناك حدثين مهمين يلفتان الإنتباه بتشابههما لا سيما في ما يتعلق بالمجازفات التي ركب متنها بنو إسرائيل كي ينقذوا العنصر اليهودي من خطر الاندماج أو الانصهار أو الذوبان. الحدث الأول هو الخروج الذي حدث في مطلع العهد المسيحي، والثاني هو العودة التي تحققت في منتصف القرن العشرين عند نهاية الحرب العالمية الثانية.

الخروج

عندما غزا العبرانيون أرض كنعان واستقروا فيها، كانوا قد خرجوا من طور البداوة والترحال المطلق ليباشروا حياة جديدة هي في الواقع حياة نصف بداوة وترحال، عرفوا أثناءها مراحل من التقدم والازدهار وعاشوا خلالها مع أحداث خطيرة، لكن خطرها لم يكن من القوة والشمول بحيث يشكل تهديداً مباشراً على وجود أو كيان الدولة العبرية ـ فعلى الرغم من العنف الذي رافق

الغزو البابلي وما نتج عنه من تهديم للهيكل ومن سبي ونفي وتنكيل، فإن نتيجته لم تكن سلبية تماماً بالنسبة لبني إسرائيل، إذ ان إقامتهم في بابل أتت عليهم بالنفع العميم على أكثر من صعيد. أولاً، عندما أصبحت بابل المركز الرئيسي والخصب للفكر اليهودي فأتاحت الفرصة أمام الكهنوت لرصّ الصفوف وتوحيد الكلمة تفادياً لكل خطر قد ينشأ عن الميعان الديني، ثم التصدي لكل محاولة للإنصهار أو الذوبان. فبفضل هذا الموقف كان ممكناً بناء الهيكل من جديد بعد سبعين سنة فقط من السبي والتشريد. ثانياً، الحدث الأهم هو أن إسرائيل، على الرغم مما جرى، ظلت قابضة على زمام الفكر ومحتكرة للعلوم الدينية خاصة. فقد أحسّ اليهود بخصوصيتهم وتأكدوا من صدق إيمانهم أكثر من أي وقت مضى وعادوا من بابل وقد اشتهر إيمانهم بكونهم فعلاً شعب الله المختار، واعتقادهم أقوى بحقيقة تفوقهم العنصري.

ومما لا شك فيه أن بناء الهيكل الثاني عرف بفضل عزرا إصلاحاً حقيقياً كان هدفه التأكيد على قدسية الوطن اليهودي وكان من إنجازاته تجديد العهد بين الرب وشعبه المختار، لكنه لم يتمكن من الحؤول دون انتشار الميثولوجيا البابلية أو العقائد الشرقية وتأثيرها في توجيه بعض الاجتهادات الدينية وبعض التفسيرات التوراتية.

ثم أتى الإغريق وجاء معهم العلم والفلسفة والفن فشيدت مدن كثيرة ذات طابع أغريقي صرف في فلسطين وبفضلها صار ممكناً الاحتكاك المباشر بين الشعبين ونشطت حركة التأثير والتأثر. الحكم الذاتي المتطور الذي كان ينعم به الشعب الإسرائيلي تحت الاحتلال مهد السبيل أمام بعض الأفكار والممارسات الإغريقية لتدخل إلى اليهودية وتتسرب إلى كل الطبقات الاجتماعية لا سيما الطبقة الثرية والطبقة الأرستقراطية.. لكن عامة الشعب لم تتمكن من الصمود طويلاً أمام الموجات المنادية بكسر نطاق الإقليمية الضيقة والتطلع إلى آفاق العالمية الواسعة والبعيدة التي حملتها معها الحضارة الإغريقية الواحدة. ومع أن هذه النزعة نحو الانفتاح على العالم بأسره كانت في نظر رجال الكهنوت رمزاً للإنحطاط الخلقي ومدخلاً للعودة

إلى الوثنية، فلم يخل الأمر من انفتاح بعض اليهود المتطورين على أصداء الأصوات الآتية من الحضارة الجديدة وترحيبهم بفتح أبواب يهودا أمام التأثيرات الإغريقية.

من الواضح أنه بفضل الانفتاح على باقي الأمم من ناحية وتحت تأثير ازدهار الحضارة الإغريقية من ناحية ثانية انفتح بعض أنبياء بني إسرائيل أيضاً على الأقوام الغربية ولكن من دون أن يمسوا كيان إسرائيل الخاص ومن غير أن يتطرقوا إلى تفوقها وقدسيتها:

١ ـ يوئيل يؤكد على أن روح الرب سوف «تُسكب على كل بشر» من دون تفرقة حتى أنها لن تستثني لا الخادم ولا الخادمة».

[يوئيل ٣/ ١ و٢/ ٢٦]

٢ ـ أرميا من جانبه يؤكد أيضاً على عالمية الدين وعلى هداية جميع الشعوب وحملهم على عبادة إله واحد، فيذكر يوماً:

«تأتي الأمم من أطراف الأرض ويقولون إنما ورث آباؤنا كذباً وأباطيل وما لا منفعة فيه. هل يصنع الإنسان لنفسه آلهة وهي ليست آلهة. لذلك ها أنذا أعرّفهم هذه المرة أعرّفهم يدي وجبروتي فيعرفون أن اسمي يهوه».

[إرميا ١٦/ ١٩ ـ ٢٠]

ولكنه لا يغفل عن تأكيد تفوق إسرائيل ورسالتها المقدسة في دعوة كل الناس إلى عبادة الرب.

٣ ـ إن الآداب الكهنوتية وأسفار الحكمة بدأت تقول بصوت منخفض ومتردد، أن باقي الأمم على معرفة بوجود الرب وبقدرته وعظمته.

وعلى أثر ذلك الغليان الفكري وبسبب الحرية التامة التي منحها الإغريق لرعاياهم اليهود، فإن الوحدة الفكرية الإسرائيلية أخذت تتمزق ما بين أصوليين متزمتين متعصبين لقومية ضيقة ومنغلقة على نفسها وبين صدوقيين منفتحين على عالمية واسعة ولكن مشتبه بهم ومحاطون بحذر شديد وبرقابة قوية، مروراً بترقب الفريسيين وتنسك الآسانيين وتوقع الرؤيويين بمجيء المسيح الوشيك.

الفريسيون، ورثة فكر «الحصادين» المشبع بالروح التوراتية، ابتعدوا عن أفكار القومية الضيقة وعن ضرورة الدولة العنصرية، ومالوا نحو إمكانية تحقيق دعوة عالمية على مستوى البشرية بكاملها. ربهم لا تقتصر قدرته على حدود فلسطين بل تمتد عنايته في كل الاتجاهات حتى تشمل الأرض كلها. ولكنهم كانوا يرغبون في تنظيم كل شيء انطلاقاً من مصالح إسرائيل على اعتبار أنها «الشعب المختار» و «الأمة المقدسة» و «العرق المبارك».

أما الصدوقيون فقد كانت غالبيتهم مؤلفة من رجال دين سابقين ومن أغنياء ملاّكين تأثروا تأثيراً عميقاً بالفكر الإغريقي. ولكن، مع اقتناعهم بأفكار غريبة كثيرة واعتناقهم لها، إلا أنهم حافظوا على قوميتهم المتزمتة، وعلى نزعتهم العدوانية. وهم يختلفون عن الغربيين بتشددهم وبإلحاحهم على كيان الأمة، فيما كان هؤلاء، بالرغم من تعلقهم الشديد بالدولة، يلتزمون بالتقيد الدقيق بالتوراة فقط. هذا التباين في وجهات النظر بما يتعلق بأهمية التوراة من ناحية أو بأفضلية الأمة من ناحية أخرى كان نابعاً من تصورهم الخاص للرب. ففيما كان الصدوقيون يؤمنون برب قومي، رب خاص باسرائيل فقط، فإن رب الفريسيين كان رباً عالمياً، رباً للبشرية كلها.

وفي الوقت نفسه تشكلت فرقة الآسانيين الذين كانوا على طرفي نقيض مع الفريسيين لا سيما في ما يتعلق بالدين وبالأمة. وكانوا في غالبيتهم يعيشون ضمن جماعات منفصلة ويمارسون حياة زهد وتقشف صارمة حتى أنهم كانوا يعفون عن الزواج. وعلى العكس من التساهل الصدوقي فقد كانوا يلتزمون بحرفية نصوص الشريعة ويتقيدون تقيداً صارماً بكل ما جاء في الكتاب المقدس.

أخيراً، فإن بعض الفرق الكهنوتية تحصنت وراء شعور حاد بقدسية الأمة وخصوصية الرسالة وإيمان عميق بحسن المصير وقابلت إغراء الحضارة الإغريقية بفتور تام لا بل ببرودة وتجاهل ورفضت التعامل مع الأغراب أو التعاطي مع حضاراتهم مقتنعة أنهم يتقلبون في وثنية مترديّة. واليونان من

ناحيتهم، لم يسعوا لفرض ثقافتهم أو لنشر حضارتهم بالقوة. فاستغل رجال الدين هذا التسامح الإغريقي وتابعوا مسيرتهم التقليدية بعيداً عن كل ازعاج، مؤكدين على استقلالهم التام ومحافظين على مؤسستهم الخاصة. وكان من نتائج هذه الحرية أن تسرب الانشقاق إلى وحدة الشعب المختار عبر خط عمودي عزل القسم الأصولي المتزمت من جهة عن القسم المنفتح على الحضارة الإغريقية والمتأثر بممارساتها من جهة أخرى، مما ترتب عليه تشرذم تام للحياة الدينية العامة، لأنهم لم يكونوا مضطهدين أو ملاحقين أو مهددين بالسبي أو النفي بل لأنهم كانوا ينعمون بالحرية ويتمتعون بالتسامح، لذلك انغمس الشعب اليهودي، عشية الغزو الروماني في عام ٦٣ ق.م، في حرب أهلية انتهت بتحويل يهودا إلى مقاطعة ترزح تحت عبء الاستعمار الروماني.

إن آخر هذه الفرق كانت الفرقة اليهودية المسيحية التي نفحها صلب المسيح زخماً قوياً وأسبغ عليها طابعاً تحررياً زاهياً ومدها بنزعة استقلالية قوية على عكس ما كان يأمله الحاخامات ثم أتى القديس بولس مزوداً بنشاط متوقد ومدفوعاً بحماسةٍ لا حدود له فشجع النخبة من اليهود على الانضمام إلى الفرقة الجديدة التي بدأت تأخذ شكل دين مستقل ومنفتح. وبما أن الفرقة الجديدة كانت حريصة بالفعل على التمسك بعالميتها وملتزمة بايصال رسالتها إلى أقاصي الديار والبلدان، فإنها لم تلبث أن توجهت في إتباع خط مغاير للخط اليهودي المتزمت والعنصري، فكان لا بد للانفصال من الوقوع بسبب اختلاف الرسالتين وتناقضهما والتباين بين العقيدتين. وكان لهذا الحدث أثر كبير على استمرارية الدين اليهودي الذي أصيب بشرخ هائل انعكس بوضوح على مراحل تطوره وعلى تاريخ مسيرته. فما من شيء كان بمقدوره انقاذ اليهودية من المأزق الذي وقعت فيه، وما من قوة كانت تستطيع حماية الدين من تشرذم حاسم وربما من تلاشٍ محتوم، سوى عمل جبار، وتضحيات باهظة الثمن. فوقعت أحداث سنة ٧٠ بعد الميلاد وتلتها أحداث سنة ١٣٥. وكان الخروج من أرض الميعاد حاملاً معه التشتت والسبي، مؤكداً نبوءة أرميا:

«ها أنذا أطعم هذا الشعب أفسينتيناً وأسقيهم ماء العلقم.
وأبددهم في أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف
حتى أفنيهم».

[أرميا ٩/ ١٥-١٦]

بهذا العقاب الشديد والتنكيل والاضطهاد والسبي والتشتت تمكنت فلول الناجين من إنقاذ الدين والحفاظ على وجوده وضمان استمراره. إن الخروج وحده وبهذه الطريقة كان السبيل الوحيد لحل الأزمة وإنقاذ اليهودية.

ومضت الأيام وكذلك السنون فتغيرت المعطيات وتبدلت الظروف، وتشابكت المصالح، فأُعيد ترتيب المعادلات وفرز الطروحات. فبعد مرور عشرين قرناً على هذا الخروج وجد اليهود أنفسهم أمام مأزق مماثل لا بد فيه من اختيار أحد أمرين: إما تلاشي الدين وفقدان وحدته، وإما دفع الثمن الغالي والباهظ. إلا أن العنصر الجديد في هذا الموقف هو أن الثمن مهما كان باهظاً فإنه سوف يحقق لهم هدفين: الأول الحفاظ على وحدة الدين والثاني تأمين الرجوع إلى أرض الميعاد.

وهكذا حملت الصهيونية لواء العودة ومهدت لها السبيل فوق طريق من المخاطر وعبر نهر من الدماء. وكانت العودة.

العودة

حتى نهاية القرن الثالث الميلادي عكف اليهود على الغوص في أعماق التوراة وانكبوا على إعداد ما عرف فيما بعد بالتلمود. فالمفكرون منهم كانوا على يقين راسخ أن كل كلمة من الكتاب المقدس لم تكن سراً رمزياً يجب الكشف عنه وحسب، بل تحمل في طياتها قوة روحية هائلة. لذلك شرعوا في تفسير معاني القصص التوراتية وسبر غور الوصايا الإلهية.

وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية (٣٠٦ - ٣٣٧) جعلها ديناً رسمياً لكل الامبراطورية واتخذ من أورشليم عاصمة له. واعتبرت اليهودية هرطقة دينية ونشاز سياسي واضطهد أتباعها.

لكن ظهور الإسلام وانتشاره وضع حداً نهائياً لاضطهاد اليهود والتنكيل بهم، بفضل التسامح الذي ينادي به، والمساواة التي يلتزم بها، والحرية التي يحض على تطبيقها. فلم يكن بين الإسلام واليهودية مسائل دينية معلقة لا سيما في ما يختص بطبيعة المسيح وصلبه. وعندما رأى اليهود ما يتمتع به الإسلام من النفوذ وما حققه من حضارة عظيمة، خففوا كثيراً من غلوائهم العنصرية وتزمتهم الديني. وكان من أسباب التباعد بين الدينين تباهي اليهود بأمتهم المقدسة وتعصبهم لساميتهم العنصرية ضمن نطاق دين لا يتعدى حدود قبيلة واحدة ووفقاً لتعاليم إله خاص لا يهتم إلا بقوم واحد.

أحدثت الفلسفة العربية الإسلامية أثراً كبيراً في الفكر اليهودي بدا واضحاً في اعتماده على أساليب المنطق والعقل في شرح أمور الدين وفي إعداد مناهج التفسير وفي رسم توجيهات الاجتهادات، ومن خلال ممارسة الزهد والتصوف أمام اغراءات الحياة المادية. لكن الحاخامات أدركوا أن التأثير الأول يفضي في النهاية إلى غرس الشك في النفوس مما يقود حتماً إلى إضعاف الإيمان ومن ثم إلى القضاء التام على الدين. أما التأثير الثاني فهو في جوهره شكل من أشكال المثالية التي تتسبب حتماً بانزلاق خطير نحو التناقض الديني والفوضى الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم من سبيل لإنقاذ الدين سوى اللجوء إلى تعزيز مركز التقاليد التلمودية، والرقابة الشديدة على كل التفاصيل الدقيقة المتعلقة بأمور الدين، والتنظيم الدقيق للشؤون الاجتماعية المتعلقة بالروابط الداخلية بين التجمعات اليهودية.

ولربما من المفيد التذكير بأن النبي لم يدّعِ أبداً أنه كان المسيح اليهودي المنتظر لا سيما وأنه لم يكن من أحفاد داوود ونسبه لا يرتقي إلى إسحق كما كان الحال بالنسبة إلى عيسى. ومن ناحية ثانية فإن الإسلام لم يثر حماسة اليهود ولم يحملهم على اعتناقه بطريقة جماعية كما حدث مع المسيحية. وفي كلا الحالتين لم يهدد مباشرة استمرارية الدين اليهودي.

على النقيض من ذلك كان الحال بالنسبة للمسيحية. فعيسى كان يهودياً سواء من ناحية الانتساب العرقي أم ناحية الانتماء الفكري. وفضلاً

عن ذلك كان يتمتع بكافة الميزات التي كان من المفروض لها أن تتوفر في شخصية المسيح المنتظر. وهذا ما جذب إليه نخبة المثقفين من اليهود وعدداً كبيراً من عامة الشعب في عملية اعتناق كبيرة ومستمرة للدين الجديد. عن هذا الوضع الدقيق نشأت منافسة حامية بين الدينين جعلت التعايش بينهما بالغ الحساسية وشديد التفجر. فمن ناحية كان هذا الوضع يحث «المنفتحين» على الدخول في الدين الجديد، ومن ناحية أخرى كان يحرض «المنغلقين» على اللجوء إلى الاضطهاد والتنكيل. وهكذا مرت سنوات وقرون قضاها اليهود بين أجواء الاضطراب والسكينة، مرة في الأكواخ وأخرى في القصور دون أن يطرأ أي تعديل يذكر على تطلعاتهم السياسية أو على خصوصياتهم العنصرية والدينية.

كان القرن الثامن عشر، قرن «فلسفة الإشراق والأنوار»، التي عمّت معظم أنحاء الغرب ونادت بتطبيق قواعد المنطق في كل ميادين الحياة، والاعتماد على حكم العقل في ما يتعلق بأسرار الوجود. ولم يتمكن الاشكينازيم من تفادي التأثر بهذا التيار القائم على نشر الحرية في جميع أنحاء المعمورة وفرض المساواة بين مختلف أبناء البشر، والذي بلغ أوج أهميته في شعارات الثورة الفرنسية وسطع بارقاً في إعلانها المشهور عن حقوق الإنسان. وقد رأينا سابقاً كيف سبق الإسلام الغرب بقرون في هذا المجال. لكن هذه النظرة الجديدة في الغرب للحياة وللوجود وللإنسان أشاعت الحيرة والارتباك في صفوف اليهود، إذ كان عليهم الاختيار بين أمرين أحلاهما مر: إما اختيار المساواة الاجتماعية التي تضعهم بمأمن عن كل اضطهاد وتنكيل وتُمهد السبيل أمامهم للانصهار والذوبان ومن ثم إلى تشرذم القوم واضمحلال الإيمان وتلاشي القومية ومعها العقيدة والدين؛ وإما التمسك بالشعور بالتفوق والتشبث بمقولة «شعب الله المختار» ونظرية العنصر المبارك، التي ستحافظ على وحدة الصف ونقاوة الدم، وتضمن استمرار الدين ورعاية الرب، لكنها تترك الباب مفتوحاً أمام كل الاحتمالات المأساوية التي من خلالها تنفس الشعوب المضيفة عن كربها الاجتماعي وهذا ما يتمناه ويمهد له أحياناً ولربما يشارك فيه أيضاً غلاة اليهود الأصوليون

في سبيل إعادة النعاج الضالة إلى حظيرة الإيمان وإنقاذ «الشعب» من الانهيار. ومعظم أحداث التاريخ تشهد بذلك.

إذن، كان على اليهود المقيمين في المجتمعات الغربية أن يختاروا بين الانصهار والمساواة، أو التقوقع والاضطهاد. وبما أنهم كانوا على اقتناع تام بقدسية أمتهم التي ستنشر رسالة يهوه الرب الواحد في جميع أنحاء العالم وما تحمله من البركات والرعاية الإلهية، فقد كانوا في غالبيتهم يناهضون كل محاولة ترمي إلى دمجهم في المجتمع، لا سيما المجتمع المسيحي الذي كان بنظرهم مجتمعاً وثنياً متخلفاً دينياً وفكرياً. فبفضل الحاخام غرشوم دي مايانس، يقول إبشتاين «فإن الطقوس المسيحية لم تعد مدرجة بين العبادات الوثنية، ومن ثم فإن القوانين التلمودية التي تحدد علاقات اليهود الاقتصادية بسائر المجتمعات الوثنية لم تعد سارية المفعول على المسيحيين». ولكن هذا المبدأ التعايشي بين الطائفتين الذي لمع كالشهاب في سماء القرن الثامن عشر، لم يلق الصدى المنشود عند التجمعات الإسرائيلية كافةً على الرغم من الدعاية الواسعة التي أحيطت بها والاهتمام الفائق الذي شمله. بعض اليهود قابله بفتور، والبعض الآخر تفاداه، والباقون تجاهلوه، فخبا بريقه مع تضاؤل أنوار فلسفة القرن الثامن عشر.

وسط هذه الانفعالات المتأرجحة بين شدٍ إلى تبني الحديث وبين جذبٍ للتمسك بالنص القديم، نشأ بين الجاليات اليهودية تياران: أحدهما ينادي بالإصلاح على ضوء المعطيات العلمية والاجتماعية الحديثة، والآخر يحذر من الانجراف مع سيول الحداثة «المبتذلة والمضلِّلة» مطالباً بالالتفاف حول التوراة وبالتقيد حرفياً بنص تعاليمها.

فقد ظهر في ألمانيا في القرن الثامن عشر الفيلسوف اليهودي موسى مندلسن الذي أذاع بين اليهود برنامجاً يشتمل على كل ما يتعلق بتكييف الدين مع متطلبات العصر. من بنود هذا البرنامج توصيات بترجمة العهد القديم إلى اللغة الألمانية، وإنشاء مدارس يهودية لتعليم فروع العلوم كلها، وليس التعاليم التلمودية فقط، كما كان الحال في السابق، وقبول اليهودي لمواطنية المجتمع الذي يعيش فيه كي يصبح عضواً فاعلاً سياسياً واجتماعياً... الخ.

أحست بعض التجمعات اليهودية المقيمة في أوروبا الغربية، التي اعتمدت هذا البرنامج التحديثي وطبقته، بانعتاقها من قيود التقاليد الغابرة فصارت مواعظها تلقى باللغة العامية، وتضمنت صلواتها بعض التسهيلات، لا سيما تلك التي تتعلق بانتظار مجيء المسيح الموعود.

ومع إطلالة القرن التاسع عشر تمادى هذا التيار الإصلاحي في تعديل بعض المفاهيم حتى شمل بعض العناصر الدينية المسلَّم بها كعناصر أبدية لا تتغير مهما كانت الظروف. وكان ذلك على يد رابطة فرانكفورت الإصلاحية ١٨٤٣ التي أقرت أن الدين الموسوي يمكن تطويره بلا حدود، حتى أن هذه الرابطة تحفظت على سلطة التلمود المطلقة، بل رفضتها ووضعتها موضع الدرس والاجتهاد. والأهم من ذلك أنها خففت من صرامة الصلوات المتعلقة بالعودة إلى فلسطين واستبدلت مجيء المسيح المنتظر بحلول عصر يطلق عليه اسم «عصر المسيح الموعود» ضمن مفهوم ينظر إلى «ملكوت السموات» نظرة جديدة تجعلها مقتصرة على تقدم الإنسانية في المجالين الأخلاقي والاجتماعي دون توقع مجيء المسيح شخصياً. وقد لاقى هذا التيار نجاحاً كبيراً في الولايات المتحدة الأميركية مما مهد الطريق أمام عدد كبير من اليهود للذوبان في المجتمع الأميركي بسهولة فائقة.

ولكن هذه الرمال التي ذُرّت في العيون لم تتمكن من إخفاء حقيقة أساسية تجلت من خلال ازدواجية يهود أميركا الذين كانوا في الوقت نفسه يفاخرون بانتمائهم إلى دولة عظيمة كأميركا، ويشددون على عرقهم السامي ووضعهم الخاص وشعبهم المختار. أي على الرغم من إدعائهم بأصالتهم الأميركية، فإن خلجات قلوبهم وترسبات وجدانهم بقيت يهودية صحيحة، عرقياً وعنصرياً وانتماءً.

أما في أوروبا، فإن الحل الوسط الذي اقترحه مندلسون بين الإبقاء على خصوصية اليهود وبين التستر وراء شكل من أشكال الانصهار، أدى رغم سطحيته، إلى اعتناق إثنين من أبناء الفيلسوف المذكور الدين المسيحي، فيما لم يتردد الثالث عن تعميد أولاده. إن مقولة مندلسون بأن

اليهودية لا تحتكر لنفسها أي حق بالتفرد في ما يتعلق بالحقائق الأزلية بالمفاهيم السماوية جعلته يتعارض تعارضاً صارخاً مع تاريخ الشعب اليهودي، خصوصاً عندما يعلن أن اليهودية ليست ديناً موحىً به شريعة منزّلة من عند الرب، ويضيف قائلاً: «إن الصوت الإلهي الذي ترددت أصداؤه على جبل الطور أعطانا وصايا تحدد سلوكنا ولم يفرض علينا مبادىء تقودنا إلى الإيمان. إن هدف الوصايا هو الحفاظ على نواة يهودية أصيلة، عرقها صافٍ وإيمانها صادق ووظيفتها تدريب سائر الأمم على السير في طريق الدين الصحيح». وإذا كانت قناعاته هذه لم تزعزع إيمانه بدينه بل على العكس حملته على التمسك بيهوديته، فإن فلسفته كما صاغها وكما قدمها للجمهور قد ساهمت مساهمة كبيرة في دفع غالبية مؤيديه، ومنهم بعض أبنائه، إلى اعتناق المسيحية، وأثارت حفيظة البعض وحملته على الانخراط في صفوف جبهة متراصة تعارض معارضة شديدة كل رأي يقول بالانفتاح وتناهض بحزمٍ كل محاولة تؤدي إلى لقاء مباشر مع الحضارات «الوثنية» التي تنال من صفاء الإيمان وتهدد صدق التقوى. أما عند البعض الآخر، فإنها أطلقت مشاعر دفينة تتوخى التجاوب مع الوسط الاجتماعي المضيف وتتوق للتعامل المباشر مع الفكر الثقافي الرائج رغبة منها في تسهيل الإعداد للأنصهار، انصهار طالما راود النفس وداعب الخيال لأنه يضمن المساواة ويوفر الحرية.

فما أن هدمت الطلائع المتحررة حواجز الخصوصية اليهودية وعبّرت عن رغبتها في الدمج والانصهار حتى سارعت الأنظمة الغربية، الواحد تلو الآخر، في تعميم مبدأ التسامح الديني ومنح اليهود كل الحقوق التي ينعم بها المواطن العادي. إلا أن «الأزمة الميتولوجية» ما لبثت أن تفجرت واضعة «الشاردين» أمام مأزق الاختيار بين مواطنية كاملة من ناحية وساميّة نقية من ناحية أخرى؛ الأولى تحل مشاكل آنية ودنيوية، والثانية تعد بتفوقٍ أبدي وبسموٍ أزلي في رحاب سموات يهوه. عدد كبير من اليهود حل المسألة فردياً عن طريق قبوله بحماسة المواطنية التي عُرضت عليه فدخل في صفوف المواطنين العاديين وذاب في جموع العائلات المختلفة.

جهود هائلة بذلها في ذلك العصر عدد كبيرٌ من المصلحين للحفاظ على ذلك التوازن الدقيق بين قبول الدمج من ناحية والإبقاء على نقاوة العنصر من ناحية ثانية؛ وكانت النتيجة التأكيد على أن اليهودية شأن من شؤون الدين فقط لا علاقة لها البتة بالأمور القومية. أي أنها نظام ديني مشابه للكنيسة الكاثوليكية وليست أمة أو عرقاً أو عنصراً. ولو قُدّر لهذه النظرية أن تتحقق لكانت اليهودية قد دخلت أجواء العالمية الدينية وكسرت احتكار «الشعب المختار»، وقد أطلق شُشتر على هذه اليهودية فيما بعد اسم «إسرائيل الكاثوليكية» أي إسرائيل العالمية. وذهب جيجر إلى أبعد مما ذهب إليه كل المصلحين اليهود حين نفى عن التوراة أصلها الإلهي وهزأ بقوانين الشريعة الأساسية ونادى بمنع الختان. والأخطر من ذلك أنه أسقط عمداً من كتاب الصلوات الذي نشره عام ١٨٥٤ كل تلك المتعلقة ببعث الدولة العبرية على أرض فلسطين أو تلك التي تروم إعادة بناء الهيكل كمركز رئيسي لإسرائيل.

على الرغم من الشعبية الكبيرة التي أحاطت بالتيار الإصلاحي، ورغم الحملات الدعائية الواسعة التي رافقته في جميع مراحله، فإن الاستنتاجات الأولية أظهرت أن ما رافق ذلك التيار من ضجة وجدال كان موجهاً للاستهلاك الخارجي (أي لغير اليهود) أكثر منه للاستهلاك الداخلي، إذ ان دعائم التيار المحافظ بقيت سليمة وراسخة سواء بين يهود أميركا أم بين يهود أوروبا، وقد عزّز رسوخها موجات النزوح اليهودي عشية عام ١٩١٤ من أوكرانيا والمجر وبولونيا، إذ هبّ التيار المحافظ المتطرف يعارض مختلف أشكال الإصلاح. وشجب التقليديون الأصوليون أو الأرثوذكس كل محاولة ترمي إلى تحديث اليهودية ونادوا بالعودة إلى يهودية عصور الحضارة العربية الإسلامية. فاليهودية في نظرهم كانت في خطر؛ وعلى المؤمنين الطاهرين الإسراع إلى إنقاذها قبل فوات الأوان، مهما كان الثمن ومهما بلغت التضحيات. ومن أهم تلك النزعات المحافظة كانت «القبّالة» (Kobbale)، أي العودة إلى ما كان سائداً من«قبل»، وهدفها الحفاظ على التقاليد والتمسك بالأصالة. وأهمية هذا المذهب التنسكي تكمن في دعوته إلى عودة

جماعية إلى الأصول بمشاركة كل فروع الشعب اليهودي مع التأكيد على مبدأ «شعب الله المختار».

وعلى أثر هذا التباين في الآراء والمواقف، عرف القرن التاسع عشر صراعاً عنيفاً بين مختلف التيارات الإصلاحية وقلاع اليهودية التقليدية. ومن بين الآراء التي كانت محوراً للمناقشة ومحطة للجدال، تلك التي احتدمت لحسم النزاع القائم حول معرفة ما إذا كان الدين اليهودي قد وُجد لخدمة الشعب أم أن الشعب اليهودي وجد في خدمة الدين؟ أي بمعنى آخر، هل من الضروري رفض الاندماج لإنقاذ الدين أم التضحية بالدين في سبيل إنقاذ حياة الشعب؟ لكن السؤال الحقيقي الذي قضّ مضاجع الجميع هو: هل سيتمكن اليهودي من الحفاظ على يهوديته الصحيحة إذا اكتفى فقط بالالتزام ببعض تعاليم دينه لا بمجموعها؟

إن مجرد طرح سؤال كهذا وضع موضع الشك المبدأ القائل بشعب مختار وبأمة مقدسة وخفف من حدة التناقض بين الدينين اليهودي والمسيحي، وكان من نتائجه أن اعتنق المسيحية عدد كبير من اليهود. لقد أحدث رفع الوصاية الدينية عن رقاب يهود الغرب مشكلة على الصعيدين الثقافي والروحي. فبسبب المعطيات المغرية الجديدة التي ما انفك المجتمع الغربي يغدقها على المتحررين، أصبح الاندماج ممكناً والذوبان تحصيل حاصل، بينما صار انحلال وتلاشي نشاطات اليهود الثقافية والتزاماتهم الروحية أمراً مرتقباً، لا بد من حدوثه إذا واصلت مسيرة الإصلاح سيرها في هذا السبيل التحرري. وكالعادة أدرك المتزمتون أن الدين في خطر، وأن الضرورة تقضي بإنقاذه مهما كان الثمن قبل أن يزول التراث الثقافي ويضمحل الرابط العرقي وتتلاشى الوحدة الروحية. وذهب بعضهم بعيداً في تطرفه مؤكداً على أفضلية الدين على الإنسان ومشدداً على أن اسرائيل هي أولاً وقبل كل شيء عرق ودين ومن ثم رابط اجتماعي وحيد، وعهد إلهي سرمدي بين يهوه وبين شعبه، وأخيراً، وفي درجة أقل، هي كيان ثقافي ينمو ويتفاعل ضمن إطار تشريعي محدد. فمن كان يهودياً يبقى يهودياً وإن ارتد عن دينه، وإن ألحد وكفر، وإن اعتنق ديناً آخراً، أي بالاختصار، إن من

يولد يهودياً يموت حتماً يهودياً مهما كانت ظروف نهجه وتقلبات سلوكه ومعتقداته.

بعد دراسة عميقة لهذه الحالة المتردية، توصل موسى هس (١٨١٢ - ١٨٧٥) إلى نتيجة مفادها أن طريق الخلاص الوحيد هو في القومية اليهودية وحدها وكتب قائلاً: إن ما يجب علينا القيام به حالياً في سبيل إصلاح تجديد الأمة اليهودية، هو أولاً الإبقاء على أمل بعث قوة شعبنا السياسية حياً ونابضاً، ومن ثم إيقاظ هذا الأمل حيثما اضمحل ونام». إن بلوغ هدفٍ كهذا يتطلب تحقيق أمرين أساسين مسبقاً هما:

١ - وضع حدٍ لتلك الأوهام التحررية التي لا طائل من ورائها ولا جدوى من الجري في إثرها والتي كان يهود الغرب يبنون عليها آمالاً واهية والتي لن تسفر إلا عن تدمير طاقات الشعب اليهودي وتفتيت وحدته والقضاء عليه نهائياً.

٢ - إنشاء حركة قومية هدفها بعث الروح الوطنية فوق أرض الأجداد. إن العودة وحدها إلى الوطن الأم كفيلة بجعل التجاوب مع النظام الإلهي ممكناً وقادرة على خلق جو اجتماعي أطلق عليه هس اسم «السبت التاريخي» وقادرة أيضاً على وضع حد نهائي لمتاعب الشعب اليهودي كافةً.

ولكن، رغم كل الجهود التي بذلها المتزمتون للحيلولة دون تسرب الاتجاهات العصرية، فإن الانفتاح الكبير على باقي الأمم والشعوب ظل مشرع الأبواب حاملاً معه الاندماج أو الإلحاد أو اعتناق المسيحية دين الأكثرية، التي بلغت حداً جعلت الكنيس اليهودي يعيش في جو قاتم وعصيب ينذر بتلاشيه التام. لكن النجدة أتت مع أسراب اليهود القادمين من روسيا وبولونيا والمجر الذين رجحوا كفة اليهود التقليديين بانضمامهم إلى صفوف الكهنوت والحاخامات والمتزمتين باعثين في وجدان الجميع شعوراً دفيناً بالاضطهاد والتنكيل. فنجحوا في إثارة المشاعر العنصرية وزودوا الاتجاه الديني المتزمت بزخم حماسي هائل.

كان هؤلاء اليهود القادمون من أوروبا الشرقية يتقيدون بتعاليم تختلف عن تلك المتعارف عليها في أوروبا الغربية، إذ إن الإصلاح الثوري الذي تفجر في عام ١٧٩١ غيّر الكثير من معالمها وخفّف من حدة بعضها. وكانوا يتميزون أيضاً باستعمالهم لغة خاصة بهم تدعى اليديش، وبالنسبة العالية من العمال بين صفوفهم، وبرابط طائفي قوي يكاد يشبه الرابط العائلي.

كان أليعازر بن يهودا (١٨٥٠ ـ ١٩٢٢) الداعية الروسي لعودة اليهود إلى فلسطين. فقد أيقظ بمقالاته اللاهبة وطنية الجماهير اليهودية النائمة وحث هممهم على التحرك وأخذ المبادرة. وأضحت روسيا بذلك مهد الحركة الوطنية وقلبها النابض. وفي عام ١٨٨٤، في أعقاب مؤتمر كاتاويتز تم تأليف حركة عشاق صهيون التي امتدت فيما بعد إلى بعض دول أوروبا الغربية ومن ثم باشرت تأسيس القرى الزراعية على أرض فلسطين عبر عملية استيطانية مدروسة.

ثم أتى ثيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) فأثار الحماسة القومية وألهب المشاعر الوطنية وبلور التيار الوطني جاعلاً منه حركة عالمية منظمة. وسارت الرياح كما تشتهي سفنه لا سيما عندما تفجرت قضية دريفوس فنجح في توظيف كل تفاعلاتها في خدمة القضية اليهودية. واستغلها استغلالاً ذكياً وساوم عليها أدق مساومة حتى ساور البعض شك بأن القضية بكاملها وخاصة في ما يتعلق بتوقيتها لم تكن إلا خطة مدروسة وقضية مفتعلة ومأساة وهمية التي لجأ إليها بنو اسرائيل على مدى تاريخهم «للعبور» من وضع خطير إلى آخر أكثر أماناً. فمن نتائج قضية دريفوس المباشرة تبرير حل «المسألة اليهودية» عن طريق إنشاء دولة يهودية. إن الإنجاز المهم الذي حققه هرتزل يكمن أولاً في التحدي الصارخ الذي أطلقه في وجه العالم بإنشائه الحركة الصهيونية والتركيز على ضرورة بعث الدولة الاسرائيلية فوق الأرض الفلسطينية، ثم إيقاظ الحلم التاريخي المتعلق بمجيء المسيح. مسيحٌ لا يأتي إلا عندما تُخلق الدولة العبرية، ويُعاد بناء الهيكل وتتوفر القوة والنفوذ لاستتباب حكم الله الواحد وشعب الله المختار.

كان على الحركة الصهيونية أن تجتاز عقبتين: الأولى خارجية نتجت عن الشك الذي أحدثته الصهيونية في نفوس الشعوب المضيفة بما يتعلق بوطنية اليهود وإخلاصهم للدول التي احتضنتهم ومنحتهم جنسيتها، والثانية داخلية نشأت عن الشقاق الذي احتدم بين اليهود المتزمتين وبين الصهاينة «الدنسين» الذين، بنظر المتزمتين، لا يمثلون إلا حفنة من التجار المارقين، استغلوا اسم الدين وركبوا مشاعره النبيلة في سبيل تحقيق أهدافهم المادية وإشباع نزواتهم الإلحادية.

أما بشأن مشروع إنشاء الدولة اليهودية، فقد تباينت وجهات النظر واختلفت الآراء حول تحديد المكان المناسب لخلق هذا الكيان الجديد. فالخطة الهرتزلية تظاهرت بدراسة الاقتراحات المختلفة التي عرضت إمكانية إنشاء الدولة اليهودية في أماكن تقع في أصقاع شتى من القارات الخمس. ولكن بقدرة قادر لم يقع الاختيار إلا على الأرض الفلسطينية. إن مصالح الغرب ومصالح اليهود التقت في اعتماد فلسطين كحلٍ لمشاكلهم. الغرب من ناحيةٍ كان يتوجس خيفة من نهضة العرب ومن يقظة المسلمين. ولم يكن يحلم بحل أفضل من زرع دولة غريبة، عنصرية وعدوانية في قلب الوطن العربي، تذر الخلاف بين الأشقاء وتترك الغرب ينام على فراش من حرير، قرير العين. كانت فلسطين الحلم المنشود لليهود. فهذه الأرض قادرة وحدها على لمّ شمل الشعب المختار وتوحيد كلمته. إن خلق دولة اسرائيل على الأرض الفلسطينية أصبح ضرورة قصوى لإنقاذ الدين من التلاشي التام.

وعلى الرغم من وعد بلفور الشهير في عام ١٩١٧ والذي بموجبه تعهدت بريطانيا بالاعتراف «بحقوق الشعب اليهودي التاريخية على فلسطين»، وعلى الرغم من تدويل هذا الوعد بعد ثلاث سنوات من صدوره عن طريق تصديقه من هيئة الأمم التي منحت بريطانيا حق الانتداب على فلسطين كي تتمكن من الوفاء بوعدها، فإن عدداً كبيراً من اليهود لم يكن يرى في مشروع بعث اسرائيل على الأرض الفلسطينية إلا سراباً ووهماً، وحلماً جميلاً من المستحيل تحقيقه.

مجموعة من يهود الغرب أطلقت على نفسها اسم «الهسكلة» دأبت في بادىء الأمر على القيام بدراسة تحليلية لوضع حدود واضحة بين الثقافة والعقل من جهة وبين التقاليد والإيمان من جهة ثانية، فأفضى بها الأمر إلى فقد صبغتها الدينية والانهماك في صراع حاد من أجل التطور والإصلاح والتحرر من نير التزمت الديني. مجموعة أخرى عُرفت تحت اسم «المسكيليم»، أحست بالخطر الذي يهدد وحدة الأمة المقدسة فنذرت نفسها للنضال من أجل الإبقاء على خصوصية العنصر اليهودي والعمل للحفاظ على استمرارية الطقوس والعبادات والتقاليد الإسرائيلية الأصيلة.

وعلى صعيد آخر، فإن الحقوق الكاملة التي منحتها بعض الدول الغربية لرعاياها من اليهود مهدت السبيل أمامهم للوصول إلى بعض المراكز المهمة في الدوائر الحكومية، والتأكيد مع دورهم المهم في التجارة العالمية، واشتراكهم المباشر في اللعبة السياسية بين الأمم. وهذا ما جعلهم يعتقدون أن «العهد المسيحي» أصبح على الأبواب وأن المسألة مسألة وقت فقط، ربما بضع سنوات[١].

ومن ناحية أخرى فإن الاعتقاد القديم القائل إن بعث اسرائيل في الأرض الفلسطينية سيتحقق فجأة بطريقة عجائبية يتدخل فيها يهوه مباشرة، كان قد اضمحل وحل محله تصور جديد يقول أن التكفير سوف يأتي تدريجاً وأن الفداء سوف يتم عن طريق الإنسان، أي أن على الشعب اليهودي أن يعرب عن استعداده لقبول الفداء كي يستحق نيل الغفران ومن ثمّ تسهيل عودته إلى الأرض الموعودة.

كان التناقض بين الفرق عميقاً حول فكرة بعث الدولة العبرية على الأرض الفلسطينية. فكرة ساهمت مساهمة كبيرة في تمزيق وحدة الشعب اليهودي ما بين متحمس مهووس وبين معارض عنيد. أما الأكثرية فقد كانت

---

(١) البعض من اليهود يعتقد أن المسيح سوف يأتي شخصياً. والبعض الآخر يقول إن المسيح لن يأتي بنفسه ولكن سوف يأتي زمن يُدعى «عهد المسيح».

تتجاذبها الحماسة الجارفة مرة وعدم الاكتراث الرافض مرة أخرى ولم يعرف اليهود في تاريخهم مثل هذا التشرذم والتمزق إلا في الأحداث التي أدت إلى صلب المسيح. أحداث ما كانت لتقع لولا خوف المتزمتين من كسر نطاق خصوصية الدين وإقحامه في آفاق عالمية.

إذن، كان على اليهود أن يتصرفوا بسرعة فائقة، قبل أن تتغير الظروف ويفوت الأوان. ومرة ثانية، وبقدرة قادر أتت المعسكرات النازية والتنكيل الهتلري في الوقت المناسب لإنقاذ اليهودية من التلاشي وهي على شفير الهاوية. المعسكرات المزعومة غيّرت المعادلات إذ إنها وحّدت جميع اليهود حول فكرة العودة إلى الأرض الموعودة، في فلسطين. فاستغلت الصهيونية تلك الأحداث المأساوية والذهول الذي أصاب العالم من الممارسات النازية، فتسترت بجرائم النازية لتبرر جريمتها ضد الشعب الفلسطيني تحت سمع العالم وبصره، وصلب هذا الشعب كما صلب أجدادها المسيح رغم أنف الحاكم الروماني وامبراطوره العظيم.

الفصل التاسع

ما يجب أن يعرفه العرب: مسيحيين ومسلمين

الصهيونية ضد المسيحية وضد الإسلام

كانت كل الأساليب مسموحاً بها للإبقاء على سلامة الوحدة العرقية والحفاظ على خصوصية الشعب المختار ضمن نطاق القانون التوراتي والوعد الإلهي. فالتآمر، والدس، والخديعة، والخبث، والمكر، والكذب وحتى قتل اليهود أحياناً أو التشجيع على إثارة موجات اللاسامية أحياناً أخرى، تبقى النبع الفيّاض الذي ينهل منه اليهود مكائدهم المختلفة. فحين تدق ساعة المفاضلة بين اليهودية كدين وبين اليهودي كإنسان، فإن الاختيار يكون سريعاً وبلا تردد، إذ لا معنىً لوجود الفرد اليهودي خارج إطار الدين، وتبقى اهتمامات رجال الدين الأساسية المحافظة على الأمة وصيانة وحدتها الدينية والأخلاقية والاجتماعية والقومية من هجمات القوى المارقة التي تحيط بها.

إن خلاصة التجارب ونتائج الأحداث قد أظهرت بوضوح أن الصهيونية (أو واحداً من مظاهرها) هي الشكل الأفضل من أشكال الحماية الذاتية ضد

الانصهار أو الإندماج في سائر المجتمعات: المصرية والكنعانية، والفينيقية والبابلية، والفارسية، والإغريقية، والرومانية، والأوروبية وحتى العربية.

فالصهيونية حركة سياسية وقومية، ولكنها تتعرض لفقد أهم أسباب وجودها إذا أغفلت التركيز على عمقها الديني أو إذا أهملت التذكير بجذورها التوراتية وأصولها التلمودية.

قد لا يخلو الأمر من العثور هنا أو هناك على صهاينة يغالون بالتمسك بالمادية الملحدة أو بالماركسية اللادينية، ولكن حين تضعهم الأحداث على محك التجارب ينكشف طبعهم وسلوكهم وعقيدتهم ذات المعدن اليهودي الصميم.

يقول هرتزل: «إن هيشلر يدّعي أن حركتي نابعة من التوراة، مع أنني أردتها مطابقة للعقل قبل كل شيء». وايزمن، ابن الجيتو الروسي الذي ترعرع في برلين، كان يجاهر دائماً بعلمانيته مؤكداً على لا دينيته ومشدداً على إنتمائه إلى النظريات العلمية الملحدة. ومع ذلك فإن الأول كما الثاني (هرتزل ووايزمن) كانا صهيونيين حتى الصميم، وجدناهما ينضحان بالإحساس اليهودي، وقلباهما ينبضان على ترجيعات التعاليم الحاخامية. إن ثمة دلائل عديدة تحملنا على التأكيد أن كليهما، على الرغم من انخراطهما في اللادينية الغربية الرائجة في ذلك العصر، كانا يلتزمان بأدق ما في التقاليد اليهودية من تزمت ومغالاة، ويتقيدان بأشرس ما في الحركة الصهيونية من تعاليم ومبادىء، فالحركة الصهيونية الحقيقية تجد جذورها في:

١ ـ النبوءات المتعلقة بمجيء المسيح المنتظر.

٢ ـ أمل القبائل المشتتة بالعودة إلى جبل صهيون.

٣ ـ إعادة تأسيس الوطن القومي.

٤ ـ إعادة بناء الهيكل.

٥ ـ التفوق الروحي والمادي على سائر الأمم.

إذن، مهما تسترت الصهيونية وراء مظاهر اقتصادية أو رأسمالية أو استعمارية أو سياسية، فإنها أولاً وقبل كل شيء حركة دينية في جوهرها

وأصولها وأهدافها. تعتمد الاقتصاد حيناً والاستعمار حيناً آخر. تتعاون مع الرأسمالية مرة وتغازل الشيوعية مرات، كل ذلك في سبيل بلوغ أهداف وتطلعات دينية، وهنا تكمن قوة اليهود الحقيقية. فمهما اختلفت مشاربهم وتباينت إنتماءاتهم السياسية ما بين رأسمالية وشيوعية واشتراكية، فإنهم بدون استثناء يظلون ملتزمين بعقيدة دينية واحدة، أوفياء لعهد توراتي واحد، متطلعين إلى عهد ملكوتي واحد، مشدودين إلى رابط قومي واحد، حالمين بمجيء مسيح حقيقي واحد، ضامرين كرهاً عميقاً واحداً للدينين معاً: الإسلام والمسيحية. فإذا كانت الصهيونية، عبر تاريخها الطويل، قد بدت كحركة مناهضة للوثنية (فرعون مصر وملوك بابل) أو ضد عبادة الأصنام (بلاد كنعان وفينيقيا)، وإذا وقفت ضد الإسلام مرة وتصدت للمسيحية مرات، فإنها الآن وبالشكل الذي فرضت فيه نفسها على العالم وبالطريقة التي اتبعتها لاغتصاب الأرض الفلسطينية، هي حركة تناهض العرب وتناصبهم العداء كمرحلة أولى من برنامجها التوسعي لأنها تضمر في صميم قلبها حرباً شعواء ضد المسيحية والإسلام صراحة متى أشرفت على المرحلة الثانية. إن الحوار الصامت الدائر الآن بين الأديان الثلاثة ستترتب على نتائجه مبررات وجود هذا الدين أو ذاك أو ربما صحة أو حقيقة كل منهم. فإلى متى سيبقى هذا الحوار صامتاً يلعب فيه الوقت لصالح الصهيونية؟ ومتى يدرك المسلمون والمسيحيون فداحة الخطر المحدق بهم، بعد تمركز الصهاينة في أرض بني كنعان، ومتى يدركون أهمية هذه المرحلة على مسيرة التاريخ، تاريخ الشرق، تاريخ الغرب، تاريخ العالم، تاريخ الإنسانية بكاملها؟

أ ـ الصهيونية ضد العرب

إنه لمن الغباء الشديد الاعتقاد أن الصهيونية هي ضد الفلسطينيين فقط لأنهم يناصبونها العداء لأسباب عنصرية ويتنافسون معها على بسط النفوذ فوق أرض الميعاد، فيما هي «كدولة ديمقراطية» تكنّ كل احترام للعرب أجمعين إذا قبلوا بالتعايش معها. إن المسألة وإن اتخذت طابع اختلافٍ على وطن واحد، وإن بدت وكأنها حرب ضد شعب فلسطيني فقط، هي في

الحقيقة أعمق من أن تكون اختلافاً على حدود وأبعد من كونها إتفاقاً على تعايش لأنها في صميمها وفي جوهرها هي أولاً وقبل كل شيء حرب ذات أبعاد تاريخية من التخطيط والتربص، وهي أولاً وقبل كل شيء حرب حضارية قائمة على الاختلاف بين نظريتين متباينتين، إحداهما شرقية والثانية غربية. إنها حرب دينية تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ السحيق بين عقائد تختلف في نظرتها إلى الدين وإلى الإله وإلى الإيمان وإلى الإنسان وإلى الطقوس وحتى إلى المجتمع وإلى العالم.

إنه لمن البلاهة والسطحية التصور أنه في حال قبول العرب باستيعاب الفلسطينيين وتذويبهم في مجتمعاتهم، وفي حال قبول هؤلاء بالتنازل عن وطنهم، وفي حال عقدت اتفاقية سلام بين إسرائيل وجيرانها، سوف تنتهي الأمور وتُحل المشاكل كافةً وتزدهر المنطقة «بفضل العقل الإسرائيلي والمال العربي»، كما تشدق به أحدهم. إن المسألة أبعد من كونها إزدهاراً اقتصادياً ونمواً اجتماعياً وعقلاً اسرائيلياً ومالاً عربياً، إنها في جوهرها تنافسٌ على من سيحكم المنطقة: هل سيبقى الشرق عربياً أم يتلاشى أمام الغزو العبري؟ هل انتهى عهد أحفاد إسماعيل ودقت أجراس عودة أبناء إسحق؟ هل ستزول العروبة كما زالت قبلها الكلدانية والأشورية والبابلية؟ هل ستزول الكنائس والمساجد من المنطقة كما زالت من قبلها هياكل بعل وعشتروت وباخوس وجوبيتر؟ هل ستتوحد أورشليم العبرية على حساب قدس محمد والمسيح؟ هل ستتناثر حجارة الجامع الأقصى وكنيسة القيامة لترتفع جدران هيكل سليمان؟ هذه هي الأسئلة التي سيجيب عليها القرن الواحد والعشرون.

المعركة الحقيقية ليست اقتصادية ولا سياسية ولا حدودية ولا جغرافية، ولا حتى عرقية، بل هي حرب دينية بين رسالات سماوية تدعي كل منها أنها هي الحق والحقيقة. فإذا كانت المعارك الحالية تبدو كأنها تطاحن شرس بين اليهود والمسلمين فقط، فإن أحداث التاريخ تشهد أن العداوة التي تكنها الصهيونية للمسيحيين تفوق كثيراً ما يصدر عنها حالياً من عداء للمسلمين. إن معارك كسر العظم الحقيقية ذات الأبعاد التصفوية هي معارك فرضها عهدان أحدهما قديم والآخر حديث، مع أن المنطق لا يعترف

إلا بواحد، والقوة لا تعترف إلا بالآخر. إن معارك الصراع بين القوة والحقيقة هي معارك تطول جداً لأن الحقيقة لا تهزم أبداً ولأن القوة ترفض الحق والعدل. المهم الإدراك أن الصهيونية، إذا كانت تشكل حالياً خطراً على المسلمين فقط، فإنها في صميم تركيبها آفة سامة تضمر الحقد والكراهية للعرب أجمعين مسلمين ومسيحيين وخصوصاً للمسيحيين.

ب ـ الصهيونية ضد المسيحية

إن ما تنضح به الصهيونية من مشاعر عداء دفين تجاه المسيحية لم يكن نتيجة للتنافس الشديد الذي احتدم بين الدينين في أوائل العهد المسيحي، أو بسبب الشدائد المأسوية التي نزلت باليهود حيثما حلوا وأينما أقاموا في البلاد المسيحية، بل إن جذور هذه المشاعر العدائية المستحكمة تعود إلى وقائع صلب المسيح نفسه. لن نتطرق في الصفحات التالية إلى الطريقة التي تمت بها عملية الصلب نفسها، لأننا نعتقد أن هذه العملية، في جوهرها، ذات مغزى مسيحي صرف، لها أصولها العقائدية العريقة، وأبعادها الدينية الرفيعة، وتطلعاتها الإنسانية النبيلة؛ وفي المقابل فإننا سنسلط الأضواء على وقائع المحاكمة التي انتهت بإصدار الحكم بالصلب. إن بعض تفاصيل هذه المحاكمة تلقي أضواء ساطعة لا على طبائع اليهود وأخلاقهم ونواياهم ودسائسهم ومكرهم وحسب، بل تبرز أيضاً مشاعرهم الدفينة تجاه الدين الجديد وتدل دلالة واضحة على الهدف الأساسي الذي يتطلعون إليه من وراء عودتهم الحالية إلى أرض فلسطين «الأرض الموعودة».

الفصل العاشر

محاكمة المسيح

قبل البدء بمحاكمة المسيح وتتابع فصولها العديدة كان هناك عمليتان أساسيتان أفضتا إلى المحاكمة نفسها: كانت هناك مؤامرة ومن ثم كانت عملية إلقاء القبض على المسيح.

أما المؤامرة فقد نشأت بعد أن ذاع صيت المسيح بين الجماهير وصارت الأفواه تردد كلماته العذبة وتتحدث عن معجزاته الكثيرة وبعد أن صار الناس يتدافعون لسماع أقواله ذات الأبعاد الجديدة ويتكاثرون بالتجمع حوله والإيمان بمبادئه العادلة والواضحة، عندئذٍ دب الرعب في قلوب رؤساء الكهنة وتمكن الحسد من نفوسهم الضعيفة ففكروا بالانتقام. كانت المؤامرة عندما عرض يهوذا الأسخريوطي على «**رؤساء الكهنة والكتبة (الذين) يطلبون كيف يمسكونه (المسيح) يمكر ويقتلونه**» [مرقس ١٤/١] أن يسلمهم المسيح. «**ولما سمعوا فرحوا ووعدوه أن يعطوه فضةً**» [مرقس ١٤/١١] بالتحديد «**جعلوا له ثلاثين من الفضة**» [متى ٢٦/ ١٥].

في هذه المؤامرة شيئان ملفتان للنظر: أولاً قيام يهوذا بالذات بهذه الخيانة الدنيئة، إذ كان للمسيح اثنا عشر تلميذاً هم: سمعان وأندراوس

ويعقوب بن زبدي ويوحنا وفيلبس وبرثولماوس وتوما ومتى ويعقوب بن حلفى ولباوس وسمعان القانوني ويهوذا الأسخريوطي، جميعهم كانوا يهوداً يحملون أسماءً مختلفة ذات أصول يهودية، إلا أن إسم يهوذا وحده يرمز بوضوح إلى جذوره اليهودية لتتشابه الأحرف بينه وبين إسم الشعب بكامله. هل هي محض صدفة أم أن هناك صلة أقوى وأشد بين ما قام به يهوذا من خيانة دنيئة وبين الطباع التي فطر عليها معظم أفراد هذا القوم؟ فبين كلمتي «**يهوذا**» و «**يهود**» أكثر من تشابه ظاهري على مستوى الحروف وأبعد من تطابق خارجي على صعيد الكلمتين. فالرابط الضمني الذي يشد الأول للثاني هو رابط رمزي عبّر فيه يهوذا من خلال خيانته عن القاسم المشترك بينهما، وإلا لماذا قام هو بالذات بهذا الفعل الشنيع وليس رجل آخر من باقي التلاميذ؟

الشيء الآخر اللافت للنظر هو الرشوة. فلو أن يهوذا قام بفعلته تلك عن اعتقاد وإيمان لكان الأمر قد هان وتغيرت النظرة وخفت حدة الوشاية لصالح الدفاع عن مبدأ أو حماية فكر أو إنقاذ عقيدة[1]. إن الدافع الوحيد كان حب المال والوقوع تحت تأثير بريق الفضة. وهذا بمجمله إعلان واضح لما يجري في نفوس أولئك البشر، لا سيما وأن تلك الرشوة هي الأولى والأشهر في تاريخ البشرية ولكنها ليست الأخيرة في تاريخ الشعب العبري.

أما عملية **إلقاء القبض** على المسيح بموجب المخطط الذي اتفق عليه سابقاً بين يهوذا ورؤساء الكهنة، فقد تم في الليل حين كان المسيح واقفاً على الجبل يصلي وقد حدث على الشكل التالي كما يرويه لنا القديس مرقس:

«فيما هو يتكلم (المسيح) أقبل يهوذا واحد من الإثني عشر ومعه جمع كثير بسيوفٍ وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وكان مسلّمه قد أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو. أمسكوه

(١) ولكن هل كان من الممكن صدور عملٍ كهذا عن رجل ليس يهودياً وحسب بل كان اسمه يهوذا أيضاً؟

وأمضوا به بحرص. فجاء للوقت وتقدم إليه قائلاً يا سيدي يا سيدي وقبّله. فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه».

[مرقس ١٤/٤٣ ـ ٤٦]

قبلة يهوذا هذه هي القبلة الأولى في التاريخ التي تجسد الخسة والدناءة والخيانة. قبلة ماكرة وجبانة بقدر ما هي مجرمة وملطخة بالدماء. كم كان تغير سلوك البشرية لو أن يهوذا أشار بإصبعه إلى المسيح قائلاً: «هذا هو». هل كان بإمكانه فعلاً أن يكون على مثل هذا القدر من الشجاعة والجرأة على الرغم من أنه يحمل إسم يهوذا؟ كلا!! فالقبلة بحد ذاتها لا تدين يهوذا وحده، بل أنها تدل دلالة واضحة على تصرف خاص من السلوك الاجتماعي ومن النهج الأخلاقي تفشى ضمن مجموعة من البشر فُطرت على المكر وعاشت على الخديعة وتمرست في الخبث طوال تاريخها منذ دخل إبراهيم إلى أرض مصر إلى حين قام العدوان الصهيوني على أرض فلسطين.

وكم هو معبر ولاذع رد المسيح على هذا العمل الفاضح:

«يا يهوذا، أبقبلة تُسلّم ابن الإنسان؟».

[لوقا ٢٢/٤٨]

أقلام عديدة حاولت في مناسبات شتى تبرِئة اليهود من عملية إلقاء القبض على المسيح، مدعية أن الجنود الرومان وحدهم هم الذين نفذوا هذه العملية وتقع كامل المسؤولية على عاتقهم. إن قول المسيح في هذا السياق يبت الأمر بوضوح كامل لا يرتقي إليه الشك أو التردد، فلنستمع إليه بقول:

«كأنه على لصٍ خرجتم بسيوف وعصيٍ لتأخذوني. كل يوم سبت كنت أجلس معكم أعلّم في الهيكل ولم تمسكوني».

[مرقس ١٤/٤٨ ـ ٤٩]

فمن كان يرتاد الهيكل يا ترى عسكر الرومان أم رؤساء الكهنة والكتبة ومشايخ الشعب؟ وإذا كان ضمن الزمرة التي ألقت القبض على المسيح جندي روماني أو أكثر، فإن ذلك لم يكن إلا من باب الشكليات البحتة. إن السلطة الوحيدة المسؤولة عن إلقاء القبض على المسيح هي السلطة اليهودية وحدها فالمؤامرة كانت يهودية، ومنفذوها كانوا يهوداً، ودوافعها كانت يهودية، والفصول الآتية كما سنرى كان معظم أبطالها من اليهود أيضاً.

كان توزيع الأدوار والإشراف على التنفيذ مدروساً بمهارة كما هو الحال في كل ما يتعلق بمخططات الصهاينة. كان ينفذ خطوة خطوة ومرحلة مرحلة بيقظة وتصميم من البداية حتى النهاية كما تظهره الفصول التالية.

القسم الأول من المحاكمة: يسوع أمام السلطة اليهودية

إن هذا القسم من المحاكمة جرى بكامله أمام السلطات اليهودية وهو يتضمن ثلاثة فصول مَثُل المسيح فيها على التوالي أمام حنّان أولاً، ومن ثم في المساء أمام بعض أعضاء مجلس الكهنوت، وأخيراً في صباح اليوم التالي أمام المجلس بكامله.

الفصل الأول

بعد أن تمت المؤامرة وألقي القبض على المسيح، إلى أين قادوه؟ القديس يوحنا وحده يجيب بدقة على هذا السؤال فيقول:

«ومضوا به إلى حنّان أولاً لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة. وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب».

[يوحنا ١٨/ ١٣ ـ ١٤]

لا بد الآن من التساؤل: لماذا اقتيد المسيح أمام حنّان؟ ومن هو حنّان؟

حنّان هو رئيس الكهنة السابق تبوّأ هذا المركز في العام السابع ب.م في عهد المفوض قيرينيوس، وأُقصي عنه في عام ١٤ حين تولى تيبار الحكم. ومع أنه عُزل من منصبه الرفيع هذا، فإنه ظلَّ يتمتع باحترام واسع في الوسط الكهنوتي مع الاحتفاظ بنفوذ مباشر في مختلف القطاعات الإدارية المدنية فيها والدينية. وأبلغ دليل على مدى فاعلية السلطة التي كانت بمتناول يده أنه، بعد أن نُحيّ عن منصبه، تمكن من تأمين مراكز مهمة في الإدارات المدنية وفي الرتب الدينية المهمة لصهره ولخمسة من أولاده. حنّان كان رجلاً حاذقاً لم يجاره أحدٌ بسرعة الإثراء ولا بتكديس الأموال، كما يقول عنه المؤرخ فلاڤيوس جوزيف. أما التلمود فيقول عنه وعن آله ما يلي:

«يا آل حنّان!! كم أنا بائس!! أنا بائس وتعيس بسبب مصائبكم الطارئة، أنا بائس بسبب صفيركم، صفير كصفير الأفاعي!! أنتم كهنة، كهنة كبار!! أبناؤكم قيّمون على الخزائن، أصهرتكم مولجون بالإشراف على الهيكل. خدمكم يضربون الشعب بالهرّاوات الثقيلة!!»

كان حنّان يفرض احترامه على طبقات الشعب كافةً وكان يضمر شعوراً حاداً معادياً للرومان. رسمياً لم يعد رئيساً للكهنة، أما معنوياً فإنه رئيس الطائفة اليهودية من دون منازع، هذا ما توصلت إليه أبحاث الكاتب الفرنسي رينان الذي يشير إليه بإصبع الاتهام على أنه هو: «المسؤول الأساسي عن المأساة الرهيبة . . . ، المسؤول الحقيقي عن الجريمة القضائية التي سوف تقع».

إن ما نستخلصه من هذه الواقعة هو أن الحقد والخوف والتآمر كانت وراء تلك المكيدة. وقد بدا ذلك واضحاً في اللجوء إلى الخيانة وفي استعمال الرشوة وفي التستر بظلام الليل كي يتم إلقاء القبض على إنسان كان يعيش بوضوح بين الناس، يبشر في وضح النهار ويجترح العجائب أمام كل الملأ. والتساؤل الآن: لماذا التآمر ولماذا الخيانة مع أن الناموس الموسوي يقول:

«بالعدل تحكم لقريبك. لا تسع في الوشاية بين شعبك؟»
[لاويين ١٩/ ١٥ ـ ١٦]

أنبياء بني إسرائيل والتاريخ والأحداث الحالية تعطيك الجواب الصريح.

أما المحاكمة نفسها فإنها تقسم على قسمين: قسم جرى أمام السلطة اليهودية وقسم آخر جرى أمام السلطة الرومانية. وقبل الدخول في التفاصيل لا بد من التوقف عند ثلاثة أسئلة أساسية.

١ ـ لماذا أُقحمت السلطة الرومانية في هذه المحاكم، ألم تكن السلطة اليهودية بقادرة وحدها على إجرائها؟
٢ ـ ألم تكن السلطة الرومانية وحدها قادرة على إصدار الحكم؟
٣ ـ لماذا إذن السلطتان وأيتهما المسؤولة مباشرة عن موت المسيح؟.

في عهد المسيح كان من صلاحيات المجلس اليهودي إصدار الحكم وتنفيذه. ولو حدث هذا الأمر فعلاً واقتصرت المحاكمة على السلطة اليهودية وحدها لكان العقاب الأشد حسب الناموس هو الرجم وليس الصلب، والرجم وحده ليس بكافٍ للإجهاز نهائياً على المتهم الخطير، ولربما أضحى خطره أكبر في حال خروجه من الرجم وفيه بقية من إرادة مصممة على المتابعة، وليس هذا الأمر بالمستبعد. إذن فمن باب الحذر والحيطة التأكد من تصفيته جسدياً تصفية تامة، ولن يكون ذلك إلا عن طريق صلبه ومن يحكم بالصلب غير السلطة الرومانية؟.

لقد كان من الممكن الاكتفاء بالسلطة الرومانية للتخلص من المسيح نهائياً، ولكن في نظر الكهنة، كان من الضروري قانونياً وأخلاقياً أن يمثل المسيح أمام المجلس اليهودي: قانونياً لأن التقاليد القضائية كانت تفرض ذلك، وأخلاقياً، كي لا يصدر الحكم على المسيح من قبل القوة المحتلة فقط إذ إنه في هذه الحال يبدو وكأنه مناضل نبيل استشهد وهو يدافع عن كيان قومه، بينما السلطة الدينية اليهودية تصر على إظهاره بمظهر المارق الخارج على الدين الذي صدر بحقه حكم عن أعلى هيئة روحية يعترف بها شعبه، تدينه بالتجويف والهرطقة والكفر.

الطريقة المثلى إذن تتطلب إشراك السلطتين في تصريف هذه القضية الشائكة: واحدة تخطط وترسم والثانية تنفذ. فالمخطط كان مرسوماً بدقة والمؤامرة محبوكة بذكاء.

حين مَثُلَ يسوع أمامه، كيف استقبله؟ ما هو السؤال الذي وجه إليه؟ كيف حقق معه؟ وماذا قال له؟ لا شيء. الأناجيل لا تأتي على ذكر أي تفصيل يتعلق بهذا الأمر. لقد كان على إطلاع بنشاطات المتهم ولربما استزاد معرفة مما ردده على مسامعه بعض أفراد الزمرة المرافقة للمسيح. فكر ملياً من دون أن ينبس ببنت شفة. لعله كان يتصور أبعاد مضاعفات قضية هذا الرجل الماثل بين يديه، ويحسب ألف حساب لتفاقم مخاطرها وتشعب تأثيراتها وخطورة نتائجها. أدرك أن عليه أن ينهي هذه المسألة وأن يحدد

السبيل الذي سوف يسلكه. وقبل فوات الأوان رسم الخطة، أمسك بخيوطها، وشرع بتحريك الدمى.

ليس من الصعب تخيل هذا العجوز المراوغ الذي سكنت في أحشائه عصبية الإنسان الصلف وتحجرت في نفسه أهواء الطمع الجارف وقد عصفت في قلبه مشاعر الخوف والحقد عند رؤيته ذلك الرجل الخطير الماثل أمامه والذي كان يفضح أمام الملأ خبث الكهنة المارقين ويلعن بجرأة نفاقهم وطمعهم ودناءتهم. لا بد وأن حنّان قد تصور أن المسيح كان يقصده هو بالذات، فالإناء ينضح بما فيه. نظر إليه ملياً، صرّ على أسنانه، بلع ريقه ثم اتخذ قراره. نظر إلى الزمرة وأشار إليها بالانسحاب آخذة معها المسيح «موثوقاً» إلى قيافا رئيس الكهنة»

[يوحنا ١٨/ ٢٤]

الفصل الثاني

إن المرحلة التالية من محاكمة المسيح جرت أمام قيافا رئيس الكهنة، الذي كان يُعتبر المسؤول المباشر عن اختلاق الإدعاءات السياسية والدينية التي انبثقت عنها التهم التي وُجهت إلى المسيح. كان يوسف قيافا قد تولى هذا المنصب الكهنوتي الرفيع في عام (١٨) في عهد الوالي الروماني فالاريوس غراتيوس، وقد نجح بالاحتفاظ به طوال عهد بيلاطس حتى عام (٣٦) حين عُزل منه على يد ڤيتليوس حاكم سوريا. إن النجاح الذي حققه بالتربع في هذا المنصب المهم مدة طويلة كهذه، فيما كان الآخرون يتساقطون الواحد تلو الآخر، تدل على أن الرجل كان يتمتع بمواهب كثيرة من اهمها السلاسة والليونة وسرعة التكيف؛ لقد كان قيافا من طراز أولئك الرجال ذوي الطموح الرخيص والوصولية المبتذلة الذين في مختلف العهود وفي البلاد كلّها، يرتضون لأنفسهم الدنيئة أن يكونوا الأداة المطواعة في يد ذوي السلطة والنفوذ.

إن الهاجس الكبير الذي كان يقضّ مضاجع هذا الرجل هو الخوف الدائم من فقد المنصب الذي كان يقبض عليه بأظافره وأنيابه. وهل من خطر

يزعزع مركزه في أعين السلطة أكبر من ذلك الذي ينتج عن فوضى وعن إزعاج لروما ولرجالها يقوم بها رجل محسوب عليه؟ وهل هناك من غيظ أعنف ومن حنين أشد من تلك التي استعرت في نفس الرجل لدى سماعه خبراً يتداوله الناس عن مغامرٍ مجهول الهوية فاقد الاتزان ينشر الفوضى في البلد ويحرض الناس على الثورة والتمرد؟ إذن يجب التخلص منه حالاً ومن دون تردد أو تلكؤ.

أما أفضل السبل وأسلمها فيكون عن طريق تلفيق تهمة مستمدة من الدين: من الناموس وتبريرات مفسريه، ومن التلمود واجتهادات واضعيه.

وفي هذه الأثناء كانت حلكة الظلام قد اشتدت وأشرف الليل على ابتلاع هزيعه الثاني، وخبر إلقاء القبض على المسيح ينتشر بسرعة في أنحاء المدينة تتناقله الأفواه على ضوء قناديل خافتة بهت نورها وشح زيتها وذبل وميضها وانعكست ظلالها على وجوه قاتمة وعيون حائرة. بعض الأحبار وأساطين الدين والكتبة ورؤساء الكهنة السابقون هرعوا إلى مكتب قيافا، يلتفون حول رئيسهم ويتسقطون الأخبار من مصادرها الرئيسية. وبفضل وجود هذه الحفنة من أعضاء المجلس، سمح قيافا لنفسه بالشروع بمحاكمة المتهم مبتدئاً باستجوابه، مع أن النصوص التلمودية لا تسمح بإجراء المحاكمات ليلاً، مشددةً على: «أن المحاكمات التي قد تتعرض لحياة رجل لا يجوز أن تجري إلا في وضح النهار». إن خرق هذا النص التلمودي الواضح يحملنا على التأكيد أن النية المبيتة عند الجميع كانت ترمي إلى التخلص السريع والمباشر من يسوع. السرعة ضرورية، أولاً لأخذ غالبية الشعب على حين غرة وتفادي مداخلاته، وثانياً لوضع السلطة الرومانية أمام الأمر الواقع وتجنب ترددها أو مماطلتها وربما إصرارها على التدقيق في التحقيق.

بدأت المحاكمة كالتالي:

«سأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع أنا كلمت العالم علانية. أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.

لماذا تسألني أنا. إسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم. هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا. ولما قال هذا لطم يسوعَ واحدٌ من الخدام كان واقفاً قائلاً أهكذا تجاوب رئيس الكهنة. أجابه يسوع إن كنتُ قد تكلمتُ ردياً فاشهد على الردي وإن حسناً فلماذا تضربني».

[يوحنا ١٨/ ١٩ ـ ٢٣]

إن القسم الأول من جواب المسيح يُظهر كيف أنه أراد التستر على تلاميذه فتجاهل هذا الجزء من السؤال ليجنبهم ضغينة هؤلاء العتاة ويدل أيضاً إلى أي مدى قد نذر نفسه فداءً للجميع. أما الصفعة التي وجهها إليه أحد الخدم فهي أيضاً خرق صريح آخر لتعاليم التلمود التي تنص على أنزال العقوبة بالحاكم الذي يسمح لنفسه بضرب المتهم أثناء محاكمته. لقد أتى القديس بولس على ذكر مثل هذه المخالفة في «أعمال الرسل» حين أمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده بضرب بولس على فمه، فأجابه مهدداً:

«سيضربك الله أيها الحائط المبيض. أفأنت جالس تحكم علي حسب الناموس وأنت تأمر بضربي مخالفاً للناموس».

[أعمال الرسل ٢٣/ ٣]

إن الضرب مخالف للناموس اليهودي، وما الإقدام على صفع المسيح عند بدء المحاكمة إلا برهاناً آخر على أن المجلس لم يكن حريصاً على تطبيق القانون لأنه كان منغمساً في تنفيذ مخططٍ اتفق عليه مسبقاً. وما المحاكمة سوى إجراء شكلي يمهد السبيل لإيجاد تغطية شرعية للحكم النهائي.

أما القسم التالي من جواب يسوع فإنه، بطريقة لبقة ودقيقة، يدعو رئيس الكهنة إلى التوجه بالسؤال إلى «الذين سمعوا» أقوال المسيح، لأنهم وحدهم يعرفون ماذا قال. وفي الحقيقة فإن في هذه الدعوة الصريحة إلى سماع الشهود تحدٍ واضح استفز الخادم وأخرجه عن طوره ثم في ذروة الانفعال الطائش دفعه إلى صفع يسوع. ذلك أن الشهود في الناموس اليهودي لهم شأن كبير مما يُحتم وجودهم في كل محاكمة يراد لها أن تكون عادلة. ففي هذا الخصوص يقول الناموس على التوالي:

«على فم شاهدين أو ثلاثة شهود يُقتل. الذي قتل لا يُقتل على فم شاهدٍ واحدٍ».

[تثنية ١٧/ ٦]

«لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطىء بها. على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر».

[تثنية ١٩/ ١٥]

«شاهد واحد لا يشهد على نفس للموت».

[عدد ٣٥/ ٣٠]

لم يتمكن قيافا من التهرب، فقد كان عليه أن يلتزم بالنصوص ويستمع إلى أقوال الشهود ولكن أي شهود؟

ها هي الأناجيل تروي ما حدث بهذا الشأن:

١ ـ إنجيل متّى:

«وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زورٍ على يسوع لكي يقتلوه. فلم يجدوا. ومع أنه جاء شهود زورٍ كثيرون، لم يجدوا. ولكن أخيراً تقدم شاهدا زورٍ وقالا هذا قال إني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه. فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشيء. ماذا يشهد به هذان عليك. وأما يسوع فكان ساكتاً».

[متى ٢٦/ ٥٩ ـ ٦٣]

٢ ـ إنجيل مرقس:

«وكان رؤساء الكهنة والمجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا. لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتفق شهاداتهم. ثم قام قوم وشهدوا عليه زوراً قائلين نحن سمعناه يقول إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأيادٍ. ولا بهذا كانت شهادتهم تتفق. فقام رئيس الكهنة في الوسط وسأل يسوع قائلاً أما تجيب بشيء ماذا يشهد به هؤلاء عليك. أما هو فكان ساكتاً ولم يجب بشيء».

[مرقس ١٤/ ٥٥ ـ ٦١]

نستخلص من هذين النصين ما يلي:

١ ـ النقص الواضح والصريح في وجود شهود حقيقيين.

٢ ـ على الرغم من تقدم بعضهم للشهادة، فإن أقوالهم لم تتفق.

٣ ـ هؤلاء الشهود هم شهود زور. وحسب الناموس اليهودي فمن المفروض أن تكون شهاداتهم باطلة. ولكن هل تقيد اليهود وهل يتقيدون بهذا الناموس حين تكون مصالحهم مهددة؟

٤ ـ إن الباطل واضح في ما أتى على لسان الشهود الوارد ذكرهم في الإنجيلين المذكورين وبين الحقيقة التي ذكرها يوحنا. ففيما ادعى الشهود أن المسيح قد قال: «إني أقدر أن أنقض هيكل الله. . .» أو «إني أنقض هذا الهيكل. . .» فإن يوحنا يروي لنا الحادثة كما وقعت في حينها، فيقول أن اليهود قالوا للمسيح:

«أية آية ترينا حتى تفعل هذا. أجاب يسوع وقال لهم أنقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه».

[يوحنا ٢/١٨ ـ ١٩]

إن ما أتى على لسان شهود الزور يقحم المسيح في وضع محرج يظهره فيه وكأنه يتحدى بصلف ويهدد بكبرياء ويهدم عن سابق إصرار ناظراً إلي هيكل الرب بازدراء. أما القول الحقيقي فإن كل أبعاد الافتراض واضحة فيه ناهيك عن الاختلاف التام بينه وبين أقوال الشهود من حيث تركيب الجملة والتباين العميق حول من سيقوم بنقض الهيكل.

وفي ختام الجلسة أمام مجلس كهنوت اليهود، جرى المشهد التالي:

«سأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أأنت المسيح ابن المبارك. فقال يسوع أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة ثيابه وقال ما حاجتنا بعد إلى شهود وقد سمعتم التجاديف، ما رأيكم. فالجميع حكموا عليه أنه مستوجب الموت».

[مرقس ١٤/١٦]

إن هذا المشهد يدل دلالة واضحة على خبث رئيس الكهنة. فبعد أن خذله الشهود، وبعد أن افتقرت إدعاءاته إلى المنطق، وبعد أن هوت اتهاماته أمام فقدان الحجة والدليل، لجأ إلى المناورة العاطفية كي يؤثر في مشاعر الحاضرين. فانتصب غاضباً ومزق ثوبه لأمر لا يستدعي كل هذا الأنفعال، اللهم إلا إذا أراد به ذر الرماد بالعيون وتحويل الأنظار من ناحية إلى أخرى. إن إلصاق تهمة التجديف، أي النيل من القدرة الإلهية، تستوجب حسب التلمود تحقيقاً دقيقاً يقضي باستجواب شاهدين من وراء الستار فيما يقتضي وضع المتهم في مكان مضيء ويتم إخضاعه لتحقيق دقيق ومتواصل إلى أن يعترف مباشرة أو أن يتعثر لسانه فيبوح بما كان قد تلفظ به من كلام ينال من مقام القدرة. هل هذا ما فعله المجلس في سياق تحقيقه مع المسيح؟ لا. إذن الحكم باطل من أساسه. فالتهمة الرئيسية التي وجهها المجلس إلى المسيح لم يؤكدها شهود حقيقيون، علماً أن الناموس اليهودي لا يأخذ بعين الاعتبار حتى أعتراف المتهم نفسه ما لم تأتِ أقوال الشهود تؤكد التهمة بوضوح و تسندها بقوة وتثبتها بأدلة قاطعة. قيافا كان يريد التخلص من المسيح فاتخذ من الدين ستاراً لتمرير مآربه. إن قيافا ومن بعده أحفاده رسموا خطاً أصبح ناموساً في سلوك الشعب اليهودي يقوم على تبرير الوسيلة بالغاية وعلى نحر العدالة باسم المبادىء الأخلاقية وعلى تزوير الحقيقة تحت شعار إنقاذ شعب الله من التلاشي.

ثم رفعت الجلسة إلى أن ينبلج الصباح. في هذه الأثناء زُج بالمسيح موثوقاً في إحدى الزنزانات.

الفصل الثالث

وفي ظلام الهزيع الأخير من الليل انتشر الكتبة ورجال الكهنوت والخدم في أنحاء المدينة يدعون أعضاء المجلس الأعلى إلى جلسة طارئة سوف تنعقد قبل بزوغ أول شعاع شمس. بالتحديد عند أول لحظة من الوقت الذي يسمح الناموس به لعقد الجلسات الرسمية، أي عندما يتراجع الظلام ويصبح من الممكن «تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأزرق». دائماً السرعة نفسها، ذات التهافت، التسرع نفسه.

مع رعشة الفجر القارس اقتيد المسيح إلى الهيكل حيث ستنعقد جلسة مجلس اليهود بأعضائها الواحد والسبعين على اختلاف مشاربهم من رجال كهنوت ومشايخ شعب إلى كتبة وعلماء، اختيروا من بين النخبة لما يتحلون به من مزايا أهمها أن يكون الواحد منهم:

١ ـ إسرائيلياً صميماً متحدراً من أسرة عريقة

٢ ـ متمتعاً بمظهر جسدي لائق لا يثير الشفقة ولا يبعث على السخرية.

٣ ـ رب عائلة محترمة.

٤ ـ أن لا يكون مخصياً أو أعمى أو تاجر طيور أو مرابياً. . الخ.

وحسبما يذكر القديسان مرقس ومتّى فإن الجلسة لم تستغرق إلا بضع دقائق.

الأول يقول:

«وللوقت في الصباح تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله. فأوثقوا يسوع ومضوا به وأسلموه إلى بيلاطس».

[مرقس ١٥/ ١]

أما الثاني فيقول:

«ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس النبطي الوالي».

[متى ٢٧/ ١]

القرار واضح، موقف المجلس صريح، هاجسه الوحيد التخلص السريع من الرجل الخطير الذي يهدد وحدة القوم وينشر الاضطراب والفوضى ويستفز السلطة الرومانية. حنّان كان قد قرر مسبقاً كما رأينا «أن يموت إنسان واحد عن الشعب».

[يوحنا ١٨/ ١٤]

مجلس اليهود أصدر حكمه بقتل يسوع بناءً على تهمتين ألصقهما به:

١ ـ التبجح بهدم الهيكل، بيت الرب.

٢ ـ الادعاء بأنه المسيح.

تهمتان لا تجد عند السلطة الرومانية أي إذن صاغية ولا تثير أي اهتمام. فمن المفروض تلفيق تهمٍ أخرى تنال مباشرة من أمن السلطة المحتلة وتثير حفيظتها. وهذا ما حدث فعلاً في القسم الثاني من المحاكمة.

القسم الثاني من المحاكمة: يسوع أمام السلطة الرومانية:

فصل جديد من محاكمة المسيح ابتدأ حين عزم أعضاء المجلس على إضفاء الصفة الرسمية والشرعية على القرار الذي اتخذوه بإنزال عقوبة الموت بالمتهم. في الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم الرهيب، وبالتحديد في الساعة الخامسة واثنين وخمسين دقيقة من صباح السابع من نيسان اقتادوا المسيح مكبلاً أمام بيلاطس. ساعة، لا شك غريبة كي يمثل فيها متهم أمام أعلى سلطة في المدينة. ولكن من المعروف عن الرومان أنهم كانوا يستيقظون باكراً لتصريف الأمور المهمة، ويخصصون ساعات بعد الظهر للقيلولة أو لاستقبال الأصدقاء أو للترويح عن النفس.

يتضمن القسم الثاني من المحاكمة أمام السلطة الرومانية ثلاثة فصول أيضاً، اثنين منهما أمام بيلاطس يتخللهما جلسة يمثل فيها المسيح أمام هيرودس.

الفصل الأول

كان اليهود يضمرون للرومان مشاعر متباينة وأحياناً متناقضة تماماً تتراءى واضحة من خلال سلوكين مختلفين: أحياناً يتظاهرون بالخنوع الممزوج بالممالأة والمداهنة، وأحياناً أخرى يتصرفون تصرفاً وقحاً منبثقاً عن تغطرس خبيث. كان عليهم أن يتجنبوا غضب الوالي لأنهم يعرفون جيداً أن ضرباته تكون دائماً قاسية. وكان على الوالي أيضاً أن يتغاضى عن بعض تجاوزاتهم خشية الوشاية به لدى القيصر عن طريق (اللوبي) المقيم هناك، والذي كان يتمتع بنفوذ واسع في دوائر القصر الإمبراطوري. ومن التجارب العديدة والأحداث المختلفة نشأ بين السلطة الرومانية من ناحية واليهود من ناحية أخرى نوع من الحوار الصامت تفاهما من خلاله على مدى الكراهية

والازدراء الذي يحق لكل طرف أن يضمره للآخر، ووضع أمام أعينهما مقدار الخطر الذي باستطاعة كل جانب إلحاقه بالثاني في حال انقطاع حبل الوصال بينهما. هكذا تم اتفاق غير معلن لتفادي كل كارثة مشتركة عن طريق التقيد بالحد الأدنى من التوازن بين العداء والكراهية من ناحية، وبين المعاملة الحسنة والصريحة على أساس المحافظة على المصالح المشتركة من ناحية ثانية. لذلك عندما اقتاد اليهود المسيح إلى بيلاطس:

«لم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسوا فيأكلون الفصح. فخرج بيلاطس إليهم».

[يوحنا ١٨/ ٢٨]

لا بد الآن من التوقف قليلاً للتنبيه على أنه خلافاً للأدوار الكثيرة التي قامت بها مختلف الفاعليات اليهودية في القسم الأول من المحاكمة، فإن الأدوار الرئيسية في هذا القسم الثاني تقتصر فقط على بيلاطس وعلى الجمهور.

فمن هو بيلاطس؟ هل هو فعلاً ذلك الرجل الظالم، الفاسق، اللص الذي يحب الرشوة ويشجع العنف كما صوره لنا الكاتب اليهودي فلافيوس جوزيف؟ إن التاريخ يشهد أن اليهود قادرون على اختراع أحط الصفات وترويج أشنع الطباع وفبركة ألعن الأعمال وتلفيق أرذل التهم وإلصاقها جميعاً بكل من يتصدى لهم أو من لا يحبهم. مما لا شك فيه أن بيلاطس لم يكن ذلك الملاك الوديع ولا ذلك المثال الفريد في الأخلاق والسلوك، لكنه في نفس الوقت لم يتعد حدود الفظاظة والطمع التي كانت معروفة عند معظم كبار رجال الإمبراطورية لا سيما الولاة منهم أو الحكام في الأصقاع النائية. ومن المهم الاعتراف أيضاً بأن المهمة التي كانت ملقاة على عاتق بيلاطس لم تكن سهلة. فالدولة التي كان عليه إدارة شؤونها كانت دولة مفككة، انتشر الاضطراب في مدنها وعمت الفوضى في ربوعها وراج الفساد في دوائرها. والشعب الذي كان عليه أن يحكمه كان شعباً صعب المراس، سيء الطباع، مفطوراً على الخديعة والمكر والدس والرياء كما أتى على لسان رسلٍ من الأنبياء. كل هذه الأمور الصعبة لم توفر له حرية الاختيار بين مختلف الوسائل الديمقراطية. فليس من المستغرب إذن أن نراه يلجأ دائماً

إلى اعتماد الشدة والحزم كسبيل أساسي وربما وحيد للحفاظ على حدٍ أدنى من النظام والأمن.

إن من يقرأ الأناجيل لا يستنتج أن بيلاطس كان ظالماً ومستبداً وطاغية، بل على العكس يشعر أن هذا الحاكم الروماني على غرار زملائه يستمد قوته من اقتناعه بتفوق مدينته، بما فيها من حسن ورديء، على مدينة أولئك الرعاع المراوغين الدجالين الذين كان يحكمهم. وقد كان يعلم أيضاً أن نفوذ اليهود في روما الذي كان قد أصيب بضربة قوية في عام (١٩) وانحسر على أثرها وتقلص تقلصاً كبيراً، قد عاد الآن يتسرب من جديد عبر دهاليز القصر وكان على وشك استعادة مكانته الأولى.

إذن، منذ بداية هذا الفصل من المحاكمة يمكننا أن نتخيل الحالة النفسية التي كان عليها بيلاطس. ففضلاً عن المشاكل اليومية التي تخلقها له جماعات كثيرة في مدينته تعج بالأقاويل وتنضح بالتناقضات، ها هي مسألة أخرى تطرح أمامه؛ مسألة ليست غامضة ومعقدة ودقيقة وحسب بل إنها تضطره للخروج إلى الشارع كي ينظر فيها ويبت بشأنها، فالسلطة اليهودية العليا التي وراءها لا تريد أن تتدنس بدخولها دار الولاية قبل أن تأكل من طعام الفصح.

من على عتبة القصر وجه بيلاطس إلى اليهود السؤال التالي:

«أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟»

[يوحنا ١٨/ ٢٩]

لم يتبرع واحد من الحشد للرد على هذا السؤال بل أتاه الجواب من أفواه عديدة تصيح بدهاء:

«لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك».

[يوحنا ١٨/ ٣٠]

تهمة غامضة وادعاء سخيف لم يقتنع بيلاطس بها. وفضلاً عن هذا الجواب الماكر كان قد رأى الشر في النظرات والحقد في العيون والخبث

على الوجوه والافتراء على الشفاه. ولكي يتخلص من هذه الورطة، قال لهم:

«خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم».

[يوحنا ١٨/ ٣١]

فأجابوه بلهجة تنضح بالتحدي الساخر من خلال خضوع خبيث تستر وراء حرص: على الالتزام بالقانون واعترافٍ بصلاحيات السلطة الحاكمة، فقالوا له:

«لا يجوز لنا أن نقتل أحداً».

[يوحنا ١٨/ ٣١]

لم يكن بيلاطس يدري أن القضية على قدر من الخطورة يستوجب إصدار حكم بالقتل على هذا الرجل. كل ما تصوره أنها ليست أكثر من مشادة دينية بين رجل مارق وجماعةٍ من المتزمتين من المفروض أن تجد حلاً مرضياً في حكم لا يتعدى بضعة أيام من السجن يتخللها ربما شيء من الجلد أو قليل من الرجم. لكن الزمرة رفعت صوتها بإلحاح مطالبة بعقاب شديد، عقاب القتل. تُرى ما ذنب هذا الرجل؟

«إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطي جزية لقيصر قائلاً أنه هو مسيح ملك».

[لوقا ٢٣/ ٢]

لا جدوى من تخيل وقع هذا الجواب على بيلاطس، فإن الخطر واضح فيه من خلال التهم الثلاث، التي تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك التي وُجهت إلى المتهم إبان المحاكمة أمام المجلس اليهودي:

١ ـ إفساد الأمة، أي تحريض الشعب على الثورة.
٢ ـ حث الناس على التوقف عن دفع الضريبة لقيصر.
٣ ـ الادعاء أنه المسيح الملك.

يبدو أن بيلاطس لم يعلق أهمية كبرى على التهمتين الأوليين، إذ إن الدعوة إلى الثورة وتحريض الناس على الامتناع عن دفع الضرائب كانت من الأمور الرائجة في ذلك الوقت. أما التهمة الثالثة فقد كانت نادرة بقدر ما هي

خطيرة. خطورتها تكمن في المشاكل التي قد تنشأ عنها عند انتشارها بين جمهور ينتظر بفارغ الصبر مجيء المسيح، ناهيك عن التحدي السافر الذي يُهدد به مباشرة نفوذ الإمبراطورية نفسه. ظن الوالي أن المتهم خطير فعلاً، لذلك قرر استجوابه بنفسه. ولكنه قبل أن يباشر تحقيقه نظر أمامه فرأى حشداً من المتزمتين ينادي بقتل رجل يدعي أنه ملك. وفكر الحاكم ملياً، ماذا عساه يكون هذا الرجل؟ أنبيٌ غامضٌ هو أم مدع مجنون؟ شعر أن عليه أن يتريث وأن يحترس. فربما يريد اليهود السخريةَ منه بدفعه إلى إصدار حكم بالموت على رجل فاقد العقل مختل التوازن ضائع الصواب.

كبار رجال الكهنوت ومشايخ الشعب يلحون عليه بقتل المتهم. لماذا هذا الحكم الجائر والرجل لم يؤخذ على حين غرة متلبساً بالجرم الذي نسب إليه من تحريض إلى إفساد إلى دعوة للتمرد؟ ربما يكون الأمر بمجمله مناورة رخيصة ودسيسة باطلة من تلك المناورات والدسائس التي اعتاد هذا الشعب المارق على حبكها بمهارة ومكر قاصداً من ورائها تلطيخ سمعة السلطة وإشاعة مشاعر الاستيلاء والغضب بين أفراد الشعب. مرة ثانية أحس بيلاطس أن عليه التمسك بالحرص والتحلي بالحذر. وبسبب الازدراء الذي كان يكنه لليهود، فإن مشاعره وعاطفته مالت ناحية التروي عند النظر في أمر هذا الرجل واتجهت نحو مبدأ التقيد بالعدل والإنصاف حين تدق ساعة إصدار الحكم عليه.

انسحب بيلاطس إلى داخل دار الولاية بعيداً عن صياح الحشد وعن إلحاحه الشديد بقتل المتهم مقرراً استجوابه بنفسه:

«ودعا يسوع وقال له أنت ملك اليهود؟».

[يوحنا ١٨/ ٣٣]

إن اللهجة الحائرة التي صيغت بها هذه الجملة المترددة بين الاستفهام وبين التأكيد حملت المسيح على الاستطراد بسؤال ينفذ مباشرة إلى لب القضية:

«أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنّي؟».

[يوحنا ١٨/ ٣٤]

فهم بيلاطس أن المسيح يتهمه بأنه أداة بيد الآخرين، فرد بوضوح مبرئاً نفسه:

«ألعلي أنا يهودي. أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلي. ماذا فعلت؟».

[يوحنا ١٨/ ٣٥]

وكان جواب المسيح واضحاً وصريحاً بتّ بتاً قاطعاً ببراءته من كل ما يتعلق بشؤون أمن الدولة أو تهديد سلامتها أو نشر الفوضى والإخلال بالأمن، فأعلن قائلاً:

«مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أُسلّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا».

[يوحنا ١٨/ ٣٦]

كل ما علق في ذهن الحاكم الروماني من هذا القول هو كلمة «مملكتي» فقط، فسأل:

«أفأنت إذاً ملك؟».

[يوحنا ١٨/ ٣٧]

أجابه يسوع:

«أنت تقول أني ملك».

[يوحنا ١٨/ ٣٧]

ثم استطرد موضحاً:

«لهذا قد ولدتُ أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتي».

[يوحنا ١٨/ ٣٧]

مما لا شك فيه أن الحاكم أدرك أن ما من خطر يُذكر في كل ما يقوله هذا الرجل. إنه يتكلم عن «الحق»، وأي حق هذا في مجتمع فاسد لا يعرف إلا الخبث والدس والمكر والخديعة؟ لذلك تساءل عند خروجه:

«ما هو الحق؟».

[يوحنا ١٨/ ٣٨]

وعلى عتبة الدار أعلن أمام الجمهور نتيجة استجوابه للمتهم فقال:

«أنا لست أجد فيه علة واحدة».

[يوحنا ١٨/ ٣٨]

إلى هنا، يبدو واضحاً أمامنا أن بيلاطس كان قد كوّن رأيه بالنسبة للمتهم. إنه بنظره رجل بسيط وبريء لا خطر من ورائه ولا مأخذ على أقواله. لكنه الحشد، ما أن استمع إلى إعلان بيلاطس، حتى هاج صارخاً، ضاجاً، مردداً:

«إنه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا».

[لوقا ٢٣/ ٥]

«من الجليل؟» الإسم لفت انتباه الحاكم. فكر ملياً: الرجل إذن من الجليل!!! عندئذٍ بزغت في رأسه فكرة اعتقد أنها سوف تسهل له الخروج من هذا المأزق. فبما أن المتهم من سكان الجليل، فإن حاكم الجليل هو المعني بالأمر مباشرة والمؤهل منطقياً ورسمياً كي يبت بشأنه. راقت له فكرة إرسال المتهم إلى هيرودوس الأمير الحاكم في الجليل. فرك يديه ابتهاجاً واستحساناً لأنه أدرك أن تنفيذ هذه الفكرة سوف يعود عليه بالنفع العميم: أولاً، يتخلص من سماجة اليهود وإلحاحهم الممل الذي قد يكون ستاراً لتمرير مؤامرة تقصده هو بالذات. ثانياً، يتفادى الحكم بالقتل على رجل هو غير مقتنع بذنبه وغير متأكدٍ من جريمته. ثالثاً يكون عمله هذا مبادرة حسنة تمهد لإصلاح ما فسد بينه وبين هيرودوس بعد توترٍ بالعلاقات بينهما على أثر إخماد تمرد أجراه بيلاطس في المناطق الحدودية الواقعة تحت حكم هيرودوس. فتسليم المتهم بمثابة اعتذار ضمني عما حدث واعتراف واضح بسلطة الأمير ودعوة صريحة للمصالحة والتعاون. ومن حسن الظروف أن هيرودوس كان موجوداً في أورشليم في ذلك الوقت، على بعد خطوات فقط من دار الولاية.

الفصل الثاني

مرة أخرى هاج الجمهور وواكب المسيح بالصياح والضجيج إلى أن قاده إلى قصر هيرودوس. كان حاكم الجليل قد سمع الكثير عن معجزات هذا الرجل وكان يتساءل:

«من هو هذا الذي أسمع عنه مثل هذا. وكان يطلب أن يراه».

[لوقا ٩/ ٩]

ها هو الرجل الآن أمامه:

«فلما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجّى أن يرى آية تصنع منه. وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء. ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد. فاحتقره هيرودوس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس. فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما».

[لوقا ٢٣/ ٨]

الفصل الثالث

من جديد وجد بيلاطس نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذي أراد أن يتفادى الانغماس في إصدار حكم جائر عليه. بيلاطس، الرجل الوثني، لم يكن أبداً متحمساً لخرق أصول العدالة والحق بدون أي مبرر، وكان يأنف من الرضوخ لرغبة اليهود لا سيما وأن تشويشهم وصياحهم وضجيجهم وإلحاحهم عليه بقتل الرجل، جعلت صبره ينفد، فقال لهم مفنداً أباطيلهم بلهجة لا تخلو من العتاب الغاضب:

«قد قدمتم إلي هذا الإنسان كمن يفسد الشعب. وها أنا قد فحصتُ قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه. ولا هيرودوس أيضاً لأني أرسلتكم إليه. وها لا شيء يستحق الموت صُنع منه».

[لوقا ٢٣/ ١٤ ـ ١٥]

ولكي يحتوي غضبهم ويشفي شيئاً من غليلهم تابع عارضاً عليهم الحل التالي:

«فأنا أؤدبه وأطلقه».

[لوقا ٢٣/ ١٦]

هذا الموقف هو موقف رجل عادل يختلج في قلبه ضمير ويحكم في نفسه وجدان. نعم لقد اقترح أن ينزل بالمتهم عقاباً يؤدبه به لأنه بنظره قد تسبب، بطريقه مباشرة أو غير مباشرة، بأحداث فوضى، مهما كانت ضئيلة. ثم كان لا بد من إسكات هذا الحشد المزعج عن طريق إرضائه بإنزال عقوبة ما على الشخص الذي منه يشتكون.

مرة أخرى لمعت في رأس بيلاطس فكرة جديدة داعبت خياله فتصور أنه قد عثر على الحل المنشود. لقد كان من عادة الوالي أن يطلق لمناسبة عيد الفصح سراح معتقل.

«وكان المسمى باراباس موثقاً مع رفقائه في الفتنة؛ الذين في الفتنة فعلوا قتلاً».

[مرقس ١٥/ ٧]

واعتقد بيلاطس أن إطلاق سراح المسيح كان أمراً لا بد منه، إذ إن التهمة الموجهة إلى باراباس واضحة والجرم ثابت والحكم قد صدر بحقه. أما المسيح فإن التهمة الموجهة إليه ما زالت تفتقر إلى الإثبات والأدلة. فحين المفاضلة بينه وبين باراباس فإن الغالبية قد تميل نحو إطلاق سراح المسيح لأن الجميع يعرف:

«إن رؤساء الكهنة قد أسلموه حسداً».

[مرقس ١٥/ ١٠]

واثق من نفسه ومن تحقيق فكرته، تقدم بيلاطس من عتبة القصر وقال مستفتياً الشعب بين باراباس والمسيح:

«مَن من الإثنين تريدون أن أطلق لكم؟».

[متى ٢٧/ ٢١]

وبما أن:

«رؤساء الكهنة والشيوخ كانوا قد حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس، ويهلكوا المسيح».

[متى ٢٧/ ٢٠]

فقد ضجوا وصاحوا:

«وقالوا باراباس».

[متى ٢٧/ ٢١]

لم يستسلم بيلاطس ولم يفقد الأمل. من جديد أراد أن يستمع إلى صوت الجمهور بعيداً عن تأثير رجال الكهنوت، فأدخل تعديلاً على سؤاله علّه ينفذ إلى نفوسهم أو يحرك ضمائرهم، فقال:

«ماذا تريدون أن أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود؟».

[مرقس ١٥/ ١٢]

فأتاه الجواب من حناجر غصت بالحقد ومن أفواه اعتادت على الكذب والدجل:

«أصلبه. أصلبه».

[لوقا ٢٣/ ٢١]

لم يتقهقر بيلاطس:

«فقال لهم ثالثة فأي شر عمل هذا؟ إني لم أجد فيه علة للموت. فأنا أؤدبه وأطلقه».

[لوقا ٢٣/ ٢٢]

لكن الحناجر لم تتعب:

«فكانوا يلجّون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب. فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة».

[لوقا ٢٣/ ٢٣]

عندئذٍ تراجع بيلاطس:

«فحكم أن تكون طلبتهم. فأطلق لهم الذي طرح في السجن لأجل فتنة وقتل الذي طلبوه وأسلم يسوع لمشيئتهم».

[لوقا ٢٣/ ٢٥]

في الحال بدأ مسلسل العنف والتعذيب. فبما أن بيلاطس قد وعد بإنزال العقوبة بالمسيح قبل إطلاق سراحه، فإن اليهود أصروا على تعذيبه وعلى صلبه، فبعد أن جلدوه:

«عروه وألبسوه رداءً قرمزياً. وضفروا إكليلاً من شوك وضعوه
على رأسه وقصبة في يمينه. وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به
قائلين السلام يا ملك اليهود. وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه
على رأسه. وبعدما استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه».

[متى ٢٧/٢٨ـ٣١]

نعم، لقد عرف عن بيلاطس أنه حاكم مستبد وروماني متعجرف، فظ الأخلاق، قاسي القلب، رديء السلوك، عديم الرأفة، ومع ذلك فإنه بدا من خلال مواقفه أنه كان يميل نحو السماح عن المتهم والرأفة به، ومن ثم إخلاء سبيله لولا أن الحشد عبر عن غضبه وفضّل إطلاق سراح القاتل باراباس. وإذا شئنا أن نتمادى في نظرتنا هذه حول مسألة الخيار بين يسوع وباراباس لأمكننا الافتراض أن بيلاطس قد انحرف عن دوره كحكم ليميل لصالح المسيح، إذ هو دائماً واقف في صفه، مدافع عنه ومشدد على إخلاء سبيله. موقف دقيق ومحرج يريد من ورائه أن ينقذ المسيح عند أقل بادرة موافقة يعبر عنها الجمهور، ولذلك أيضاً اقترح إنزال العقوبة بالمتهم قبل إطلاق سراحه.

وحين نفكر في تلك الوحشية البدائية وتلك الضغينة العمياء وذلك التشفي الحقود التي رافقت هذا التعذيب لا يسعنا إلا أن نلعن الرجل الذي أمر به. لكن الواضح أن بيلاطس حين اقترح هذه العقوبة كان يقصد من ورائها إشفاء غليل اليهود وإشباع تعطشهم للانتقام علّهم يكتفون بهذا القدر ويتنازلون عن إلحاحهم بصلب المتهم البريء. لكن تحريض الكهنة الدائم دفع بالمتزمتين لا بالإلحاح على صلب المسيح وحسب بل على التمادي في تعذيبه والتفنن في الانتقام والتشفي منه.

وحين خرج بيلاطس مرة ثانية من دار الولاية ورأى الحالة التي كان عليها المسيح من إعياء شديد ووهن جسدي كبير، أشفق عليه وكرر محاولته في إثارة عطف الجمهور، فقال مشيراً إلى ذلك الحطام البائس:

«هو ذا الإنسان».

[يوحنا ١٩/ ٥]

وكأنه يريد أن يقول: «إن الرجل الذي قدمتموه لي على أنه ملك اليهود وعلى أنه ثائر خطير ومتمرد كبير، ها هو الآن في حالة من الضعف والوهن أضحى معها كل خطر غير معقول وكل تمرد مستبعد. وبإمكاننا الآن أن نتخيل كم كانت دهشة بيلاطس كبيرة أمام صمود هذا الرجل وسر صمته وروعة صبره وعظمة كبريائه. كان يريد أكثر من أي وقت مضى إطلاق سراحه وتخليصه من براثن هؤلاء الوحوش الغادرة. ولكنّه تقهقر وسلمهم البريء ليسوموه أشد العذاب وينزلونا به أحط أنواع الهوان. في هذا المجال لا بدّ لنا من التساؤل: لماذا هذا التخاذل المشين يصدر عن حاكم اشتهر بالاستبداد والظلم والطغيان؟ هل كان يخاف من اليهود؟ ولماذا؟ لندع الأحداث تأخذ مجراها كما وقعت في ذلك الحين.

إن اليهود من جانبهم أحسوا بما كان يدور في رأس بيلاطس وأدركوا أنهم لو تساهلوا بالأمر لأفلت يسوع من بين أيديهم، وفي هذه الحالة قد يحدث ما لم يكن بالحسبان، وما لا يمكن تفاديه، لذلك لجأوا إلى سلاحهم الأقوى والأشد في تثبيط العزم وهو الابتزاز أو الوشاية. فمن على عتبة الدار تناهت إلى سمع بيلاطس صيحات التهديد تقول:

«إذا أطلقت هذا فلست محباً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر».

[يوحنا ١٩/ ١٢]

عند سماعه هذه الجملة أخذ جسده يرتعد ومقاومته تنهار. رأسه غار بين كتفيه، ريقه جف في حلقه، دمه تجمد في شرايينه، قلبه غاص في صدره وكأنه يهوي للاستقرار بين قدميه.

لا شك أنه لو كان يتحلى بقوة الإيمان ويتمتع بشجاعة الواثق من نفسه لكان فضّل غضب قيصر وعقابه على النزول عند رغبة الحشد اليهودي الذي لم يتورع عن المناداة علناً بتبرئة القاتل باراباس وبتجريم البريء يسوع. ولكن يجب أن لا نغفل أن بيلاطس لم يكن إلا وثنياً يجري وراء المادة ويلهث في إثر أمجاد هذه الفانية، ومع ذلك فإنه لم يفقد الأمل نهائياً بإنقاد

البريء. فبعد أن ظهر على المنصة فارضاً هيبة وباسطاً نفوذه على أولئك المشاغبين، حاول للمرة الأخيرة أن يثنيهم عن عزمهم فقال لهم:

«هوذا ملككم».

[يوحنا ١٩/ ١٤]

فصرخوا مشددين:

«خذه خذه اصلبه».

[يوحنا ١٩/ ١٥]

تعجب بيلاطس:

«أأصلب ملككم؟»

[يوحنا ١٩/ ١٥]

أجابوا على الفور بدهاء:

«ليس لنا ملك إلا قيصر».

[يوحنا ١٩/ ١٥]

عندئذٍ أصابوا الوتر الضعيف في شخصية الحاكم الروماني، فتراجع لأنه رأى أن السير في سبيل إنقاذ المسيح.

«لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغباً. فأخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار».

[متّى ٢٧/ ٢٤]

فصاحت الجموع متحدية:

«دمه علينا وعلى أولادنا».

[متّى ٢٧/ ٢٤]

عند هذا الاعتراف الشهير انتهت فصول المحاكمة بأن:

«أطلق لهم سراح باراباس وأما يسوع فجلده وأسلمه للصلب».

[متّى ٢٧/ ٢٦]

الخلاصة:

في ختام هذا الفصل الأخير من محاكمة المسيح، لا بد من التوقف عند صيحتين انطلقتا من حناجر اليهود لما كان لهما من تأثير كبير في رسم خط مسيرة تاريخ هذا الشعب.

الأولى: «ليس لنا ملك إلا قيصر».

إن هذه الصيحة كانت الدرس البليغ الذي تقيد به اليهود أينما حلّوا وحيثما ذهبوا. فقد تعلموا منها التظاهر بأنهم محبّون، أوفياء، مخلصون للحاكم الذي تضعهم الظروف تحت نفوذه، بينما هم يضمرون له أعنف العداء ويكنون له أشرس أنواع الكراهية والحقد. فمنذ متى كان أولئك اليهود يحبون قيصر حتى يهتفوا بمكر: «لا ملك لنا إلا قيصر»؟ كل المواقف وكل الدلائل تشهد أن ما من لحظة واحدة مرّت وهم على محبة لقيصر، فعلى من هم يدجّلون؟

عن هذه الصرخة الشهيرة التي اتخذها اليهود قدوة، وتستروا في ظلالها نشأ عندهم نوع من السلوك، خاصٌ بهم، وصاروا يُعرفون به، وهو في الحقيقة نوع من التصرف الذكي والمرن من الممكن تسميته: «الأخلاق التجارية»، على نقيض ما هو متعارف عليه من مفاهيم الأخلاق المطلقة. فبينما تقوم هذه الأخيرة على أساس من الفضيلة وحب الخير واحترام الآخرين، فإن الأخلاق اليهودية مزدوجة الوجوه، برّاقة في ظاهرها خدّاعة في باطنها. فضيلتهم فسيفساء من المظاهر المزيفة، حبهم يقاس بمقياس الربح المادي ويدوم ما دامت المصلحة مستمرة، خيرهم شرٌ متنكر في صالونات تصريف الأعمال، واحترامهم ابتزاز دون حدود.

للوهلة الأولى ترى نفسك مأخوذاً بأدب ذلك اليهودي، وحسن معاملته وشياكة تصرفه، وصفاء ابتسامته ونقاوة يده، وتظل أنت «قيصره» و«لا قيصر له إلا أنت» إلى أن ينضب ريعك وتذبل أزهارك وتجدب حقولك، عندئذ يعرض عنك بدبلوماسية ويدير لك ظهره بحنكة، فهو لا يقطع الحبل مرة واحدة، فيترك الوقت يأخذ مجراه ويحسب للظروف ألف

حساب. ولكن الويل، لك إذا تعارضت مصالحك مع مصالحه، عندئذ وبدون مقدمة ترى نفسك قد صرت «ابن الجليل» بالنسبة له، ولن تفوته الحيلة لجمع حشد من أبناء عرقه كي يصلبوك في أكبر مصرف إن كنت تاجراً أو على صفحة أشهر جريدة إن كنت كاتباً أو من وراء أقوى مذياع إن كنت سياسياً أو على لوائح أضخم انتخابات إن كنت قيصراً. ومن يريد أن يتحقق، فلينظر ماذا فعلوا بهتلر وحزبه الاشتراكي ابتداءً من عام ١٩٣٥ وبديغول واستفتائه في عام ١٩٦٨ وبنيكسون وفضيحة ووترغيت. . .، إلى كورت فالدهايم وانتخابات ١٩٨٦. فكم من قياصرة خان اليهود عهدهم، وكم من أباطرة خذلوهم. يهوه نفسه أخلوا بعهدهم معه مراراً وتكراراً، فلماذا لا يخلونه مع القياصرة أيضاً؟

أما الصيحة الثانية التي نحن بصددها فهي: «دمه علينا وعلى أولادنا». يا له من اعتراف خطير ومن مسؤولية ثقيلة برهنت الأيام وأثبتت الأحداث أبعاد خطرها وفداحة مسؤوليتها. هي وقبل كل شيء تظهر كم اليهود هم على استعداد لاستعمال أية وسيلة في سبيل الوصول إلى الغاية. غايتهم كانت التخلص من المسيح عن طريق دفع بيلاطس إلى صلبه، ولما طرقوا كل الأبواب الممكنة والحاكم الروماني يتردد ويماطل أعلنوا صيحتهم المشهورة هذه التي سببت لهم فيما بعد العديد من المآسي والكوارث. ومع ذلك فقد نجح كهنتهم في توظيف نتائج هذه المآسي واستغلال فظاعة تلك الكوارث في سبيل الوصول إلى غايتين رهيبتين لا تقل الواحدة منهما أهمية عن الأخرى:

الغاية الأولى هي غاية متجددة دائماً طالما أقضت مضاجع حاخامات، فحواها التوصل إلى تحقيق المحافظة على وحدة الشعب المختار ونقاوة عرقه وأصالة دينه في حين الإغراءات حوله كثيرة ومحاولات الخروج عن الأصول عديدة ورغبة الانخراط في مجتمعات باقي الشعوب دائماً في ازدياد. وقد نجح المتزمتون في توقيت انفجار المآسي مع ذروة انقلاب الشعب المختار وقمة تراخيه كي تظهر وكأنها عقاب أراده يهوه وهو في أوج غضبه من شعبه «الصعب المراس». عندئذ تهرع النعاج الضالة إلى الحظيرة

وتتحقق الوحدة التي كانت مهددة بالتشرذم. واعتقد أن الصفحات السابقة من هذا الكتاب قد ذكرت باسهاب هذه الناحية من الفولكلور المأسوي ومن المد والجزر الصهيوني.

الغاية الثانية تمخضت عن الأولى. فمع الوقت ومع الأحداث والأزمات والحروب، ومع تباين المصالح وتناقض المفاهيم لا سيما بين الشعوب المضيفة من ناحية والتجمعات اليهودية الطارئة من ناحية أخرى برزت إلى الوجود صفة نشأت عن الصيحة نفسها «دمه علينا وعلى أولادنا» والتصقت باليهود التصاقاً وثيقاً، إذ إنهم أينما حلوا وأنى ذهبوا صاروا يعرفون بـ «قتلة ابن الله». ولا شك في أن بعض الأنظمة والعديد من المجتمعات وكثير من الأفراد بالغوا في ركوب أمواج هذه التهمة كي يتوصلوا إلى تحطيم منافس أو التخلص من ند، أو الإجهاز على غريم، ومما لا شك فيه أيضاً أن تيارات قائمة على الجهل الديني أو على التجاهل المصلحي لعبت دوراً كبيراً في تعميم هذه التهمة والمتاجرة بها حتى نشأ عند بعض اليهود عقدة نفسية عميقة هي عقدة الشعور بالذنب. ذلك الذنب الرهيب بإقدام أجدادهم على قتل ابن الله.

تنبه الصهاينة لهذا الوضع الخطير، فدرسوا وبحثوا وخططوا وتآمروا إلى أن نجحوا في توظيف نتائج هذه التهمة وما ترتب عنها من مآسٍ وكوارث واضطهاد وتنكيل، لصالح الغاية التي ينشدون. وبما أن ناموسهم يقول العين بالعين والسن بالسن، فإنهم عن طريق عقدة زرعت في نفوسهم غرسوا عقدة جديدة في نفوس مناوئيهم: عقدة ذنب بعقدة ذنب مماثلة. وكانت اللاسامية وما هي اللاسامية إلا ردٌ صهيوني ماكر على العقدة التي لازمتهم. وكأنهم يقولون للأوروبيين: تتهموننا بأننا قتلة ابن الله ونحن نتهمكم بأنكم قتلة شعب الله المختار. وتأصلت عقدة الذنب في نفوس الأوروبيين إلى أن صار أحدهم يحترس ويخشى التكلم عن اليهود خيراً أو شراً خوفاً من اتهامه باللاسامية. يمكنك أن تتحدث مع الأوروبي عن حرب فيتنام. وعن ثورات شعوب أميركا الجنوبية وعن انتفاضات قبائل أفريقيا الوسطى وعن عنصرية نظام أفريقيا الجنوبية السابق فتجده منطقياً وموضوعياً ومن الممكن أن تتفق

معه ولو على حدٍ أدنى من الآراء أو وجهات النظر إلى أن تتطرق إلى قضية فلسطين... عندئذ تنقلب المقاييس بينك وبينه وتختلف الموازين ويصبح من المستحيل العثور على مليمتر واحد من الأرضية المشتركة للانطلاق منها نحو جدال مفيد ومثمر. وعندما تلح عليه وتسهب في وصف ما حدث في فلسطين وما يحدث في المنطقة فيجيبك، ماركسياً كان أم محافظاً: لقد عانى الشعب اليهودي كثيراً ومن حقه أن يعود إلى أرضه الموعودة. يقولها وكأنها خارجة من أعماق نفسٍ مشحونة بجحيم من عذاب الضمير وغارقة في بحر من مرارة الندم.

وبفضل عقدة الذنبين، ذنب قتل ابن الله وذنب قتل شعبه المختار تسللت الصهيونية العالمية إلى ألسنة الغربيين فأخرستها، وإلى عقولهم فشلّتها، وإلى ضمائرهم فخنقتها، وإذ هم كبيلاطس، دمية بين يديها، توارت خلفه لتصل إلى غايتها. غايتها هذه المرة كانت صلب شعب فلسطين والشعوب العربية بأسرها بيد الغرب وفي منتصف القرن العشرين.

والآن لنعد إلى محاكمة المسيح للنظر في بعض الاجتهادات التي نشأت عنها ودرس بعض النظريات التي دارت حولها.

١ ـ بعد دراسة المحاكمة من جميع جوانبها وبعد الاطلاع على أحداثها وأسبابها ودوافعها يحلو للكثيرين القول: إن الفداء هو سر من أسرار النجاة حسب العقيدة المسيحية. فقبل المسيح كان البشر يعيشون تحت وطأة حكم بالهلاك الأبدي من جراء خطيئة آدم والخطايا الفردية الأخرى. كان من المستحيل على البشر بلوغ مرحلة الغفران الإلهي لأن أعمال التكفير ومشاعر الندم ونوايا الاستغفار مهما كانت صادقة وكبيرة ومهما كانت عميقة وكبيرة فإنها لن تتوصل إلى التعادل مع فداحة الخطيئة اللامحدودة التي ارتكبها الإنسان. كان من المفروض إذن أن يكون التكفير باهظاً على مستوى حجم الخطيئة كي يتحقق الغفران. وهكذا حلت كلمة الله في الجسد، فكان يسوع المسيح ابن الله الذي تحمل وحده كل العناء الناتج عن الخطيئة ورضي أن يشتري خلاص البشر مقابل دمه الذي هدره فوق الصليب. إذن إن إرادة الله

كانت أن يفدي البشرية بدماء ابنه، فكان صلب المسيح. فاليهود بتعليقهم المسيح على الصليب كانوا ينفذون إرادة الله وينصاعون لمشيئته. هو أراد وهم حققوا. هو شاء وهم فعلوا. هو أمر وهم أطاعوا. هو قرر وهم نفذوا. فأين ذنبهم في كل هذا وأين مسؤوليتهم؟ إن المسيح أتى ليُصلب، هكذا كانت مشيئة الله وهكذا كانت إرادته. فلمَ التحامل على اليهود ولمَ وصمهم بأنهم قتلة ابن الله، ولمَ كل هذه الدعاية ضدهم وهم في الحقيقة أبرياء استسلموا لمشيئة الله وتركوه يسيّرهم على هواه ليحقق إرادته من خلالهم؟ كلام معقول.

ولكن التفكير والمقارنة تكشف بعض خفايا هذا التمويه. عندما وقعت الخطيئة الكبرى وعصى آدم ربه، مَن الذي طغاه ومن الذي شجعه على العصيان؟ الحمل؟ النعجة؟ الغزال؟ الخ. لا، إنها الحية. ولماذا الحية؟ لأن القدرة عندما تشاء أن تنفذ إرادتها فإنها تنفذها عن حس منسجم مع الواقع ونابع من المعقول. فالحية، على عكس الحيوانات كافةً، لها ملمس ناعم مع أنياب حادة، لها مظهر براق مع نوايا شريرة، لها لسان بريء مع لعاب سمه قاتل. تتحلى بالدهاء والمكر وتعيش على الخيانة والغدر. فمن أجدر منها القيام بهذا الدور الشرير الذي فصل على مواهبها المؤذية تفصيلاً.

وكذلك بالنسبة لصلب المسيح. فإن القدرة الإلهية لن تعهد إلى ملاك مهمة القيام بهذا الدور الخبيث، ولا إلى شعب لا تتوفر فيه كل الصفات اللازمة لتنفيذ هذه المشيئة القاسية. وما هي هذه الصفات؟ إنها في كل صفحة من صفحات العهد القديم وعلى لسان كل نبي من أنبياء بني إسرائيل. ها هو حزقيال يقول لهم على لسان الرب:

«إنني أفعل بك ما لم أفعل ولن أفعل مثله بسبب كل أرجاسك.
لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك والأبناء يأكلون آباءهم».

[حزقيال ٥/ ٩]

أما هوشع فيقول لهم:

«قد حرثتم النفاق وحصدتم الإثم أكلتم ثمر الكذب».

[هوشع ١٠/ ١٣]

وعاموس يعدد ذنوبهم قائلاً:

«إن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة أيها المضايقون البار الآخذون الرشوة الصادون البائسين في الباب. لذلك يصمت العاقل في ذلك الزمان لأنه زمان رديء».

[عاموس ٥/ ١٢]

أما ميخا فيحذرهم:

«إسمعوا هذا يا رؤساء يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم: الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلّمون بالإجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب في وسطنا لا يأتي علينا شر. لذلك بسببكم تُفلَح صهيون كحقل وتصير أورشليم خراباً وجبل البيت شوارع وعرٍ».

[ميخا ٣/ ٩]

أشعيا يقول عنهم أنهم:

«يبررون الشرير من أجل الرشوة وأما حق الصديقين فينزعونه منهم».

[أشعيا ٥/ ٢٢]

فمن أجل ذلك:

«حمي غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل في الأزقة».

[أشعيا ٥/ ٢٥]

وكان الرب من قبل، قد سئم من خداعهم ومكرهم، وها هو يسترسل في كرهه لهم فيقول:

«رؤوس شهودكم وأعيادكم بغضتها نفسي. صارت علي ثقلاً. مللت حملها. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرتم الصلوات لا أسمع. أيديكم ملآنة دماء اغتسلوا تنقّوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم. اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة».

[اشعيا ١/ ١٤-١٧]

هل هناك أبلغ وأصدق من هذا التعريف على صفات هذا الشعب؟ إن كل أحداث التاريخ التي مرّ بها، والشهادات كافةً التي أصدرها بحقه معظم الأنبياء، تُظهر إلى أي مدىً كان هذا الشعب مُهيئاً للقيام بهذا الدور المهين.

٢ ـ وجهات نظر أخرى تقول إن اليهود في عهد المسيح كانوا مغلوبين على أمرهم يرزحون تحت عبء الاحتلال الروماني الظالم. وإن صلب المسيح ما كان ليحدث لو أن السلطة الرومانية شاءت عكس ذلك، إذ لو ترك الأمر بين أيدي اليهود ليتصرفوا حسب ناموسهم لأكتفوا بجلد المسيح أو رجمه، ولما كان هناك صالب ومصلوب وصليب. إلا أن السلطة الرومانية أرادت أن تثبت وجودها، ففرضت العقوبة الرائجة في محاكمها، فكان الصلب. فأين مسؤولية اليهود في هذا الحكم الروماني الصرف؟

إن الأناجيل تتوقف طويلاً عند وصف مثول المسيح أمام المجلس اليهودي لا لتشير بأصابع الاتهام إلى من كان له الدور الأكبر في هذه الجريمة، بل لتشدد على إظهار فصول المؤامرة القضائية التي حاك خيوطها بمهارة فائقة الفريسيون بالاشتراك مع كبار رجال الكهنوت.

أما في القسم الثاني من المحاكمة والذي جرى أمام السلطة الرومانية الممثلة بالحاكم بيلاطس، فإن الأحداث، كما روتها الأناجيل، تظهر بوضوح أن الجماهير اليهودية وحدها هي التي أصدرت الحكم على يسوع فيما اقتصر دور بيلاطس على ترديد صدى صوت الهائجين، وإذ به في نهاية المطاف يجد نفسه مضطراً لأن يسلم يسوع إلى جلاديه، نزولاً عند إلحاحهم من ناحية، وخوفاً من الوشاية به عند قيصر من ناحية أخرى.

إن محاكمة المسيح هي بالفعل محاكمة يهودية محضة، والحكم الذي صدر هو حكم يهودي بحت، والأيادي التي نفذت هي أيادٍ يهودية صحيحة. وكل ما يقال عكس ذلك هو هراء ومكابرة.

٣ ـ البعض يقول إن اليهود الذين صلبوا المسيح هم يهود ذلك العصر الغابر، ويفصلنا عنهم عشرون قرناً. ومع أنهم حين انتزعوا من بيلاطس

الحكم بالإعدام على يسوع صاحوا محددين المسؤولية: «دمه علينا وعلى أولادنا»، فليس من المعقول أن نحاسب يهود اليوم على جريمة اقترفها أجدادهم البعيدون جداً الذين يفصلهم عنهم ست وستون جيلاً ونيف. إنه لمن الظلم الفادح معاقبة يهود اليوم على جريمة الصلب تلك وقد تغيرت الأيام وتبدلت المعادلات وجرت حروب كثيرة وشُردت شعوب عديدة، ووقعت زلازل وهطلت أمطار وفاضت أنهار وتدفقت سيول كفيلة بأن تمحي آثار ما حدث في تلك الدهور الغابرة وتلجم بعض الألسن عن ترديد ما عفا عنه الزمان واهترأ وفني وتلاشى كما فنيت وتلاشت واضمحلت عظام قيافا وحنان المسؤولين الرئيسيين عما حدث في سالف العصور في غفلة من الزمان.

بالطبع ليس الأشخاص هم المسؤولون عن تلك الجريمة. فلا حنّان أصدر حكماً لأنه حنان بالذات، ولا قيافا مسؤول عن تنفيذ الحكم بصفته قيافا رئيس الكهنة فقط لا غير. إن المسؤول الأول والأخير هو عقلية تحجرت ومفاهيم تجمدت وسلوك توقف عن التطور. والسؤال الآن هل تغيرت هذه المعطيات كي تتغير معها النظرات وتتبدل الآراء؟ أي إذا عاد المسيح الآن وكان باستطاعة اليهود أن يصلبوه، فهل يتورعون أو يحجمون عن إعادة المأساة؟ إن الجواب يأتينا منهم أنفسهم. ففي الساعة الثانية من بعد ظهر الخامس والعشرين من نيسان من عام (١٩٣٣) اجتمع في إحدى بنايات مدينة القدس أعضاء محكمة خاصة، بحضور جمع غير، وذلك للنظر من جديد في أمر محاكمة يسوع. وبعد مداولة دامت طويلاً صدر عن المجلس اليهودي الحديث قرارٌ، بأغلبية أربعة أصوات ضد صوت واحد، يوافق على مبدأ إعادة النظر في محاكمة يسوع. وبعد الدراسة والتمحيص والمناقشة والتدقيق أعلنت المحكمة الالتماس التالي: إن براءة المتهم هي أمر مفروغ منه لا يساوره أدنى شك ولا يرقى إليه أي ريب. أما الحكم الذي صدر بحقه فقد كان أعنف حكم جائر عرفه تاريخ البشرية، وهو يمثل أشد خطأ فادح ارتكبه إنسان على هذه الأرض. إن المجلس يلتمس من الأمة

العبرية أن تنظر إلى الأمور نظرة جديدة وسوف ينالها الشرف الكبير بسعيها الحثيث لإصلاح هذا الخطأ.

لن نتوقف كثيراً عند هذا التعبير الأخير المعني «بإصلاح هذا الخطأ»، فلا الظروف لإتمامه صالحة ولا الطاقات متوفرة ولا الإمكانيات قادرة، ولا ندري كيف وأين ومتى سوف يتم ذلك، ولكن يحق لنا التساؤل حول الجديد في هذه المحاكمة الحديثة: أين هو؟

أهو المكر الواضح في توقيت الحدث ١٩٣٣؟ مكر لأنه يذر الرماد في بعض العيون ويدخل الشك في بعض العقول تمهيداً لعودة الصهيونية إلى أرض فلسطين، لا سيما وأن نشاط «عشاق صهيون» كان في ذروته في ذلك العام.

أم هي الخديعة المتسترة وراء البراءة التي أغدقها المجلس على يسوع دون حساب؟ خديعة لأنها تتكلم عن براءة كانت منذ البداية، ساطعة كنور الشمس في وضح النهار. براءة أحس بها حنّان لكنه أغفلها؛ براءة شعر بها قيافا لكنه طمسها؛ براءة لمسها بيلاطس لكنه لم يؤت الشجاعة الكافية للدفاع عنها؛ براءة خنقها الحشد المتزمت برعايته وحقده.

أم هي فعلاً دموع الندم يذرفها أعضاء المجلس العتيد بعد الاعتراف بالجور الذي لحق بيسوع من جراء الحكم «الجائر» الذي صدر بحقه؟ أم هي دموع التماسيح تنضح في عيونٍ «رأت الخطأ الفادح» فتباكت عليه من دون أن تعترف بالحقيقة؟ ولو كان المجلس المذكور يريد فعلاً، عن نيّة صادقة وعن غاية سليمة وعن دافع نبيل، إعادة النظر في محاكمة المسيح لا الاعتراف بما حدث من خطأ وظلم، بل الاعتراف بالمسيح نفسه كداعية خير وسلام وكرسول محبة وإيمان، والسعي أيضاً لرد الاعتبار له من وجهة النظر اليهودية، عندئذٍ فقط نعترف بصدق النوايا وسلامة الغايات، لأن في هذه الحال كل شيء سوف يبدو واضحاً ساطعاً برّاقاً، لسبب بسيط جداً يتلخص بما يلي: في حينِ يعترف اليهود حقاً ببراءة يسوع فإنهم يعترفون أيضاً بصدقه، ومن يصدق المسيح يؤمن به، ومن يؤمن بالمسيح يصبح مسيحياً أو

على الأقل يتنازل عن غطرسته السامية وكبريائه العرقيّة وإدعاءاته غير المعقولة. فهل حدث هذا فعلاً؟ لا لم يحدث إذن كل ما أقدم عليه اليهود في هذا المجال ما هو إلا تدجيل ومناورة وخديعة اكتسبوا منها ما يلي:

١ ـ لقد نجح اليهود، في الغرب خصوصاً، بأن أدخلوا في روع بعض المسيحيين إنشاء دولة إسرائيل هو المؤشر الحقيقي لعودة المسيح كما بشرت به الكتب. فما كان من بعض هؤلاء المغرر بهم إلا أن بذلوا الجهود الكبيرة في سبيل تسهيل عودة اليهود إلى أرض الميعاد أولاً، ومن ثمّ مؤازرتهم والدفاع عنهم وتأييد وجهات نظرهم. إن واقع فلسطين كدولة وخصوصيتها بالنسبة لليهود كأرض موعودة، اختلطت في ذهنية بعض مسيحيي الغرب وخصوصاً في القرون الثلاثة الأخيرة حتى أن الادعاء القائل بأنها أرض يهودية أصبح حقيقة لا تقبل الجدل. وبما أن عودة المسيح، خصوصاً عند الذين يؤمنون بحرفية العهد القديم، مرهونة بعودة اليهود إلى فلسطين، فمن البديهي إذن أن يبذل هؤلاء المسيحيون كل ما في استطاعتهم لتسهيل عودة هؤلاء إلى الشرق للإسراع بعودة المسيح. وهذا الأمر كان شغل بعض المسيحيين الشاغل منذ القرن السابع عشر تقريباً. وكانت إعادة محاكمة المسيح كما ذكرنا سابقاً هي ذروة هذا التعاون وقمة ذلك التعاضد كمقدمة لعودة يسوع. المهم أنه في حين يتكلم المسيحيون عن عودة المسيح، فإن اليهود ينتظرون مجيء المسيح. وبين العودة والمجي فرق شاسع. الأولى ـ أي العودة ـ تؤمن أن المسيح قد جاء ونشر رسالته وسوف يعود فيما بعد أي في آخر الأزمان. أما الثاني ـ أي المجيء ـ فإنه يفترض أن المسيح لم يأتِ بعد أبداً، وأن مجيئه أضحى وشيكاً أي عندما يتحقق الشرط الثاني وهو إعادة بناء الهيكل، لأن الشرط الأول، إعادة إنشاء مملكة سليمان، قد حدث فعلاً. إنهم ينتظرون مسيحهم لا مسيح الآخرين، ذلك المسيح الذي كان مفروضاً حسب اعتقادهم أن يأتي سابقاً ولكن تقمص دوره ذلك «المدعي فنال جزاءه على الصليب».

٢ ـ انطلاقاً من ناموسهم الذي يقول العين بالعين والسن بالسن وبفضل مكائدهم ودسائسهم تمكنوا، كما أشرنا سابقاً، من تجيير عقدة

الذنب التي لحقت بهم كقتلة ابن الله، إلى «جرائم» الغربيين كقتلة شعب الله المختار. إنهم الآن في سبيل تطبيق نظرية جديدة وضعوا أسسها ورسموا خطوطها منذ زمن وهي: كما يعتقد المسيحيون أنه في إثر قتل ابن الله وقعت اللعنة على من قتلوه وحل بهم الدمار والخراب والسبي والتشريد، فإن من يقتل ويضطهد وينكل بشعب الله المختار سيلقى المصير نفسه وينال العقاب نفسه. ومن هذا المنطلق يفسرون أحداث التاريخ ويتوقفون طويلاً عند اندلاع الحروب العالمية الأولى والثانية ومن ثم يشرحون كيف أن العالم بأسره يطارد النازيين لأنهم نكلوا بشعب الله المختار وكيف أن العالم يطارد ويعاقب الفلسطينيين «الارهابيين» لأنهم يهددون بني اسرائيل، ويتربص بالعرب لأنهم يناصبونهم العداء.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن استمرار تقيد اليهود بتعاليم التوراة حسب المفهوم المتزمت أي مع التشديد على التخلص من كل تأثير خارجي، جعل تفكير اليهودي، في جوهره، تفكيراً جاحداً حافظ على وتيرته العنصرية بالرغم من مرور الزمن ومن تغيير المعادلات. لذلك، فما من شيء يمنعنا من الاعتقاد بأن المسيح لو عاد إلى القدس في القرن العشرين، فلن يقابله يهود هذه المدينة مقابلة أفضل من التي قابل بها أجدادهم عيسى بن مريم، أي أنهم، إذا توفرت لديهم الإمكانات، لن يتورعوا عن صلبه بكل عنجهية وسابق إنذار. ولكن هل هذا ممكن؟

إن طريقتهم بصلب الشعب الفلسطيني في وضح النهار وأمام المجتمع الدولي تؤكد أن سلوك اليهود لم يتبدل وسلطتهم على أحفاد الرومان لم يطرأ عليها تغيير كبير. إن قافيا قد مات ولكن كل يهودي قادر على تقمص شخصيته إذا دعت الضرورة، وكل رئيس في الغرب مرشح ليقوم بدور بيلاطس بنجاح؛ الأحداث التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط منذ أوائل هذا القرن تؤكد أن «بيلاطسات» الغرب كثيرون و«هيرودوساتهم» أكثر.

الفصل الحادي عشر

الصهيونية ضد الإسلام

لقد رأينا في فصول سابقة كيف أن النبي ربط الدعوة الإسلامية بجذور ابراهيمية جاعلاً من النبي ابراهيم أول مسلم على وجه الأرض. فبنظر الإسلام:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ ا

[آل عمران ٣/ ٦٧]

إن النبي بعودته هذه بالإيمان إلى عهد إبراهيم قد وضع حداً لسلسلة المنافسات وحدد معالم مجتمع المؤمنين. ففي هذه العودة إلى الأصول تمكن الإسلام من بلوغ ذروة النجاح بعد أن عبّر بأمانة ودقة عن الإرادة الإلهية التامة والشاملة.

وبما أن عهد ابراهيم يرتقي إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأن الدعوة الإسلامية ظهرت في القرن السادس بعد الميلاد، فمن السهل تحديد وتقدير القفزة التي قام بها النبي عبر التاريخ والتي شملت نحو أربعة وعشرين قرناً أختصرها ليربط دعوته بالأصول الإبراهيمية مكتفياً فقط بالاستشهاد بما

جاءت به العبودية والمسيحية من تعاليم لا تتعارض ومبدأيه الأساسيين: وحدانية الله المطلقة أولاً، والمساواة التامة بين جميع البشر ثانياً.

إن النجاح الباهر الذي حققه الإسلام في انطلاقته الرائعة كان بمثابة ضربة قاسية لاتباع الديانات السابقة، فإذا كان البعض قد حقق رده الثأري من خلال الحملات الصليبية أولاً والهجمات الاستعمارية ثانياً، فإن اليهود انتظروا حتى انتصف القرن العشرين ليحققوا قفزتهم الانتقامية ويسترجعوا «أرضهم الموعودة» التي طردوا منها نهائياً منذ القرن الرابع قبل الميلاد. انتظر اليهود أربعةً وعشرين قرناً، قبل أن «يبعثوا الحياة في دولتهم البائدة ويجمعوا صفوفهم بعد تشتتٍ دام ألفي سنة». ويضيف اينشتاين قائلاً: «إن في هذا لأكبر معجزة من معجزات التاريخ».

التاريخ

من المتعارف عليه أن التاريخ يخضع لديالكتيكية عزيزة على قلوب بعض المؤرخين، ولكن يحدث في بعض الأحيان أن يبدو التاريخ غارقاً في السخافة ويظهر مغاليا في التناقض مما يوحي بتعذر دراسته وباستحالة اخضاعه لأي ديالكتيكية. فهذه «السخافة» حيرت فطاحل عقول «شعب الله المختار» عندما أدركوا أن من صلب «ابن العاهرة» انبثق النور الذي أضاء جنبات المعمورة. أمّا ذلك «التناقض» فقد أغشى على بصائر «بني اسرائيل» من الذهول الذي انتابهم حين شاهدوا دعوة «حفيد الجارية» تنتشر بنجاح في مشارق الأرض ومغاربها. فالتاريخ، بالنسبة لهم، قد أُغتصب وزوّر، ما بين «ابن العاهرة»، و«حفيد الجارية». فلا بد إذن من العمل بدأبٍ وصبر وطول أناة، ومهما كان الثمن ومهما بلغت التكاليف لتصحيحه وتطهيره وإعادته إلى مسيرته الحقيقية والصائبة. وبما أنهم لم يكونوا يفسرون الفشل ولا يقبلون به إلا كنتيجة لإعراض الإله عنهم وتخليه عن رعايتهم بسبب ذنب ما اقترفوه، فإنهم كانوا، وهم مشتتون في الأرض، ينصرفون إلى تجربة كل سبل التوبة وإلى تطبيق مستلزمات الغفران كافةً كي يتوصلوا إلى الفوز برضى الرب. إن أولى تباشير هذه المصالحة بين يهوه وبين شعبه المختار بدت واضحة في

نجاحهم الباهر بالعودة إلى «الأرض الموعودة» وهي دليل قاطع على قوة إيمانهم وعلى «أبدية» العهد الذي أبرموه مع الرب. ويجب أن لا ننسى ما ذكره بن غوريون أمام الكنيست في عام ١٩٥٧ من أن عودة الشعب اليهودي إلى أرض أجداده وآبائه هي بداية تحقيق نبوءة مجيء المسيح الحقيقي المنتظر.

فإذا كان العرب هم وحدهم الذين «ينتحبون» الآن ويتذمرون من «سخافة التاريخ وتناقضاته»، فإن من المهم التذكير أن عودة مقولة «شعب الله المختار» إلى البروز في سياق الأحداث هي تهديد ليس للقرآن فحسب بل للإنجيل بصفة خاصة، ولن تتورع، إذا ساعدتها الظروف، عن الإقدام على إخساف الهلال أولاً وعلى صلب الصليب فيما بعد.

أمام حالات كهذه من «رجوع التاريخ»، فإن كل دولة، لكونها خلاصة ماضيها، لا تتصرف حسب مقتضيات المنطق الراهن، بل تنساق على الرغم منها في إثر إحساس غريزي نابع من صدى أحداث غابرة طغى عليها النسيان أو أخرسها الإهمال. ففي مثل هذه الظروف الغريبة يصمت التاريخ الحقيقي ويتصدر الصدى مكان الأحداث.

فتحت تأثير ترجيع ملحاح لصدى تاريخ بائد اتفق العبرانيون واليونان والرومان والفينيقيون والفلسطينيون «على اللقاء أمام الشواطىء الفينيقية في ٢٠ و٢١ كانون الأول من عام ١٩٨٣، تراقبهم بحذر عيون الفرس والأشوريين البابليين والمصريين. موعد غريب ولقاء أغرب اجتمع فيه كل الفاتحين الذين غزوا هذه المنطقة، أو أحفادهم، أمام الشواطىء اللبنانية. ففي مطلع شهر كانون أول ١٩٨٣ سمحت جمعية هيئة الأمم المتحدة لخمس سفن يونانية أن ترفع علمها لاجلاء أربعة آلاف مقاتل فلسطيني عن بيروت. فرنسا تعهدت بتغطية العملية عسكرياً. زوارق البحر الإسرائيلية راقبت سير العملية... الخ. الاستعراض كان ضخماً واللقاء كان حاراً ولكن، أين كان العرب؟

فعلاً، العرب وحدهم تخلفوا عن هذا الموعد وكانوا الغائبين

الوحيدين في هذا اللقاء. فتمشياً مع مقتضيات «ديالكتيكية صعبة التفسير» انحسر نفوذهم، فتضاءلوا وانكمشوا ثم انسحبوا إلى نقطة انطلاقهم الأصلية، وصار كل ثقلهم السياسي والاقتصادي متمركزاً في قلب الجزيرة العربية. وإذا كان المنطق يلتزم بالصمت أمام حالة كهذه ويعجز عن التفسير والتأويل والتبرير، فإن ترجيعات الصدى تحمل في طياتها أشياء كثيرة ومهمة، لا بأس من الاطلاع عليها.

إن مسيرة التاريخ وُضعت في الشرق الأوسط على محك التجارب منذ عام ١٩٤٨ وأُخضعت أحداثها «للديالكتيكية عكسية». أراد العبرانيون أن «يصححوا التاريخ» فعادوا به إلى الوراء متعمدين حذف أربعة وعشرين قرناً من مسيرته في هذه المنطقة. إن هذا الاستيلاء الجديد على أرض كنعان على أيدي اليهود الاشكيناز هذه المرة إذ أن السفرديم كانوا قد دخلوها سابقاً وعلى رأسهم يشوع، قد أيقظ الشعور الفينيقي عند بعض اللبنانيين، وبعث الروح في مومياء بعض الفراعنة، وفتح جرار الموتى في ما بين النهرين عند الأشوريين والأكاديين والآراميين... الخ، وبما أن الفرس قرروا الانبعاث أيضاً، فقد هرعوا يلتحقون بكرنفال «أشباح الغزاة العائدة»، قائلين للرومان ولليونان وللبيزنطيين: «ها نحن هنا، لنا دور، دور كبير، سوف نبعث الروح فيه».

ها هو فرعون مصر تحل به «المصائب العشر» فيضطر إلى مهادنة بني اسرائيل...، حيرام، ملك صور، يبتسم لهم من بعيد ويعدهم «بخشب الأرز» لإعادة بناء الهيكل...، قيصر (كل الغرب) لا يريد، بل لا يستطيع الاعتراض... مصالح كثيرة ومتشعبة، ومسيحه ما زال على الصليب هذا ليس حلماً أو كابوساً بل حقيقة واقعة أحداثها ملموسة ووقائعها معروفة من الجميع. إن «منطقاً» كهذا يفرض في غمرة عودة الفراعنة والعبرانيين والفينيقيين والأشوريين والرومان واليونانيين... الخ أن يكون العرب غائبين عن مسرح الأحداث لأن كل هذه الوقائع قد جرت عندما كانوا قبائل تتناحر في ظلمات الجاهلية للسيطرة على «بئر» ماء ضائع بين متاهات من الكثبان.

فقبل أن يتوصل العرب إلى تثبيت أقدامهم، وفرض وجودهم، على مسرح الأحداث، عليهم أولاً الخروج من ظلمات جاهليتهم الثانية، كما خرجوا من الأولى في أواسط القرن السابع. ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالحفاظ على التوازن الدقيق بين العروبة والإسلام أي بين العرق والدين ومن ثم النظر في أمر الدين على أنه علم وثقافة، حرية وعدل، إيمان وعمل، وحدة ومحبة، كرامة وشرف، سلوك ومعاملة، أخلاق وتربية. المسألة ليست سهلة، فعلى ضوء المعادلة الجديدة يتقرر مستقبل المنطقة ضمن أحد حلّين لا ثالث لهما: فإما أن تبقى المنطقة تعيش عهدها العربي الذي لم تزعزعه جحافل المغول والتتر ولم تنل من انطلاقتة حملات الصليبيين الهدامة، وإما سنشهد تلاشيه أمام مد النفوذ الإسرائيلي، فتدخل المنطقة عهد «بني إسرائيل» على حساب الإسلام والمسيحية.

إن غزو المنطقة بالعائدين من أعماق التاريخ تمّ أولاً بهجوم عنيف ومركز على عروبة المناطق الحساسة والفاعلة في العالم العربي. فليس من سبيل الصدفة أن تكون مصر أول قطر عربي يخرج من معادلة المنطقة. فالدور الذي تلعبه مصر الآن في سياسية المنطقة وتقرير مصيرها لا يتناسب مع دورها التاريخي وحجمها الحضاري وموقعها الإستراتيجي. فالقاهرة كانت لبضع سنوات خلت، كعبة المناضلين ومشعل الثائرين وبندقية المقاتلين ومركز التدبير والتخطيط ولسان العرب ومئذنة المسلمين.

إن تحييد أكبر بلد عربي من حيث التعداد البشري والطاقة العسكرية قد مهد السبيل أمام المخالب الإسرائيلية لتمتد إلى عنق لبنان. فليس من سبيل الصدفة أيضاً أن يقع لبنان، أول بلد عربي من حيث النشاط الثقافي والثقل المالي، والتنظيم الحديث، فريسة التمزق والتدمير، والفوضى والاقتتال، وكأن المخطط المرسوم لتفتيت المنطقة وتهجير عروبتها بدأ أولاً بتحييد مصر وبتدمير لبنان والكويت والعراق والجزائر والسودان، وما تبقى من العالم العربي ينتظر مصيره.

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو التالي:

إذا تمّ تنفيذ المخطط ووُضعت عروبة المنطقة موضع الشك، فما هو العنصر الفكري الذي سوف يملأ الفراغ ليربط بين شعوب هذه المنطقة التي اعتادت أن تتوحد ضمن إطار عرقي، أو ديني أو لغوي أو اقتصادي أو تاريخي أو ثقافي؟

من البديهي أنه في غياب الرابط العرقي أو في وضعه موضع الشك، يبرز التعاطف الديني إلى واجهة الوقائع ويحتل مكان الصدارة في تفاعلات الأحداث عند هذه الشعوب التي كانت دائماً تعشق العبادة وتهوى الورع، وتعيش في التقوى وتذوب في الإيمان. فالإسلام، إذا ما تخلص من الشوائب الخطيرة التي لحقت به، فلا بُد من أن يتفجر في صدور المؤمنين ثورة على الغاصبين وانتفاضة الثأر على المعتدين، كما كان الحال عند ظهوره في القرن السابع.

ليس التاريخ صدى أو ميثولوجيا وحسب، بل أنه منطق قبل كل شيء. منطق قد يتعرض أحياناً لبعض التناقضات، لكنه يبقى السبيل الوحيد الذي يقود مباشرة إلى الحل القاطع والحاسم لتسوية بعض النزاعات التي تبدو مرحلياً وظاهرياً وكأن لا حل لها.

ولكننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن أي حل. فلا العرب توحدوا ولا المسلمون استيقظوا. الصهاينة وحدهم يقررون ما يشاؤون. وهم يضمرون، كل الشر للعرب وللمسلمين والمسيحيين. فنبي الإسلام قد حطم دائرة الأنبياء الخاصة بهم، وقلب الإسلام رأساً على عقب تطلعاتهم المتعلقة بالنبوءات وبمجييء مسيحهم المنتظر، وما زال العقبة الأخيرة التي تحول بينهم وبين إعادة بناء هيكل سليمان، الهيكل الذي هو، بدون منازع، مركز استقطاب كل يهودي والمكان الوحيد الذي يحق لهم فيه ممارسة شعائرهم الدينية الحقيقية والأصلية. وكي يتحقق لهم كل ذلك، عليهم أولاً أن يهدموا المسجد الأقصى.

المسجد مهدد

إنه مهدد لأن من المحتم على اليهود أن يعيدوا بناء هيكلهم حيث ينتصب المسجد حالياً، والمكان لا يتسع للاثنين: المسجد والهيكل. ولا بد من التخلص من أحدهما. المسجد الآن ما زال ينتصب بوقار، بينما لم يبق من الهيكل سوى جدار واحد ـ حائط المبكى ـ، المكان الوحيد الذي يحق لليهودي أن ينتحب فيه وأن يبكي أمجاده الغابرة ويذرف دموع الندم على الهيكل واعداً يهوه ببذل كل ما في طاقته ليعيد إلى الهيكل سابق عزه ومجده وازدهاره. وهذا هو الوضع الآن، ولكن إلى متى سوف يظل على ما هو عليه بعد أن فتحت إسرائيل نفقاً تحت المسجد وقررت زرع آلاف المنازل لليهود حوله؟

نعم، لليهود كنيس في كل بلد وفي كل مدينة وحتى في كل قربة هم متواجدون فيها بعددٍ كافٍ، ولكن الفارق بين الكنيس وبين الهيكل فارق شاسع، فارق أساسيّ وجذري.

إن الأصول التاريخية لاعتماد الكنيس كمكان لاجتماع الطائفة اليهودية في أيام السبت ومناسبات الأعياد يرتقي بعيداً في التاريخ حتى يصل إلى عهد السبي والتشتت، عندما اضطر المشتتون إلى إتمام بعض شعائرهم الدينية في الكنيس لما استحالت عليهم إمكانية ارتياد الهيكل. وقد اقتصرت هذه الشعائر على تفسير الناموس والتعليق على بعض ما ورد فيه، أو على تلاوة تاريخ شعب الله المختار، إذ ليس من المسموح ممارسة طقوس العبادة الحقيقية في الكنيس، تلك الطقوس التي لا يمكن إقامتها إلا في الهيكل. ففي الهيكل فقط يجري الكشف عن تابوت العهد وعن صفائح الناموس. وفيه تقدم الذبائح ليهوه في سبيل تجديد العهد معه ونيل غفرانه ورضاه. أربعة أشياء، يقول رجال الكهنوت، تعتبر ملكاً خاصاً للإله وهي تمثل في الوقت نفسه السبب الرئيسي الذي من أجله خلق الله العالم وهي:

١ ـ الناموس.

٢ ـ السماء والأرض.

٣ ـ إسرائيل.
٤ ـ هيكل أورشليم.

فحين يقتصر دور الكنيس على تعليم المشتتين وتذكيرهم بواجباتهم والسهر على إبقاء الوحدة بينهم متينة ودائمة، فإن الهيكل، كبيت لله، هو المكان الوحيد الذي فيه يحقق اليهودي اتصالاً مباشراً مع الرب وفيه يتعبد يهوه، ويستغفره، ويتوجه إليه ويتحاور معه.

أما فكرة بناء الهيكل فإنها تعود إلى سليمان الذي أراد حصر السلطات بيد الملك وحده، وهي في الأصل فكرة سياسية بقدر ما هي دينية. إن هاجس الملك كان وضع تابوت العهد تحت سلطته مباشرة عن طريق بناء ما يشبه الصالة الفسيحة تكون في الوقت نفسه تابعة للقصر ومكاناً للاحتفاظ بتابوت العهد. وبعد أن تحقق له ذلك، عمد في بعض المناسبات الرسمية وفي الأعياد الدينية إلى تقديم الذبائح بنفسه إلى يهوه مسبغاً بذلك الطابع الديني على السلطة الملكية. وقد انتقد الأنبياء هذا النهج انتقاداً لاذعاً وأصابهم الهلع من رؤية المركز الديني الرئيسي يقع تحت نفوذ السلطة السياسية. ومن يدقق النظر من هذه الزاوية فإنه يدرك أن لا الملكية ولا الهيكل هما من صميم الأصالة اليهودية. ولكن عندما توسعت صلاحيات الهيكل وصار يحوي قدس الأقداس حيث يتجلى الرب، وحين زُين بالفسيفساء والعطور والشمعدانات ذات الفروع السبعة وحين استقرت فيه اللوائح العشر والمذبح وحين صارت جموع الشعب تتوافد إليه للعبادة والتقديس فإنه صار يمثل رمزاً دينياً وقومياً في الوقت نفسه. ثم كبر شأنه وتوسعت أهميته وتعمقت سلطته في نفوس الناس لا سيما بعد أن هدم ثم أعيد بناؤه. ومنذ ذلك الحين أصبح بيتاً للعبادة ورمزاً لوحدة الأمة وشعاراً وطنياً يلتصق التصاقاً حميماً بوجود إسرائيل ومستقبلها ومصيرها وكان قد مضى على تشييده ـ منذ عهد سليمان ـ ما يناهز الأربعة قرون.

إن الهيكل الأول الذي بناه سليمان قد هدمه نبوخذنصر في عام (٥٨٦) ق.م فأعاد بناءه عزرا وناحوم في عام ٥٣٦ ق.م ثم رممه

هيرودوس في عام (٣٧٤) ق.م. وظل الهيكل الثاني قائماً إلى عام ٧٠ م حين دكه الإمبراطور الروماني تيتوس. وحسب الاعتقاد اليهودي فإن مسيحهم المنتظر سوف يبني الهيكل الثالث ويتم ذلك عندما يغفر يهوه ذنوب شعبه المختار ويجمع شمله في أرض الميعاد. أما المكان الذي سينتصب فيه هذا الهيكل فهو المكان نفسه الذي أقيم عليه الهيكل السابق الباقي منه جداره الشرقي الخارجي والمعروف بحائط المبكى.

إن الصهاينة خططوا وكرّوا وفرّوا وأقدموا وفشلوا ثم خططوا من جديد مرة وثانية وثالثة إلى أن نجحوا باغتصاب فلسطين في عام (١٩٤٧). ومنذ ذلك الحين بدأوا يتربصون ويناورون ويتآمرون ليضعوا أيديهم على فلسطين بكاملها لا سيما مدينة القدس منها، إلى أن سنحت لهم الظروف في عام (١٩٦٧) ـ أي بعد عشرين عاماً ـ «فحرروا» الأرض الموعودة كلها واتخذوا القدس عاصمة أبدية لهم. ومن المهم التنويه أن كلمة وطن لا توجد بالعبرية، فكلمة هاأرتز ـ أي الأرض ـ تعني في الوقت نفسه الوطن والأرض. كما أن المفردات التالية: ناموس، أمة ودين لها قاسم مشترك واحد يرمز إلى الشعب المختار، كما أن كلمة «إسرائيل» وحدها تشمل كل هذه المعاني وترمز إليها. فمن هذه الزاوية يجب النظر إلى الضفة والقطاع، أي على أنها جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل، كي نتأكد أن الإسرائيليين عمالاً كانوا أم ليكوداً، حمائم كانوا أم عقباناً، فإنهم لا يتنازلون ولن يتنازلوا عن شبر واحد من «أرض أجدادهم»، أرض مملكة سليمان لأنها «أرضهم». وكما انتظروا طويلاً كي يضعوا أيديهم على كامل الأرض الفلسطينية فإنهم ينتظرون الآن كي يعيدوا تشييد هيكل سليمان، وإلا كل ما تكبدوه من مشقّات وكل ما أنجزوه من انتصارات وكل ما حاكوه من مؤامرات، وكل ما صرفوه من دولارات، يكون هراء لا معنى له ولا قيمة. ولكن إلى متى يدوم هذا الانتظار؟ إلى أن تكتمل الخطة، فيتلاشى العرب ويتشتت المسلمون وهو ما بدت بوادره اليوم بوضوح. من حين إلى آخر يروق للإسرائيليين أن يستطلعوا ردة فعل المسلمين، فيجسون نبضهم عن طريق افتعال حريق في المسجد يكلف بالقيام به «رجل مخبول». أو عن طريق بعض التصريحات أو

بعض التحديات المباشرة يقوم بها حسب قولهم «اليمين المتطرف» أو جماعة الحاخام كاهانا. وهذه كلها مناورات وسبرأغوار. الخطة موضوعة وجاهزة ولم يبق سوى التنفيذ. ولقد بدأ التنفيذ منذ أن تم التوقيع على معاهدات كامب دافيد، ثم تقدم خطوات حين دُمر لبنان، ثم قفز قفزات هائلة وقطع أشواطاً شاسعة حين اندلعت حرب الخليج. إن الصهاينة يستمدون قوتهم من ضعف العرب، وتشتتهم، وتناحرهم وتناقضاتهم. فإذا بقينا على ما نحن عليه الآن، فسوف تتردد في آذاننا صرخات كثيرة تندب مدننا وتسأل عن مصيرنا ومصير أولادنا. عندئذ يكون اليهود قد نجحوا في محو خمسة وعشرين قرناً من تاريخ البشرية وعادوا بها إلى القرن الخامس قبل الميلاد. هذه هي خطتهم ليصححوا التاريخ، كما يدعون، وكي يخلصوا البشرية من «جنون ابن العاهرة» وينقذوا الأخلاق من «شذود حفيد الجارية».

العدو عنيف ومتحد

تعيش في إسرائيل شعوب كثيرة لها ثقافات ولغات وأصول مختلفة اختلافاً شديداً قد تبلغ أحياناً حد التناقض وربما التباين أيضاً، ومع ذلك فإنها تتفق فيما بينها على أهمية التعايش وعلى ضرورة الدفاع عن النفس. ثلاثة دوافع فقط تشكل القاسم المشترك بينها لتأمين التعايش وضمان التعاون وشد التلاحم وهي:

١ ـ شعور مشترك بالانتماء إلى «سامية صميمة ونقية»

٢ ـ أمل متأجج وراسخ بواقعية قرب مجيء المسيح.

٣ ـ كراهية جارفة وحقد عميق ضد المسلمين عامة والعرب خصوصاً.

أما الدافعان الأول والثاني فإنهما يستمدان استمراريتهما من أحداث التاريخ ويرتقي منشأهما إلى التوراة نفسها التي حيكت حولها الأسطورة التالية:

«عندما تجلى يهوه وأعطى التوراة لبني إسرائيل، فإنه لم يتوجه إلى هذا الشعب وحده بل خاطب كل الأمم. قصد أولاً أبناء عيسو وقال لهم: «أتقبلون أن أعهد إليكم بالتوراة؟» فسألوه ما هي التوراة

وما معناها وما محتواها؛ فقال لهم: «التوراة تقول: لا تقتل». فأجابوه مخذولين: «يا رب الكائنات، إن من طبعنا هدر الدماء، ألم تقل الكتب بشأننا»: اليدين يدا عيسو؟». تركهم الرب وتوجه إلى أبناء عمون ومؤاب وقال لهم: «أتقبلون أن أعهد إليكم بالتوراة؟» فسألوه عن ماهية التوراة هذه، فأجاب: «التوراة تقول: لا تزنِ». فأجابوه: «يا رب الأرض والسماء إن وجود شعبنا ما كان ليتحقق لولا أعمال الزنى والفجور». وهكذا عرض الرب التوراة على كافة الأمم والشعوب فرفضوا قبولها لنقص في سلوكهم ولتباين واضح بين ما فيها من قيود أخلاقية صارمة وبين ما كانت عليه أحوال تلك الأمم من فسق وفجور ودعارة وقتل وسرقة... الخ، إلى أن جاء دور إسرائيل. فما أن عرضها الرب عليها حتى وافقت حالاً لأنها لم تجد فيها ما يتعارض وممارساتها في الحياة».

[تكوين ٢٧/ ٢٢]

ومن المهم أيضاً التنويه بما تقوله أسطورة أخرى من أن «الرب نفسه الجالس في السماء، يدرس دائماً ما جاء في فصول التوراة».

أما الدافع الثالث فإنه يبدو واضحاً في الطريقة التي عامل بها اليهود فلسطين عام ١٩٤٧ والتي يعاملون بها الآن سكان الضفة والقطاع وكذلك سكان جنوبي لبنان، والتي تتميّز بشعور حقد دفين نشأ عن ترسبات قائمة لسلسلة طويلة من الاضطهاد والتنكيل ذاق «شعب الله المختار» طعمها حيثما حل وأنّى ذهب إلا في البلاد الإسلامية. شعور بالاضطهاد يعود إلى عشرين قرناً مضت يتفاعل مع اقتناع بالتفوق العرقي، يتلقح مع إيمان راسخ باحتكار «الحقيقة الدينية»، كل هذه المشاعر تتشابك وتتداخل وتتعقد وتشتد في نفس الإنسان الإسرائيلي لتجعل منه مخلوقاً يتلذذ باضطهاد العرب والتنكيل بهم، لا ليحافظ على أمنه وسلامته فحسب، بل ليفرّج عن حقد حاد ومتفجر، ويحافظ على «مكاسب» تاق إليها طويلاً، كي يسمو ويبلغ مستوى إمكانية التجاوب مع يهوه والاتحاد به فكرياً وقومياً واجتماعياً، فما من اضطهاد أفظع واعتقاد أقسى من الاضطهاد والتنكيل التي يسومها مضطهد سابق لإنسان آخر وقع في قبضة يده.

أحد الدبلوماسيين الفرنسيين قال حين شاهد مجازر صبرا وشاتيلا: «إنها شبيهة بمعسكرات فارسوفيا؛ ولكن منتهى الوحشية أن هذه الجريمة الشنعاء قد حدثت بالاتفاق مع ورثة تلك المعسكرات بموجب تعليمات صدرت عنهم أنفسهم، وعلى أثر ضوء أخضر أشعلوه بأيديهم». نازية هتلر كانت أرحم، ومعسكرات تعذيبه كانت أشفق، لأنها كانت مشاعر عابرة وأحداث نشأت عن تفاعلات ومعادلات هيهات لها أن تعود ثانية. أما عنصرية الشعب اليهودي فإنها عنصرية دفينة تزداد مع الأيام حدة وتقوى مع السنين تعصباً. وما عودته إلى أرض فلسطين بعد انقضاء قرون عديدة على خروجه منها إلا صورة واضحة عن حدة تلك العصبية ودليلاً قاطعاً على تأصلها. مما لاشك فيه أن التاريخ قد عرف مظاهر عديدة من العنصرية المتعصبة عند باقي الشعوب ولكنها، مع ما سببته من كوارث في حينه، لم تكن أشد خطراً من العنصرية اليهودية. فبينما كانت الأولى حالة طارئة ونزوة عابرة مستوحاة أصلاً من العنصرية اليهودية نفسها، فإن خط هذه الأخيرة ينشأ عن كونها إيماناً عميقاً واقتناعاً ثابتاً نتجا عن ربط الميثولوجيا الخيالية بالواقع الإنساني، وعن دمج الدين بالعنصر، والرب بشعب واحدٍ دون باقي الشعوب.

إن هذا التلاحم الذي أصبح عضوياً وهذا التماسك الذي أضحى غريزياً وهذا الارتباط الذي صار مصيرياً تأصلت جذوره في نفس اليهودي وتعمقت عبر القرون، يتوارثه جيلاً عن جيل ضمن نطاقٍ لا يتسرب إليه الحديث لأنه لا يعترف بالتجديد ولا يهتم بالتغيير. كل الجهود تكرست للحفاظ على العهد وعلى الشريعة: العهد المتعلق بالأرض الموعودة، والشريعة الموسوية أو الناموس.

وحين دقت أجراس عودتهم المرتقبة منذ آلاف السنين وجدوا أمامهم العرب يحولون دون تحقيق مخططهم، فما كان منهم إلا أن صبوا عليهم جام غضبهم وأعلنوا عليهم حرباً شعواء في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية لا سيما وأن لهم مع الإسلام كدين حسابات كثيرة، حان الوقت لتصفيتها.

الخلاصة

إن دراستنا لكتاب العهد القديم أظهرت أن ثالوث الدين اليهودي قائم على ثلاث ركائز هي:

١ ـ الوعد الإلهي.
٢ ـ شريعة موسى.
٣ ـ هيكل سليمان.

الوعد الإلهي بمنح أرض كنعان إلى شعبه المختار ظاهر وواضح في العهد القديم سواء من ناحية حدود هذه الأرض التي تمتد من مصر إلى العراق، أو من ناحية من يحق لهم الاستفادة من هذا الوعد. آيات العهد القديم تحصر الورثة الشرعيين والحقيقيين بأبناء يعقوب الإثني عشر وتتغاضى عن أولاد إبراهيم جميعاً وخصوصاً عن إسماعيل. موسى قادهم إلى هذه الأرض في المرة الأولى ودخلوها وعلى رأسهم يشوع بن نون، وهرتزل قادهم إليها في المرة الثانية فدخلوها وعلى رأسهم دافيد بن غوريون. وها هم يتربعون الآن في أرجائها كافةً واضعين أيديهم على كل ما فيها من أماكن مقدسة، إسلامية ومسيحية. وكانت الصفعة الأولى على وجه تاريخ المسيحية عندما عاد أحفاد من صلبوا المسيح يرتعون في الكنائس

العتيقة ويتآمرون عليه مرة أخرى عن طريق صلب الحق والعدل كل يوم وكل ساعة. وكان التحدي الصارخ في وجه الإسلام والخطوة الأولى نحو حمله على التراجع والتقهقر ومن ثم إلى الانسحاب وربما الاندثار في رمال الصحارى التي انبثق منها.

إن التطرف الحاخامي المنبثق من التعلق الأعمى بالشريعة جعل النص الديني الأساسيّ يغرق في بحر من التفاسير والتأويلات وفي سيل من الاجتهادات و الانعطافات إلى أن وصل الأمر ببني إسرائيل إلى التنافس في الجري وراء الوسيلة بعد أن تلاشت الغاية وغابت عن الأنظار. إن الهدف من شرح التوراة أصبح له أبعاد تعليمية ودنيوية تستأثر بالمجهودات المبذولة على حساب الأسس الدينية والركائز الروحية.

من هذه الطرق تمّ التوصل إلى خلق ما يسمى بالشخصية اليهودية ذات الطابع الخاص والسلوك الخاص والصفات التي تميزها عن سائر الشعوب. فاليهودي الملحد، ماركسياً كان أم ليبرالياً، مهما ادعى أنه لا يؤمن باليهودية ولا يتقيد بشريعتها، فإنه لا يستطيع أبداً الخروج عن خطٍ واضح رسمته له ديالكتيكية خاصة بالعنصر اليهودي، من السهل ملاحظتها في تصرفات كل يهودي. هذه الدياليكتيكية نشأت عن ثقافة متعددة الأشكال امتزج فيها الديني بالاجتماعي والاقتصادي بالسياسي والعرقي باللغوي والأدبي، وحتى في تفضيل أصناف الطعام واختيار عناصرها. خلاصة هذه الدياليكتيكية تجدها محصورة ضمن إطار محدود عبّر عنه سيغفريد بقوله: «عندما نسبر غور نفسية اليهودي، أي يهودي، وكل يهودي، حتى غير المؤمن وغير الملتزم، فإننا نجد في داخله تلك الطقوس وتلك الثقافة الوراثية».

ليس أبلغ من التعبير عن نفسية اليهودي، إلا ذلك المقطع من ذكريات فتاة يهودية اضطرت للاختباء إبان الحرب العالمية الثانية من الاضطهاد النازي، فقالت في أحد فصول كتابها:

«هذه الأحداث عادت لتذكرنا بواقعنا كأناس يعيشون في الخفاء كيهود مسجونين بين أربعة جدران، يهود ليس لهم حقوق وعلى كاهلهم تتراكم كل

الواجبات. نحن اليهود لا يحق لنا المطالبة باحترام مشاعرنا، لذلك فما علينا إلا الاحتفاظ بعزيمتنا وقبول كل ما يُفرض علينا في حدود ما نستطيع تحمله مسلمّين أمرنا إلى الرب. هذه الحرب الرهيبة سوف تنتهي يوماً ما وتضع أوزارها؛ لا بد وأن يأتي يوم نصبح فيه أناساً كسائر البشر وليس يهوداً فقط.

من الذي وسمنا بهذا الطابع؟ من الذي فصلنا عن باقي شعوب العالم؟ مَن الذي تسبب لنا بكل هذا الشقاء؟ الرب هو الذي أراد، والرب هو الذي ينقذ. وإذا كُتبت النجاة لبعضٍ منا على الرغم من الشدائد القاسية التي نعاني منها، فلا بد من الاعتقاد، أنَّ من أفرادٍ منبوذين، سوف يصبح اليهود مثالاً يحتذى، وقدوة تُرتجى. من يدري؟ سوف يأتي يوم يتعلم فيه العالم أجمع عمل البر والخير من كلمات كتابنا المقدس. عبر هذا الأمل نجد العزاء في تحمل كل ما يحاك لنا وما ينزل بنا.

من المستحيل أن نصبح في يوم من الأيام ممثلين لبلد ما مهما عظم ومهما كبر، فمن الصعب أن نصبح هولنديين أو بريطانيين أو روساً، فنحن يهود وسوف نظل يهوداً لأننا لا نريد أن نكون إلا يهوداً.

فلنتشجع ولنكن مدركين لأهمية الواجب الملقى على عاتقنا ولنتحمل قدرنا من دون تأفف ومن دون شكوى، فخلاصنا أمر لا ريب فيه، لأن ما من يوم أهمل الرب فيه شعبه المختار. قرون عديدة مرت ونحن نشقى ولكن عزيمتنا لم تفتر وإيماننا لم يضعف وأملنا لم يتزعزع. الضعاف منا يسقطون في طريق العذاب والأقوياء يصمدون في طريقهم إلى أورشليم...»

إن بعض حاملي لواء الدفاع عن اليهود يدّعي أن العرب لا يدركون فداحة المآسي التي لحقت بالشعب اليهودي عبر تاريخه ما بين اضطهاد وتنكيل وبين معسكرات تعذيب وقتل جماعي... الخ، مما يخولهم التأكيد على حقهم بالتمتع، أخيراً، بوطن خاص بهم.

إن هذه الحجة باطلة قدر ما تبدو في الظاهر منطقية وواقعية. إنها باطلة للأسباب التالية:

١ ـ إن التاريخ أثبت أن العرب، إجمالاً، لم يضطهدوا اليهود أبداً. ومن

المفيد التمييز بوضوح بين التحذير من اليهود عبر بعض الآيات القرآنية، وبين الموجات العنصرية ضدهم التي اجتاحت الكاثوليكية خصوصاً، والغرب عموماً. لعل الغرب في ساديته المعروفة، هو الآن في مجال معاقبة العرب على موقفهم الإنساني والمسالم من اليهود...، وقد اختار اليهود أنفسهم ليقوموا بهذا الدور!!! ومن غيرهم يرضى ذلك؟ من أكبر المظالم التي عرفها التاريخ هو الظلم الواقع حالياً على العرب. لا مانع لدى العرب من خلق وطن قومي لليهود، ولكن ليس على حساب شعب آخر. إن التكفير عن ظلم لحق بشعب عن طريق ظلم شعب آخر هو منتهى السادية وأحط درجات اللاأخلاقية.

٢ ـ إن دراسة أحداث التاريخ أثبتت أنه لو لم يعانِ اليهود الشقاء والبؤس، لكان من واجب اليهود استحداثهما أو اختراع بديل عنهما، لأن بني إسرائيل بحاجة ماسة إليهما:

أ ـ لأنها تحميهم من الاندماج مع بقية الشعوب وتقف حائلاً دونهم ودون الانصهار.

ب ـ لأنها الوسيلة الدينية العريقة لتعذيب النفس في سبيل التكفير عن الخطايا، خطايا بني إسرائيل، وما أكثرها!!!: من نسيان الرب، إلى نكث العهد مروراً بعبادة العجل وعبادة بعل والزواج من أجنبيات... الخ، خطايا تفشت وراجت وانتشرت في معظم مراحل تاريخ الشعب المختار. وبقدر ما تكون الخطيئة كبيرة وفادحة، يكون العقاب أشد وثمن الغفران أبهظ.

٣ ـ إن هذه الشدائد، مفتعلة أم حقيقية، تمدّهم في كل الأحوال بسلاح نفسي فعّال وتزودهم بأساليب ابتزازية نادرة. فبما أن الغفران يتطلب عذاباً، وبما أن العذاب يحتاج إلى من يقوم به أي إلى مُعذِّب، فإن اليهود نجحوا بإلصاق تهمة الاضطهاد بالشعوب التي استضافتهم وخلقوا عندها عقدة الذنب التي من خلالها لم تعرف مساومتهم الدنيئة حداً تقف عنده ولا ابتزازهم الجشع رادعاً يلجم شراهته.

مما لا شك فيه أن الشريعة، كما قلنا في ما سبق، هي العامل الأساسي الذي لعب الدور الرئيسيّ في رصّ صفوف اليهود وتوحيد كلمتهم على الرغم من تبعثرهم في زوايا العالم الأربع. هذا لا يكفي. إذ أن شد الأواصر بين اليهود لا يحقق عودتهم إلى أرض فلسطين. من هنا تنشأ أهمية الهيكل الذي لعب دور المركز الاستراتيجي الديني في ربط صفوف اليهود التائهين وفي لمّ شملهم في زحف عارم إلى أرض الميعاد، إلى أرض فلسطين، فلسطين فقط.

ومع أن تشييد الهيكل لم يلق تجاوباً حسناً في نفس معظم اليهود في بادىء الأمر، إلا أن مركزه أخذ يتدعم ويتأكد شيئاً فشيئاً في نفوس بني إسرائيل حتى أصبح رمز وحدتهم ومكان التقائهم وتخاطبهم مع يهوه. وبعد أن تهدّم في القرن الأول بعد الميلاد وتشتت اليهود في جميع أنحاء العالم أخذ رجال الدين ينسجون حوله الأساطير الكثيرة ويربطون به وقوع بعض الأحداث المؤلمة جاعلين منه رمز عودتهم إلى أرض أجدادهم.

والجدير بالذكر أن اليهود ينتظرون مجيء مسيحهم الحقيقي. وحسب اعتقادهم فإن هذا المسيح لن يأتي إلا حين تستقر إسرائيل بأمان في أرضها الموعودة وحين ينتصب الهيكل في مكانه القديم والمقدس. عندئذٍ يستعيد الشعب العبري طاقاته الأولى الخلاقة والفعّالة ويعود كل شيء إلى ما كان عليه أصلاً مع بدء الحياة.

من هذه الزاوية يجب النظر إلى الهيكل وتصور أهميته الدينية والإلهية، والعقائدية. إن اندثاره لم يتسبب بانحسار دور الإكليروس وحسب بل بتقليصه وحتى باختفائه تماماً. ففي غياب الهيكل واضمحلال الإكليروس تعذر تقديم الأضاحي للرب، ومن ثمّ استحال تجديد العهود السابقة المبرمة مع يهوه، أو حتى التأكيد على التمسك بها. لقد كان من الممكن انتهاز هذه الفرصة لتحرير الدين اليهودي من التبعية الجغرافية ودفعه في طريق الانفتاح التام على إمكانات عالمية أوسع وعلى آفاق جديدة أعرض ولكن الذي حدث هو العكس تماماً. فالخصوصية الضيقة والانفرادية المتعنتة التي رافقت الدين

منذ نشأته أدتا به إلى الانكفاء على الشريعة وعلى التمسك بها كعامل أساسي من عوامل لمّ الشّمل وتمكين ربط الأواصر العرقية. الشريعة وحدها هي الطريق إلى الوحدة. فدراسة التوراة وسبر كنه معانيها والكشف عن كوامن أسرارها هو واجب من أهم واجبات بني إسرائيل. وفي هذا الخصوص تقول كتب إسرائيل الدينية (الزهار مثلاً Zohar)) إن من يركز اهتمامه على فهم التوراة وينفذ إلى أعماق أسرارها فإنه يساعد على تثبيت دعائم هذا العالم. إن تشبيه العالم بالتوراة مستمد من بعض الإحصاءات التلمودية التي توصلت إلى إقامة تطابق عددي ما بين أعضاء الإنسان ووصايا التوراة. ففي التوراة (٢٤٨) أمراً إيجابياً و (٣٦٥) أمراً سلبياً، يقابلها كما يقال (٢٤٨) عضواً و (٣٦٥) عرقاً في جسم الإنسان.

وهكذا فإن وحدة الشعب اليهودي لم تتحقق عن طريق فهم العقيدة نفسها بل بالتمسك والتقيد المتزمت بمظاهر سطحية فقدت كل معانيها الروحية ونأت عن جوهرها الحقيقي. فبينما تحرر الدين المسيحي، منذ أيامه الأولى، من الجغرافيا والعرق والشعور الوطني الضيق حاملاً رسالة الله إلى كل الأصقاع والعروق ومختلف الأوطان كافةً، فإن الشعب اليهودي لمّ صفوفه وراء فضائل التوراة العازلة «توراته» الخاصة به والتي تميّزه عن سائر شعوب العالم وتفضله عليهم.

من هنا أيضاً يجب أن نتصور مدى توق اليهود لهدم المسجد الأقصى ودك كنيسة القيامة في سبيل إعادة بناء هيكلهم الذي من أجله عادوا إلى أرض الميعاد. ففي كتابه «**حكم وأمثال تلمودية**» [المطبعة الفرنسية الوطنية ـ ١٨٧٨] يذكر الحاخام شوهل م. الحكمة التالية: «أربعة أشياء تخص الله مباشرة، ولأجلها خلق الكون: الناموس (أي شريعة موسى)، الأرض والسماء، إسرائيل (أي الأرض الموعودة) وهيكل سليمان.

إن الاستيلاء على الأرض شرد شعباً بكامله، بمسلميه ومسيحييه. وبناء الهيكل يستوجب هدم المسجد ودك الكنيسة، فهل من يسمع ويقرأ ويعي من العرب مسلمين ومسيحيين؟

فهرس

القسم الأول

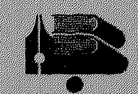
القسم الثاني

القسم الثالث

من حق كل إنسان عربي أن يطلع على حقيقة عدوه الإسرائيلي الذي زرعته السياسة الدولية في قلب الوطن العربي. إن مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين ليس وليد وعد بلفور عام ١٩١٧، بل هو من الأسس الرئيسية لتفكير اليهود منذ عصور غابرة. فاليهود شعب شديد الحرص على التمايز عن غيره من الشعوب وشديد التمسك بعنصريته وانكماشه على نفسه والنظر إلى الآخرين كأعداء يجب القضاء عليهم. ومن سخريات القدر أن يطبق اليهود نظرياتهم العنصرية وحقدهم التاريخي على العرب الذين احتضنوهم وأكرموهم، خصوصاً في الأندلس، حيث عاشوا عصرهم الذهبي تحت الحكم العربي الإسلامي.

إن هذا الكتاب استعراض لأفكار اليهود ودلالاتها من خلال قراءة معمقة للتوراة. فهو يساهم في تطوير وعي المجتمع العربي بالخطر الداهم الذي يحمله المشروع الصهيوني لإخضاع العرب وإذلالهم والسيطرة على أرضهم وثرواتهم، ويكشف عن الأفكار التي تتحكم بتصرفات اليهود تجاه فلسطين والمنطقة العربية بأسرها.

ولا شك أن القرن القادم سيكون حاسماً في هذا الاتجاه، فإما أن يقضي العرب على هذه الجرثومة الدولية الخطيرة الآتية من أعماق التاريخ، وإما أن يقعوا صرعى لتأثيراتها القاتلة.



دار البيروني

للطباعة والنشر

تلفون: ٩٥٨-٣٥٠ ١ ٩٦١ - فاكس: ٣٥٢٩٩٨ ١ ٩٦١

ص. ب.: ٦١٩٩-١١٣ - بيروت - لبنان